# سيـــدي علـــي رئيـــس

# قبطان البحر العثماني في الخليج العربي

# ورحلتـــه " مـــرآة الممالـــك "

ترجمة ودراسة وتعليق

د / تسنيم محمد حرب

# سيدي علي رئيس

## قبطان البحر العثماني في الخليج العربي

## ورحلته " مرآة الممالك "

1 الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

**اسم الكتاب: رحلة القبطان العثماني سيدي علي الرئيس في كتابه "مرآة الممالك".**

**ترجمة ودراسة وتعليق: د. تسنيم محمد حرب**

**موضوع الكتاب: تاريخ ، رحلات .**

**عدد الملازم: ١٥ ملزمة**

**مقاس الكتاب: ١٧ × ٢٤**

**الترقيم الدولي: ٩٧٨-٦٠٥-٦٩٧٤٢-٧-٣**

مركز التاريخ العربي للنشر
Arab History Publishing

التوزيع والنشر

6/11 شارع وحيد أفندي - حي توفيق بيك - كوجوك
جكمجة - اسطنبول - تركيا - ت: 00905454886870
هاتف: 00201027013326 - 00201555566139
E-mail: info@arabhistorypublishing.com
Websit: www.arabhistorypublishing.com

# سَيِّــدِي عَلِــي رَئِيــسْ

# قُبْطَانُ البَحْرِ العُثْمَانِي فِي الخَلِيجِ العَرَبِي

# وَرِحْلَتُــهُ " مِــرْآةُ المَمَالِــكْ "


ترجمة ودراسة وتعليق

د / تسنيم محمد حرب

# الإهـــــــداء

إلـــى أبـــي ..

معلمي وقدوتي، ونبراسي الذي ينير دربي،

من علمني أن أعيش من أجل العلم

من أحمل اسمه بكل فخر.

دامت لنا شمس دفئك،

ودام للدنيا نور شمسك.

**ابنتك/ تسنيم**

# المقدمـــة

يذخر التاريخ العثماني بأسفار الرحالة العثمانيين الذين جابوا أنحاء الدولة العثمانية؛ مثال ذلك رحلة أوليا جلبي التي فاقت في نواحٍ كثيرة غيرها من الرحلات؛ سواء التي قام بها رحالة من العرب أو الأوروبيين، وذلك من حيث المادة العلمية وتنوع المشاهد؛ حتى أصبحت كتب الرحلات هذه من المصادر التاريخية الهامة، كل رحلة في ميدانها.

وكتاب مرآة الممالك لرئيس البحرية سيدي على، واحد من المصادر الهامة التي ألفها العثمانيون، وذلك لأن هذا الكتاب الذي يعتبر من أمهات الرحلات لدى العثمانيين، يهدينا إلى التعرف على الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والفكرية للبلدان التي كانت واقعة -وقت كتابة الرحلة- تحت النفوذ التركي بشكل أو بآخر، وذلك في منتصف القرن السادس عشر الميلادي على عهد السلطان سليمان القانوني العثماني (١٥٢٠-١٥٦٨م).

وتتلخص ظروف الرحلة في أن الرئيس سيدي علي فقد جزءً كبيراً من الأسطول العثماني في خليج البصرة إثر انسحابه أمام الأسطول البرتغالي، وتحطم سفنه، فاضطر إلى التوجه للهند، وكانت تحت حكم أسرة بابر شاه التركية، ومنها إلى بلاد ما وراء النهر أي إلى تركستان الغربية أو آسيا الوسطى بالمفهوم المعاصر حتى وصل إلى بغداد، ومنها إلى استانبول، وذلك في رحلة برية استغرقت أربع سنوات من عام ١٥٥٣- ١٥٥٧م.

وصف رئيس البحر سيدي علي في رحلته هذه التي أودع تفاصيلها كتابه "مرآة الممالك" أهم المدن التي نزلها، كما وصف وصفاً دقيقاً الملامح الشخصية والنفسية لأهم الشخصيات التي التقى بها من أصحاب السلطان مثل همايون بن بابر شاه سلطان الهند التركي آنذاك، كما وصف أصحاب المكانة الدينية من الدراويش والصالحين.

إن وصف الرئيس سيدي علي للصعاب التي تعرض لها، ووصفه لمجموعة من العادات والأخلاق للشعوب التي حل بها، وسرده للوقائع والأحداث التي عاشها؛ لابد وأن يضيف شيئاً هاماً لمن يريد البحث العلمي في تلك البلدان التي مر بها، أو للشخصيات البارزة منها.

مهّد الرئيس سيدي علي لرحلته تمهيدا تضمن سبب تصنيف كتابه هذا "مرآة الممالك"، ثم شرح الأحداث التي استدعت سفره من البصرة إلى الهند بحراً، ثم وصف رحلته البرية بدأ من الهند وصولا إلى بغداد ثم استانبول، ووصف ما رآه عجيباً أثناء رحلته.

ولا شك أن سياحتنامه مرآة الممالك، وبتعبير آخر رحلة رئيس البحر سيدي علي، لها أهميتها التي دفعت العلماء الأوروبيين لترجمتها، فترجمت إلى الألمانية عام ١٨١٥م، وإلى الفرنسية عام ١٨٢٩م، وإلى الإنجليزية عام ١٨٩٩م، وإلى الروسية عام ١٩٦٣م، كما اهتم بها أتراك تركيا فنقلوها من الحروف العثمانية إلى الحروف التركية الحديثة.

ولهذه الأهمية العلمية والتاريخية، كان كتاب مرآة الممالك والرئيس سيدي علي هما موضوع هذه الدراسة.

وهذه الدراسة تعتمد على النص الذي كتبة الرئيس على سيدى باللغة التركية العثمانية، ونشرته مطبعة إقدام في استانبول عام ١٣١٣هـ.

**وقد قسمنا الكتاب إلى قسمين ومدخل :**

**المدخل**: وتناولنا فيه عرض تطور البحرية العثمانية قبل عصر السلطان سليمان القانونى، ثم في عصره، والصراع العثماني البرتغالي في المحيط الهندي والخليج العربي في القرن السادس عشر. وفي النقطة الثانية من المقدمة تكلمنا عن الترسانة البحرية العثمانية وتشكيلاتها.

**أما القسم الأول**: فهو دراسة كتاب مرآة الممالك من حيث الشكل والمحتوى؛ مع التعريف بسيدي علي رئيس مؤلف الكتاب.

**وقد جاء هذا القسم في بابين:**

**الباب الأول**: بعنوان: "سيدي علي رئيس، عصره، أعماله، ومكانته في البحرية العثمانية".

**ويشتمل على فصلين :**

**الفصل الأول**: بعنوان: أحوال العالم الإسلامي في القرن السادس عشر الميلادي.

**والفصل الثاني** : بعنوان: سيدي علي رئيس حياته ومكانته.

**أما الباب الثاني** فكان بعنوان: كتاب مرآة الممالك دراسة في المحتوى والأسلوب.

**الفصل الأول**: وتناول التعريف بالكتاب، وسبب تأليفه، والهدف منه، وتقويم الكتاب، ثم أحوال العالم الإسلامى في كتاب مرآة الممالك.

**والفصل الثاني**: **بعنوان**: **الخصائص الأسلوبية واللغوية لكتاب مرآة الممالك**. **والفصل الثالث** : **بعنوان منهج سيدي علي رئيس في كتاب مرآة الممالك**.

**أما القسم الثاني من البحث فهو عبارة عن الترجمة العربية لكتاب مرآة الممالك مع التعليق كلما أمكن لنا التعليق على النص.**

**ثم قائمة المراجع.**

# القسم الأول

# الدراسة

# المدخــل

## البحرية العثمانية في النصف الثاني من القرن السادس عشر

### أ- تطور البحرية العثمانية قبل السلطان القانوني :

من المعروف أن الدولة العثمانية نشأت دولة برية في الأناضول، ولما عبرت جيوشها البحر إلى غاليبولي سنة ١٣٥٦م / ٧٥٧هـ، تبعتها حركة تهجير واستيطان في السهل الساحلي الأوربي المطل على بحر مرمرة، ومضت الدولة معتمدة على جيوشها في محاربة دول أوربية؛ مثل الصرب، والمجر، والأفلاق، والبغدان (رومانيا)، وغيرها من الدول والكيانات التي تعتمد على القوات البرية وحدها. وبمضي الوقت شعر العثمانيون بالحاجة الماسة إلى إنشاء أسطول لتأمين فتوحاتهم في البلقان والاستيلاء على الجزر المحيطة بهذا الإقليم، وفي بحر إيجة وبحر مرمرة، وللقضاء على البقية الباقية من ممتلكات الدولة البيزنطية، ولطرد البنادقة والجنويين من المناطق التي قد تغلغلوا فيها وامتلكوها، وهؤلاء كانت قوتهم الضاربة تعتمد على السلاح البحري.

غير أن نشأة الأسطول العثماني ترجع أساساً إلى رغبة الدولة العثمانية في القضاء على أسطول البندقية التي استحوذت على أكثر من ربع ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية الآيلة للسقوط.

وقد كان حكم السلطان مراد الأول ١٣٦٠-١٣٨٨م / ٧٦١-٧٩٠هـ هو البداية لنشأة الأسطول العثماني، فإلى جانب سياسته في التوسع الإقليمي في البلقان ونقله عاصمة الدولة إلى أدرنه في أوربا، قام ببناء عدد من السفن، ونظم قوة عسكرية من البحارة، وأقام داراً للصناعات البحرية في إزمير وكمليك. وانتهج ابنه بايزيد الأول ١٣٨٨- ١٤٠٣م / ٧٩٠- ٨٠٥هـ من بعده سياسة أبيه، فاهتم بتعزيز الأسطول، وتوسيع ميناء غاليبولي حتى أصبح يتسع لسبعين سفينة، وكان قد وضع في برنامجه الحربي فتح القسطنطينية،

وفرض عليها حصاراً محكماً، ولكنه تركها وعاد لمواجهة الخطر المغولي بقيادة تيمورلنك عام ١٤٠٢م/٨٠٤هـ حيث دارت بين الطرفين معركة انتهت بهزيمة الجيش العثماني، ووقع بايزيد في الأسر، ثم توفي بعد ذلك بقليل(١).

وفي عهد السلطان محمد جلبي وقع أول صدام بحري بين العثمانيين وجمهورية البندقية عام ١٤١٦م/٧١٩هـ، وأسفر عن هزيمة الأسطول العثماني، فحملت تلك الهزيمة العثمانيين على التفكير جدياً في إنشاء أسطول بحري قوي.

وحينما تولى الحكم السلطان مراد الثاني ١٤٢١ - ١٤٥١م / ٨٢٤ - ٨٥٥هـ أعاد الاهتمام بالأسطول وبنى عددا من السفن، واستطاع بهذا الأسطول انتزاع سالونيك من جمهورية البندقية.

---

(١) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٤، ج٢، ص ٨٦٦-٨٨١.

ويعد حكم السلطان محمد الفاتح ١٤٥١ - ١٤٨١م / ٨٥٥ - ٨٨٦هـ بداية مرحلة هامة في تاريخ الأسطول العثماني؛ لأن مشروعه الرئيسي الذي نفذه في مستهل حكمه الطويل، وهو فتح القسطنطينية تطلب بناء عدداً كبيراً من السفن، ويذكر أن الأسطول العثماني الذي قام بفتح القسطنطينية كان يتكون من أكثر من أربعمائة سفينة، ولم يتوقف نشاط الأسطول بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م / ٨٥٧هـ؛ بل ازدادت ميادين العمل بعد أن أصبح يسيطر على ضفاف البسفور الأوربية والآسيوية، وأصبح الطريق مفتوحاً إلى البحر الأسود وبحر إيجة ومواني شبه جزيرة المورة[١].

وقام الأسطول العثماني في عهد الفاتح بطرد الجنويين من مناطق على البحر الأسود وبحر إيجة، وأصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية. كما اندلعت حرب أخرى بين العثمانيين والبنادقة من ١٤٦٣- ١٤٧٩م / ٨٦٧- ٨٨٤هـ امتد فيها نشاط الأسطول العثماني إلى أجزاء شتى من الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

---

(١) أكمل الدين إحسان أوغلو (إشراف وتقديم)، الدولة العثمانية، نقله إلى العربية صالح سعداوي، استانبول ١٩٩٩م، ج١، ص ٤١٥، وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٣، ص ١١٥.

وكان التطور الحقيقي للأسطول العثماني في عهد السلطان بايزيد الثاني؛ حيث أنشئت السفن الحربية الضخمة، والتحق بالخدمة في الأسطول بحارة أتراك مشهورون؛ مثل كمال رئيس وبراق رئيس.

وفي عهد السلطان سليم الأول ١٥١٢-١٥٢٠م / ٩١٨-٩٢٦هـ نُقلت المراكز البحرية الرئيسية للأسطول من قاعدتها الأصلية في غاليبولي إلى استانبول؛ حيث أُنشئت داراً لصناعة السفن في ضاحية غالاطة على القرن الذهبي، وكان سليم الأول يعد العدة لفتح جزيرة رودس، ولكنه مات قبل إتمام ذلك، وخلفه ابنه سليمان القانوني الذي شهد الأسطول في عهده نشاطا لم يشهد له مثيل[١].

---

(١) سالم الرشيدي، محمد الفاتح، مكتبة الإرشاد، جدة، ط٣، ١٩٨٩، ص ٩٠؛ عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ص ٨٨١ - ٨٨٦.

## الترسانة البحرية العثمانية وتشكيلاتها :

كانت أولى الترسانات العثمانية الكبرى قد أقيمت في غاليبولى أيام السلطان يلدريم بايزيد، والسفن التي شيدت في تلك الترسانة هي السفن التي استخدمها بايزيد في محاصرة القسطنطينية، فلما فُتحت بعد ذلك حافظت تلك الترسانة على أهميتها مدة طويلة حتى جرى توسيعها في القرن السادس عشر، أما الترسانة ذات المزالق المتعددة التي أقامها السلطان محمد الفاتح في القرن الذهبي فقد ظلت على حالها لمدة نصف قرن. ثم قام سليم الأول ومن بعده سليمان القانوني بتوسيعها حتى أصبحت الترسانة الكبرى الثانية، وبعد دخول العثمانيين مصر وسواحل البحر الأحمر استغلوا الترسانة المملوكية في السويس، وشكلوا هناك أسطولاً قوياً لمواجهة السفن الأسبانية والبرتغالية، وجعلوا لذلك الأسطول قيادة مستقلة كانت منوطة بولاية مصر.

وبعد فتح المجر أقامت الدولة أسطولا للعمل في نهر الطونة كان يطلق عليه اسم إينجه دونانما أي الأسطول الخفيف، ثم أناطت قيادته بإيالة الطونة. وكان هناك أسطول نهري آخر يعمل في الفرات، وكان يوجد عدا ذلك عدة ترسانات أخرى على سواحل البحر الأسود، وسواحل البحر المتوسط وبحر إيجه.

والعاملون في الترسانة كالقبطان، ورئيس العزب، وعامل الدفة (دومنجي)، وعامل الشراع (يل كنجي)، وعامل القلفطة (قلفاتجي)، والنجار (دولكر)، والمدفعي (طوبجي)، والحارس (وارديان)، وغيرهم جميعًا كانوا يتقاضون أجورًا.

وكان عدد العاملين في الترسانة يتراوح بين الزيادة والنقص، ففي أواسط القرن السادس عشر كان يبلغ ١٨٠٠، ثم انخفض بعد قرن ليبلغ ٣٥٠، وكان يطلق على الرؤساء الذين يملكون سفنًا اسم قبطان.

## قبطان باشا وإيالته:

كان قبطان باشا أو باسمه الآخر (قبطانِ دريا) أي قائد البحر هو المسئول عن كل ما يتعلق بالشئون البحرية، وكان في البداية برتبة أمير سنجق، ويقيم حتى أواسط القرن السادس عشر في غاليبولي، ولما أصبح خير الدين بارباروس قائداً للبحر حصل هو ومن جاء بعده على البكلر بكية مع رتبة الوزارة، وكان من أعضاء الديوان الهمايوني، ولم يكن شرطاً مطلقاً كونه من رجال البحرية. وكان للقبطان باشا إيرادات مالية سخية، وعدد غفير من الرجال يعملون تحت إمرته، كما كان عدد كبير من جزر بحر إيجة والبحر المتوسط بمثابة السنجق التابع لإيالة القبطان باشا، ويُعرف أمراء تلك السناجق باسم أمراء البحر (دريا بكلري).

وكان يوجد بين رجال الترسانة بعد القبطان باشا مسئولون آخرون منهم أمين الترسانة، وهو المسئول عن كافة الأمور بها، ثم وكيل الترسانة (الكتخدا)، وهو المسئول عن أمور الضبط والربط، ثم أغا الترسانة وهو بمثابة نائب القبطان، ثم رئيس الميناء أي ربانه، ثم أمين الدفتر ثم وكيل الدفتر ثم كاتب الروزنامه، ثم عدد آخر من الكتبة، والمعماريين، والنجارين، والنقاشين، وعمال الصب ... وغيرهم.

## ورش إنشاء السفن :

كان يجرى تصنيع سفن الأسطول في الأساس في ترسانتي غاليبولي واستانبول، وكانت الدولة تستفيد من ورش إنشاء السفن الموجودة على سواحل البحر الأسود، وبحر مرمرة، والبحر المتوسط، ويتقرر نوع السفينة، وعدد المطلوب تصنيعه منها تبعًا لحجم الترسانة نفسها، وترسل الفرمانات السلطانية إلى أماكن معينة لتوفير الأخشاب، والحديد، والأقمشة، وغيرها من المواد، وتولي عملية نقلها، وعندما ينتهي العمل في سفينة جديدة، وتأتي مرحلة تدشينها كانت تقام الاحتفالات الخاصة التي يحضرها السلطان، والصدر الأعظم، وشيخ الإسلام.

ومن العوامل التي ساعدت الدولة على امتلاك أسطول قوي؛ توفر مصادر كثيرة للأخشاب اللازمة لصناعة السفن بفضل الغابات الكثيرة الموجودة على شواطئ البحر الأسود، إلى جانب المعادن الضرورية التي كانت الدولة تحصل عليها من الأفلاق (رومانيا) وألبانيا؛ في حين كان قماش الأشرعة يستورد من فرنسا(١).

(١) أكمل الدين إحسان أوغلو، مرجع سابق، ص ٤١٥-٤٢١؛ وديع زيدون، مرجع سابق، ص ١١٥، على حسون، مرجع سابق، ص ٣٩٥.

## ب- البحرية في عهد السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠- ١٥٦٦م / ٩٢٦- ٩٧٢هـ(١):

هو ابن السلطان سليم الأول، ولد في شعبان عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٥م في طرابزون بآسيا الصغرى، وكان والده آنذاك واليًا عليها، اهتم به والده اهتمامًا عظيمًا فنشأ محبا للعلم والأدب، وعُرف منذ شبابه بالجدية والوقار والتأني في جميع شئونه.

(١) هو عاشر السلاطين العثمانيين، فبعد وصوله نبأ وفاة أبيه السلطان سليم توجه قاصداً القسطنطينية، وبعد مراسم التشييع والدفن تولى الحكم عام ١٥٢٠م / ٩٢٦هـ، واستمر حكمه مدة ٤٦ عامًا. وكان من أعظم السلاطين العثمانيين، وأكثرهم استنارة علمية وتحضرًا، وكان موفور الحظ من مضاء العزيمة، وعلو الهمة، وقوة الاحتمال، والتسامح الشديد مع أعدائه، كما كان واسع الثقافة ذا ذهن متفتح، ومقدرة على التنظيم والإدارة والتشريع، كما كان محاربًا قديرًا، تمتع بصفات عسكرية كثيرة، ووصلت الدولة في عهده لقمة التقدم السياسي والعسكري والحضاري، وتبوأت مكانة مرموقة في العالم. وأطلق عليه مؤرخو الغرب لقب العظيم، بينما عُرف بين شعبه بلقب القانوني؛ أي جامع القوانين بسبب مساهمته في تدوين وتنظيم القانون العثماني، وتطبيقه بعدالة.

وقد اتسعت رقعة الدولة في عهده، وخاض العديد من المعارك البرية والبحرية في عدة جبهات، وأحرزت فيها القوات العثمانية البرية والبحرية انتصارات رائعة، كانت الجبهة الأولى برية في وسط أوربا. وبسط نفوذ الدولة على بلاد المجر، ووصلت قواته إلى أسوار فينيا، وكانت الجبهة الثانية بحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط؛ حيث قضى على معظم الجيوب الصليبية وبسط السيادة العثمانية على شمال إفريقيا كاملة عدا بلاد المغرب الأقصى(١).

وكانت الجبهة الثالثة في الشرق الإسلامي ضد الصفويين في بلاد فارس، ويذكر المؤرخون لهذا السلطان ١٦ حملة عسكرية جهزتها الدولة في هذه الجبهات الثلاث، نكتفي في هذا البحر الصغير على ذكر سياسة الدولة البحرية في عهده، وما حققه الأسطول العثماني من نجاحات وانتصارات في شتى البحار، وفرض سيادته الكاملة في تلك البحار؛ حتى صارت بحار عثمانية؛ كالبحر الأسود، والبحر المتوسط وغيرهما(٢).

---

(١) انظر

Yilmaz Oztuna, Kanuninin Turk ve Dunya Tarihindeki Yeri, Kanuni Armagani, ankara ١٩٧٠, s. ٤١-٤٦.

(٢) على حسون، تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ٢٠٠١ ص ٢٠٠؛ محمد سهيل طقوش، العثمانيون، دار النفائس، بيروت ط١، ١٩٩٥؛ عبد العزيز الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، دار المعارف ١٩٦٩م، ج١، ص ٦٨٣-٦٨٤.

## جـ- الصراع العثماني البرتغالي في المحيط الهندي:

كان المحيط الهندي والبحار التابعة له حتى القرن السادس عشر مناطق بحرية إسلامية؛ تسير فيها السفن الإسلامية محملة بالبضائع من الشرق إلى الغرب، ثم دخلت البرتغال كدولة بحرية كبرى، وسيطرت على هذا المحيط، واحتكرت التجارة بين الشرق والغرب؛ بل وهددت أمن الحرمين الشريفين، ولم تكتف بذلك؛ بل كانت تنزل أشد العقاب بالسفن الإسلامية ومن عليها، وقد أثر ذلك على الدولة العثمانية؛ لأنه لم يبق لهم سوى الطرق البرية التي تسيطر عليها الدولة الصفوية بإيران، مما أضر بالمصالح العثمانية التجارية. كما تعددت نداءات المسلمين في تلك المناطق للدولة العثمانية لتخليصهم من الخطر البرتغالي الجاسم على صدروهم، وكان البرتغاليون يفعلون بالمسلمين كما كان يفعل الأسبان[١] بمسلمي الأندلس.

(١) أكمل الدين إحسان، مرجع سابق، ص ٤٣؛ عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق ، ص ٧٢٣؛
Yimaz Oztunu, Osmanli Tarihi ,c١,s. ٣٢٢.

ففي عام ١٥٣٧م / ٩٤٤هـ استقبل السلطان سفيراً من عند صاحب دلهي بالهند يستنجده ضد همايون بن ظهير الدين بابر شاه[١] الذي استولى على دلهي. كما وصل آخر من عند صاحب الكجرات بالهند يطلب المساعدة ضد البرتغاليين الذين أغاروا على بلاده، واحتلوا ثغورها، فما كان من السلطان إلا أن أرسل إلى نائبه على مصر سليمان باشا الخادم يأمره بتجهيز حملة بحرية للقضاء على الخطر البرتغالي في المحيط الهندي، وأيضاً لفتح اليمن لتأكيد سيادة العثمانيين على بلاد الحجاز والحبشة، والقضاء على النشاط البرتغالي في البحر الأحمر ومدخله الجنوبي (باب المندب)[٢].

---

(١) بابر شاه: هو محمد ابن الشيخ عمر ميرزا ابن السلطان أبو سعيد ميرزا، ينتسب من ناحية أبيه إلى الأتراك التيموريين، فهو حفيد تيمورلنك من البطن الخامس، بينما ينتسب من ناحية أمه إلى المغول. ولد في فرغانة عام ٨٨٨هـ ١٤٨٣م. تولى السلطنة في فرغانة بعد وفاة أبيه، وكان آنذاك في الثانية عشر من عمره، ولقب بعد ذلك بلقب ظهير الدين. ولما =كان الاسم صعباً على نطق الأتراك الجغتائيين لأن معظمهم كان على أعجميته لُقّب ببابر أي الفهد. خاض حروباً طويلة ضد أقاربه لاستخلاص السلطة لنفسه، كما تحارب مع أعدائه من الأوزبك، كما خاض حروباً طويلس لفتح الهند، وأسس هناك دولته التي عرفت باسم الدولة التيمورية. انظر :

Hikmet Bayur, Vekayi, tarihi özeti ،s,٥-٩.

(٢) انظر : Ismail Hakki Uzuncarsili, Osmanli Tarihi,ankara ١٩٧٥,C. ٢,S. ٣٩١-٣٩٢,

بسام العسلي، فن الحرب الإسلامي، دار الفكر، بيروت، ج٥، ص ١٤٤-١٤٥؛ عراقي يوسف محمد، الوجود العثماني المملوكي في مصر، ج١، القاهرة ١٩٩٦، ص ١٥٦.

وكانت اليمن قد تعرضت أيضًا لهجمات البرتغاليين، وكانت أوضاع اليمن في تلك الفترة مضطربة بسبب تعدد القوى المحلية المتصارعة، وأدت النزاعات الدينية المذهبية، وأعمال السلب والنهب التي كان يمارسها البدو وغياب سلطة الحكومة القوية، إلى جو من عدم الثقة، وإلى صدامات قبلية مما جعلها هدفًا سهلاً للبرتغاليين.

وتعتبر حملة سليمان باشا الخادم عام ١٥٣٨م / ٩٤٥هـ هي الحملة العثمانية الأولى التي هدفت إلى السيطرة على بلاد اليمن للتفرغ بعد ذلك للخطر البرتغالي، وإعادة فتح طريق التجارة الشرقية أمام العثمانيين.

## فتح اليمن:

قاد سليمان باشا أسطولاً، ومعه ٢٠ ألف جندي، وأبحر من ميناء السويس بمصر في يونيو عام ١٥٣٨م / ٩٤٥هـ وصل عدن بعد ٣٤ يوماً، واستولى عليها بسهولة بعدما أعدم حاكمها عامر الثالث بتهمة تآمره مع البرتغاليين، وتقديم تسهيلات لهم، وأناب عليها أحد ضباطه ويدعى بهرام، ثم قصد سواحل الكجرات في بلاد الهند، ففتح حصوناً عديدة كان البرتغاليون قد أقاموها في تلك المنطقة، وحاول طردهم من جزيرة ديو التي تبعد عن شمال بومباي بنحو ٢٥٠ كم، وحاصرها في ١ سبتمبر وكبدها خسائر فادحة[١]، ولكنه رفع الحصار عنها، وتركها بعدما توترت العلاقة بينه وبين الحكام المحليين. وقيل إن قتله لحاكم عدن جعل الحكام المسلمين في الهند يخشون أن يلاقوا نفس المصير.

---

(١) انظر:

Ismail Hakki Uzuncarsili a. g. e. , s. ٣٩٤-٣٩٦

على أي حال عاد سليمان باشا الخادم إلى اليمن مرة أخرى، فنزل عدن وأقام بها بعض الوقت، ثم مر بسواحل مخا، والصليف، وحضرموت، وأخضعها كلها للعثمانيين، كما أرسل المدافع والبنادق إلى مسلمي إرتيريا والصومال للصمود أمام البرتغاليين، ثم عين والياً على اليمن باسم السلطان العثماني وبذلك صارت إيالة اليمن إيالة عثمانية وتوطد الحكم العثماني بها.

ثم عاد سليمان باشا بعد ذلك إلى مصر ورسى أسطوله بالسويس بعد رحلة استغرقت عام[1].

وفي عام ١٥٤٧م / ٩٥٤هـ تمكن أحد الولاة على اليمن من قبل العثمانيين وهو أويس باشا من السيطرة على تعز وصنعاء، وبذلك دانت اليمن كلها للحكم العثماني، وتأمن للعثمانيين طريقهم الاقتصادي، ومكانتهم التجارية، ونفوذهم السياسي في المحيط الهندي[2].

---

(١) فارق عثمان أباظة، الحكم العثماني في اليمن، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦، ص ٢٢-٢٤؛ السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، القاهرة ١٩٦٩، ص ١٤١-١٥٣.

(٢) محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ٢١٩-٢٢١؛ Yilmaz Oztuna, Osmanli Tarihi, s. ٢٤١-٢٤٢.

وتوجد وثيقة هامة بخصوص فتح عدن، وهي عبارة عن عريضة قدمها سليمان باشا الخادم إلى السلطان سليمان القانوني بخصوص فتح عدن. وتعرض هذه الوثيقة معلومات هامة عن الصراع العثماني البرتغالي في مياه باب المندب[١].

## د- الصراع العثماني البرتغالي في الخليج العربي:

البرتغال دولة أوربية مسيحية تقع جنوب غرب القارة الأوربية، وكانت من الناحية التاريخية تشكل مع أسبانيا ما يعرف باسم شبه جزيرة أيبيريا.

وقد دخلها المسلمون في القرن الثامن الميلادي، وأطلقوا عليها اسم الأندلس، ولم تكن البرتغال حينها كياناً سياسياً، وإنما كانت جزءً من الولاية الغربية التي كان الرومان يسمونها لوستيانيا.

(١) انظر الملاحق.

وأطلق العرب اسم البرتغال على شمال هذه المنطقة، وهو تعريب لأسمها اللاتيني القديم Portocalle، ثم استخدم البرتغاليون هذا الاسم بدلا من الاسم القديم لوستيانيا. وقد بدأ ميلاد دولة البرتغال في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي[١].

ويعد الفونسو الأول هو المؤسس الحقيقي لمملكة البرتغال؛ حيث تمكن عام ١١٤٧م / ٥٤١هـ من طرد المسلمين من لشبونة التي أصبحت من يومها عاصمة لدولة البرتغال. وفي عهد الملك حنا الأول بدأ اهتمام البرتغال بحركة الكشوف الجغرافية في العالم وبخاصة السواحل الغربية للقارة الأفريقية[٢].

---

(١)الأندلس كانت تطلق على جميع المناطق التي حكمها المسلمون في شبه الجزيرة الأيبيرية.

(٢) كان أهل جنوة الإيطالية أول من قام بمحاولة الطواف حول ساحل أفريقية عام ١٢٩١م؛ حيث أبحر القائد فيفالدو بسفينتين كبيرتين للبحث عن الطريق البحري إلى الهند، ولكنهما تحطمتا على الشاطئ الأفريقي، وعن أهل جنوة أخذ البرتغاليون فنون البحار وبناء السفن. انظر: دائرة سفير للمعارف الإسلامية، ج٣٥، القاهرة ١٩٩٦، ص ٤١-٤٣

ورغم أن المؤرخين ذكروا أهدافًا عديدة لحركة الكشوف هذه؛ منها على سبيل المثال الهدف الاقتصادي المتمثل في محاولة التخلص من الرسوم الجمركية الفادحة التي كانت تفرضها السلطات الحاكمة في مصر والشام على السلع الشرقية عند مرورها، وضرب الاحتكار الذي كان يمارسه تجار جمهورية البندقية في نقل تلك السلع من مواني مصر والشام إلى أوربا، وبيعها بأغلى الأسعار[١].

إلا أن الهدف الديني كان هو الأبرز بين أهداف البرتغاليين في حركة الكشوف التي قاموا بها؛ حيث كانت لديهم رغبة قوية في تحويل سكان البلاد التي يتم اكتشافها إلى المسيحية الكاثوليكية، والقضاء على الإسلام والمسلمين بعد طردهم من الأندلس[٢].

---

(١) انظر:

Ismail Hakki Uzuncarsili, a. g. e. , s. ٥١٣.

(٢) عبد العزيز الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، دار المعارف، مصر ١٩٦٩، ج١، ص ٨٣.

وهكذا أخذت البرتغال على عاتقها إحياء السياسة الصليبية القديمة، وذلك بمحاولة تطويق العالم الإسلامي[١].

وقد لخص أحد ملوك البرتغال -وهو الملك "عمانويل الأول"- أهداف تلك الحركة بقوله: "إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر النصرانية والحصول على ثروات الشرق"[٢].

ولم تبدأ المحاولات الفعلية لحركة الكشوف الجغرافية البرتغالية إلا في عهد الأمير هنري الابن الثالث للملك حنا الأول ١٣٩٤-١٤٦٠م / ٧٩٦-٨٦٤هـ، ويعرف في التاريخ باسم "هنري الملاح" الذي كانت دوافعه صليبية خالصة، وقد اتضح ذلك من خلال المرسوم الذي بعث به البابا نيقولا الخامس إليه عام ١٤٥٤م / ٨٥٨هـ استهله بقوله: "إن سرورنا لعظيم أن نعلم أن ولدنا العزيز هنري أمير البرتغال قد سار في خطى أبيه، بوصفه جندياً قديراً من جنود المسيح ليقضي على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين والكفرة"،

(١) محمد حسن العيدروس، تاريخ العرب الحديث، دار الكتاب الجامعي، الكويت ١٩٩٨، ص ٥٤.
(٢) يوسف الثقفي، موقف أوربا من الدولة العثمانية، دار الثقة، ط١ ١٤١٧، ص ٣٧.

ومضى نيقولا الخامس في نفس المرسوم يقرر أنه منح هنرى الملاح الحق في أن يغزو ويحتل جميع الشعوب والأقاليم التي يسودها حكم أعداء المسيح، وأن يسيطر على البحار اللازمة للقضاء على انتشار " طاعون الإسلام ".

كما كان يحدو هنرى أمل أن يتصل بملك الحبشة المسيحي لتطويق البلاد الإسلامية كوسيلة للقضاء على الإسلام، ولتحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكي، وربطها بكنيسة روما[١].

ومن جهتها كانت الحبشة تتطلع إلى مساعدة دولة مسيحية أوربية في صراعها ضد الدويلات الإسلامية المجاورة لها؛ مثل مملكة"عادل"، ومملكة "آفات"[٢].

---

(١) انظر:

Ismail Hakki Uzuncarsili, a. g. e. , s. ٥١٥.

عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص ٩٣-٩٤. يوسف الثقفي، دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب، دار الثقة، ط٢ ، ١٤١١هـ.

(٢) محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٥م، ص ١٢٥.

وعلى عهد الأمير هنرى بدأت الخطوات الأولى في الكشوف الجغرافية، ونجح البرتغاليون في اكتشاف مناطق مجهولة على الساحل الأفريقي حتى وصلوا إلى مصب نهر السنغال عام ١٤٤٦م / ٨٥٠هـ، ثم بلغوا الرأس الأخضر وبلاد "غانه"، وأنشأوا قلاعًا في مناطق مختلفة على الساحل الغربي لأفريقيا استخدموها كمراكز حربية وتجارية[١].

وبوفاة هنرى عام ١٤٦٠م / ٨٦٤هـ توقفت تلك الحركة فترة من الزمن، ثم استأنفت برحلة البرتغالي ديوجاو عام ١٤٨٣م / ٨٨٨هـ لكشف الطريق بين الهند وأفريقيا، ثم رحلة "بارثلميو دياز" عام ١٤٨٦م الذي سار بمحاذاة الشاطئ الغربي حتى وصل إلى ما يسمى "رأس العواصف"، وهو الطريق الذي سمي فيما بعد "رأس الرجاء الصالح"، ثم رحلة "دي كوفلها" التي وصلت حتى الساحل الشرقي لإفريقيا والممتلكات الإسلامية به، ومنها أقلعت صوب الشرق إلى المحيط الهندي للتعرف على الطريق الذي يسلكه العرب المسلمون إلى جزر الهند الشرقية،

---

(١) عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص ٩٥ - ٩٦.

ونجح "دي كوفلها" في الوصول إلى كليكوت على الساحل الغربي للهند، وكانت مركزاً لتجمع الحاصلات القادمة من الصين والهند من توابل وحرير وخزف لنقلها إلى الخليج الفارسي وشرق إفريقيا(١).

ثم كانت رحلة فاسكو دي جاما الشهيرة؛ حيث تحرك في يوليو عام ١٤٩٧م / ٩٠٢هـ من لشبونة حتى وصل إلى مدينة "مالينده" في شرق أفريقيا، وبها تعرف على البحار العربي "ابن ماجد"(٢)، ولما رأى منه عقليته وقدرته الفائقة في علوم البحار، قرر اصطحابه معه إلى الهند ليرشده إلى الطريق، ونجحا في الوصول إليها في مايو ١٤٩٨م / ٩٠٣هـ، وأقام فاسكو دي جاما بكليكوت مدة ثلاثة أشهر ثم عاد إلى بلاده في سبتمبر عام ١٤٩٩م / ٩٠٤هـ.

---

(١) عيسى على إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص ١٤٤ - ١٤٧.

(٢) هو شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي، ولد بجلفار أو رأس الخيمة على ساحل عمان في ثلاثينيات القرن الخامس عشر، في أسرة عمل أفرادها بارتياد البحار وبناء السفن، ونبغ ابن ماجد في هذا الأمر، وله مصنفات عديدة في علوم البحار أشهرها " الفوائد في أصول علم البحر والقواعد " وغيرها. وللمزيد انظر: كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية صلاح الدين هاشم، القسم الثاني، القاهرة ١٩٦٥، ص ٦٢٣-٦٢٧.

لقد كانت رحلة "فاسكو دي جاما" عملاً حاسماً في تاريخ العالم، فهي بالنسبة للبرتغال مهدت لهم الطريق لإقامة إمبراطورية استعمارية في الهند والشرق، ورفقتها إلى مصاف الدول العظمى آنذاك، حتى أطلق البرتغاليون على أنفسهم "سادة الفتح والملاحة"[١].

غير أن ذلك المجد الذي حظيت به البرتغال إنما تم على حساب زوال السيادة الإسلامية على التجارة بين آسيا وأوربا، ولم يقتصر الأمر على تدهور الأوضاع الاقتصادية الإسلامية فحسب، وإنما كان واضحا أن "فاسكو دي جاما" بوصوله إلى سواحل الهند، قد وضع أول ركيزة للاستعمار البرتغالي والأوربي للشرق الإسلامي في العصر الحديث[٢].

(١) أرنولد ويلسون، تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان ١٩٨١م، ص ٦٣.

(٢) صادق نشأت، تاريخ الخليج السياسي، ترجمة وتحقيق، أحمد كمال حلمي، الكويت ١٩٧٢م، ص ٦٠.

وبوصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي في مارس عام ١٤٩٨م/ ٩٠٣هـ أنشأوا لهم مراكز تجارية مسلحة في إفريقيا الشرقية والساحل الغربي للهند، وفي جزر المحيط الهندي والخليج العربي، وبسطوا سيطرتهم العسكرية والتجارية على هذه المنطقة، وقام ملك البرتغال بتعيين "فرانسيسكو دي ألميدا" نائبا له في حكم تلك المنطقة الهندية كحاكم عام.

كانت سياسة ألميدا قائمة على مجرد إنشاء مراكز تجارية في الهند لمزاولة الأعمال التجارية البحتة، غير أنه سرعان ما خلفه "الفونسو دي البو كيرك"، وكان مختلفاً عنه في سياسته. وهو من أشهر القادة البرتغاليين، استهل حياته العسكرية في الجيوب البرتغالية على سواحل المغرب، ثم انتقل إلى ميدان الصراع الصليبي في الشرق، وقد كُلف من قبل الملك "عمانويل الثاني" بإعداد مشروع يهدف إلى إنشاء إمبراطورية برتغالية كبيرة في الشرق[١].

---

(١) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، دار الفكر، القاهرة، ص ٥٢.

وكانت تسيطر على البوكيرك نزعة دينية صليبية متعصبة، فقد قال عند وصوله إلى ملقا بالهند ما نصه: إن إبعاد العرب عن تجارة هذه المنطقة هي الوسيلة الوحيدة التي يرجو بها البرتغاليون إضعاف قوة الإسلام، ثم يستطرد قائلاً: الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وبإطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندفع لها هنا بعد ذلك لهيب، وذلك لأنني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقا من أيديهم لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين[١].

وعلى ذلك يعتبر البو كيرك هو المؤسس الحقيقي للإمبراطورية الاستعمارية البرتغالية في الهند والشرق، ونجح في عام ١٥١٠م / ٩١٦هـ في الاستيلاء على "جوا"، وجعلها عاصمة هذه الإمبراطورية الشاسعة، وفي عام ١٥١١م / ٩١٧هـ استولى على ملقا الواقعة على الطريق التجاري بين الهند والصين، وسيطر على بعض جزر التوابل؛ بل إنه وصل بنفوذ البرتغاليين حتى "كانتون" على حدود الصين عام ١٥١٧م / ٩٢٣هـ[٢].

---

(١) يوسف الثقفي، دراسات متميزة، مرجع سابق، ص ٥٩.

(٢) زينب عصمت راشد، تاريخ أوربا الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ٤٣.

ووجه البوكيرك اهتماماً خاصاً إلى إقامة التحصينات والقلاع العسكرية في كل مكان يوجد للبرتغال مركز تجاري فيه، ولم يكن الهدف مقصوراً على حماية التجارة البرتغالية فقط، وإنما كان الهدف أن يتمكن البرتغاليون من تدعيم النفوذ البرتغالي في تلك المناطق، وإخضاع حكامها وشعوبها لسيطرتهم، وإرغامهم على الاعتراف بالسيادة البرتغالية[١].

ولتحقيق تلك الأهداف كان البوكيرك يرى ضرورة التحكم في مضيق هرمز وباب المندب؛ لكي يتمكن البرتغاليون من خلالهما من غزو العالم الإسلامي من الخلف، والقضاء على اقتصاد البلاد العربية والإسلامية، ثم نشر المسيحية بين شعوب تلك المناطق[٢].

---

(١) أرنولد ويلسون، المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢) على محمد الصلابي، الدولة العثمانية، دار التوزيع والنشر، القاهر ٢٠٠١، ص ١٩٤.

## البوكيرك يتجه إلى منطقة الخليج :

في عام ١٥٠٦م / ٩١٢هـ أبحر البوكيرك إلى مسقط التي صمد أهلها أمام البرتغاليين الذين تمكنوا من اقتحام المدينة، وفرضوا الغرامات المالية الكبيرة على الأهالي[١]، ولما عجز الأهالي عن دفع تلك الغرامات المالية الكبيرة أمر البوكيرك بإحراق المدينة بما فيها المسجد والسفن الراسية في الميناء، ومن هناك اتجه البوكيرك إلى صحار فاستولى عليها، ثم إلى خورفكان، ومنها إلى هرمز، تلك المدينة العتيدة، وعندما علم أهالي هرمز بقدوم العدو البرتغالي لقتالهم احتشدوا جميعا للمقاومة، وتهيأ البوكيرك لقتال سيف الدين حاكم مدينة هرمز ووزيره خوجه العطار، ودارت معركة كبيرة بين الطرفين، كانت الغلبة فيها للبوكيرك، وقبل سيف الدين تبعية المدينة للبرتغاليين،

---

(١) انظر:

Ismail Hakki Uzuncarsili s. ٥١٤.

ووقعت معاهدة بذلك في سبتمبر ١٥٠٧م / ٩١٢هـ. وانتهى الأمر بأن أعلن ملك هرمز تبعيته للبرتغال ودفع جزية سنوية، وتأكيداً لسيادتهم أصدر البرتغاليون أوامرهم بمنع أي سفينة من ممارسة الملاحة في الخليج قبل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية(١).

وبذلك نجح البرتغاليون في السيطرة على معابر التجارة في الساحل الأفريقي، والخليج العربي، وبحر العرب، ومنعوا وصول المنتجات الشرقية إلى أوربا، ومما ساعدهم على ذلك عدم وجود منافس بحري قوي لهم في تلك المنطقة، وبالتالي سيطروا على المراكز والنقاط البحرية الهامة في سهولة ويسر، ثم لم يتورعوا بعد ذلك عن حرق بيوت الله، ومنع الناس من الذهاب إلى الحج(٢).

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: لماذا قبلت الدولة الصفوية برئاسة الشاه إسماعيل الصفوي ترك هرمز للبرتغاليين، ووقعت معها اتفاقية بذلك عام ١٥١٥م / ٩٢١هـ عرفت باسم اتفاقية هرمز ؟

---

(١) محمد حسن العيدروس، تاريخ العرب، مرجع سابق، ص ٦١. أرنولد ويلسون، مرجع سابق، ص ٦٩. جمال زكريا، مرجع سابق، ص ٦٨. سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، معهد البحوث والدراسات العربي، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٢٨.

(٢) عبد العزيز عبد الحي، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، الرياض، ١٩٨٢، ص ١٩٠.

على ما يبدو أن الدولة الصفوية قبلت هذا الوضع بسبب الهزائم التي منيت بها على يد العثمانيين في موقعة جالديران عام ١٥١٤م / ٩٢٠هـ، وكانت تأمل من تلك الاتفاقية أن تجد المعونة من البرتغاليين ضد الدولة العثمانية التي نجحت في السيطرة على تبريز عاصمة الدولة الصفوية، وكان الدافع الذي دفع بالبرتغاليين إلى هذا الوضع هو كسب جانب الإيرانيين، ولكي يحصلوا على الهدوء الذي يرغبونه لكي يتفرغوا لمسؤولياتهم الأخرى، وعندما لاح للبرتغاليين خطر العثمانيين قادمًا من ناحية العراق، قاموا بإرسال سفنهم لغزو البحرين، ونزل البرتغاليون في مكان قريب من المنامة؛ حيث أقاموا حصنًا لهم ما تزال آثاره باقية إلى اليوم، كما سعوا لمد نفوذهم شمالاً إلى البصرة بحجة تقديم المساعدة لها ضد العثمانيين[١].

وهكذا وجد الخليج العربي نفسه تحت السيطرة البرتغالية دون أن يجد قوة إسلامية تصد هذا العدوان الصليبي، وزاد من ذلك فشل الأسطول المملوكي في البقاء في المحيط الهندي، ومياه الخليج العربي، وبحر عمان، ومناورة الأسطول البرتغالي الذي جاء بكل قوته الضارية[٢].

---

(١) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١، الديوان الأميري، الدوحة ٢٠٠٢، ص ٨.

(٢) الصراع الدولي في الخليج العربي، د. إبراهيم محمد حسن، ط١، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٥٦.

ورغم أن البرتغاليين نجحوا في فرض سيطرتهم على هرمز عام ١٥٠٧م/ ٩١٣هـ، ثم باقي مناطق الخليج.

وفي عام ١٥٠٩م / ٩١٥هـ صار البوكيرك نائباً للملك في الهند، وكان صاحب نزعة استعمارية استبدادية، وكان يرى أن الاحتفاظ بالإمبراطورية البرتغالية في الهند لابد له من:

١- احتلال عدن والاحتفاظ بها للسيطرة على مضايق البحر الأحمر، وتهديد المقدسات الإسلامية.

٢- الاحتفاظ بهرمز للسيطرة على مضيق البصرة.

٣- الاحتفاظ بجزيرتي ديو وجوا للسيطرة الكاملة على إقليم الهند.

وفي فبراير ١٥١٣م / ٩١٨هـ أرسل الملك البرتغالي عمانويل رسالة إلى البوكيرك يأمره فيها بالاستيلاء على عدن والتوجه إلى مضايق البحر الأحمر.[١]

---

(١) أرنولد ويلسون، مرجع سابق، ص ٧٢-٧٣. جمال زكريا قاسم، مرجع سابق، ص ٦٩.

أبحر البوكيرك بأسطول مكون من عشرين سفينة، ونحو ٢٥٠٠ مقاتل، ووصل إلى عدن وشن عليها هجومًا عنيفًا، ولكنه فشل في الاستيلاء عليها، فقام بتدمير السفن الراسية في الميناء واستولى على المعدات بها، ثم عاد إلى الهند.

## موقف الدولة العثمانية من العدوان البرتغالي على الخليج العربي والمحيط الهندي:

كان السبب الرئيسي لنزول العثمانيين لخليج البصرة والمحيط الهندي في القرن السادس عشر هو تدخل البرتغاليين في المحيط الهندي الذي كان يعد بمثابة بحراً إسلامياً حتى ذلك الوقت. وقد أدى هذا التدخل البرتغالي إلى اهتزاز أساس النظام الاقتصادي العالمي في ذلك الوقت، فقد كانت تجارة هذا المحيط حتى ذلك الوقت تنحصر في الدول الإسلامية؛ كالعرب، والإيرانيين، والأتراك، والهنود، إلا أنه لم يبق شيئاً من هذا الانحصار عندما أظهر البحار العربي أحمد بن ماجد طريق رأس رجاء الصالح للبرتغالي فاسكو دى جاما، وبدأ البرتغاليون يستخدمون هذا الطريق اعتباراً من القرن السادس عشر، كما أن اكتشاف هذا الطريق الجديد ساق البرتغاليين لبحث طرق القضاء على التجارة الإسلامية في هذا البحر، وكان الوضع يبدو مساعداً لهم للغاية؛ لأنه لم تكن هناك أي دولة قط من الدول الإسلامية الواقعة على سواحل المحيط الهندي عندها القوة البحرية الكافية التي تمكنها من الدخول في حرب مع الأسطول البرتغالي.

وفي بادئ الأمر لم يفكر البرتغاليون أو حتى لم يخطر ببالهم أنهم سيدخلون في مواجهة مع العثمانيين في مياه المحيط الهندي، فضلاً عن أن العثمانيين كانوا بعيدين جداً عن سواحل المحيط الهندي قبل عام ١٥١٧م / ٩٢٣هـ، في نفس الوقت الذي احتل فيه البرتغاليون النقاط الهامة التي تعد مفاتيح البحر الأحمر وخليج البصرة، وعندما أغلقوا هذه الطرق أمام السفن الإسلامية التي تحملها بضائعها الشرقية إلى البحر الأبيض المتوسط، تقدموا أي البرتغاليون في البحر الأحمر وأصبحوا يهددون جدة والحرمين الشريفين، وهذا بالطبع هو ما جعل العثمانيون يتحركون للوقوف ضد البرتغاليين في مياه المحيط الهندي، وذلك لأن الدولة العثمانية كانت دولة صاحبة أكبر قوة عسكرية في ذلك العهد، وكانت تشعر بأنها مضطرة لاستخدام هذه القوة في سبيل حماية حقوق ومصالح المسلمين في كل أرجاء العالم، وذلك لأنه لم تكن هناك قوة إسلامية أخرى يمكنها الوقوف ضد المظالم التي تعرضت لها الدول الإسلامية الواقعة على مياه المحيط الهندي على يد البرتغاليين،

فقد اتبع البرتغاليون طريق المظالم الغاشمة لتلك الدول الإسلامية التي تطل على المحيط الهندي، وذلك ليتمكنوا من الاستيلاء على تلك التجارة الغنية، فقد كان البرتغاليون يتجولون في مياه المحيط الهندي على هيئة فيالق كبيرة تتكون من السفن الحربية القوية، وعندما يصادفون أي سفن إسلامية في المياه يقومون بقطع أفواه وآذان وسائر أعضاء الطوائف الموجودة بها بوحشية، ثم بعد ذلك يقتلونهم؛ الأمر الذي جعل تلك الدول الإسلامية تفر من مياه المحيط الهندي، وبالرغم من أن اضطرار العثمانيين للخروج لمعونة هؤلاء المسلمين كان ينبع في المقام الأول من مشاعرهم الدينية والإنسانية؛ إلا أنهم أصبحوا بعد عام ١٥١٧م / ٩٢٣هـ وارثين للخلافة الإسلامية، وبالتالي كان من الواجب عليهم الخروج لنجدة هؤلاء المسلمين؛ لأنهم أصبحوا مسئولين بالدرجة الأولى عن حماية حقوق ومصالح مسلمي العالم. كما أن الدولة العثمانية كانت في القرن السادس عشر في حالة اكتفاء ذاتي، ولم يكن عندها أي مواد خام، ولكنهم كانوا يمتلكون أراض تمتد لملايين الكيلومترات،

ولها أقاليم جغرافية متنوعة، ولكنهم كانوا يؤمنون دخلاً جيداً من القوافل التي تمر من أراضيهم، المحملة بالمواد الخام القادمة من الصين والهند لتباع في الدول الأوربية؛ كالتوابل، والمنسوجات، والنباتات الطبية التي يحتاج الأوربيون إليها بشدة، فقد كانت تلك البضائع أولاً تنقل عبر برزخ السويس إلى مواني الإسكندرية واستانبول، ثم توزع من هناك إلى الدول الأوربية، أما الآن فقد أصبحت هذه التجارة معرضة للانقراض بسبب التدخل البرتغالي.

ولهذين السببين خاض العثمانيون حرب بحرية طويلة وعنيفة ضد البرتغال، وعندما سيطر السلطان سليم على مصر، جعل سليمان رئيس من الأتراك العثمانيين على رأس الأسطول المملوكي الموجود في البحر الأحمر، وأصبحت السويس منذ ذلك التاريخ بمثابة القاعدة المركزية للأسطول العثماني الذي يقوم بنشاطات بحرية في مياه خليج البصرة، وخليج عدن، والبحر الأحمر، والمحيط الهندي، وبحر عمان[١].

---

(١) Katarda Osmanlı hakimiyeti, Doktora tezi ( Neşr edilmemiş bir Tez), Osman Zeki soyyiğit, Istanbul ١٩٩٠, s. ٦٨ -٧٠.

ورغم أن البرتغاليين نجحوا في فرض سيطرتهم على هرمز عام ١٥٠٧م/ ٩١٣هـ، ثم باقي مناطق الخليج؛ إلا أنهم لم يلبثوا أن أوقفوا عملياتهم العسكرية في الخليج لسببين؛ أولهما: مواجهة حملة المماليك التي كانت في طريقها للمحيط الهندي عام ١٥٠٨م / ٩١٤هـ، وثانيهما حركات العصيان التي قامت ضد البوكيرك من بحارته وقادته، لذلك انسحب البوكيرك من هرمز.

# الباب الأول

## سيدي علي رئيس، عصره، أعماله، ومكانته في البحرية العثمانية

# الفصل الأول

## أحوال العالم الإسلامي في القرن السادس عشر الميلادي

وبإلقاء النظر على وضع العالم الإسلامي في تلك الفترة التي نجح فيها البرتغاليون من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند، واحتكار التجارة والملاحة في الساحل الإفريقي والمحيط الهندي، واحتلال الموانئ الغربية في الخليج العربي ، كانت القوى الإسلامية آنذاك تتمثل في :

### دولة المماليك في مصر والشام:

كانت الرسوم الجديدة الثقيلة التي فرضها السلاطين المماليك على البضائع الهندية المنقولة من الهند إلى الغرب عبر طريق مصر وسوريا قد خلقت أزمة اقتصادية كبرى بسبب تلك السياسة الاقتصادية التي اتبعها السلاطين المماليك، وقد كانت هذه السياسة الاقتصادية سبباً في تحرك البحار البرتغالي فاسكو دي جاما؛ لاكتشاف طريق بحري جديد يصل إلى الهند، وبالفعل تمكن من هذا بمساعدة البحار العربي أحمد بن ماجد له، وبهذا الاكتشاف تمكن البرتغاليون من التمركز والاستقرار على السواحل الهندية، ولأن المماليك فقدوا بذلك أهم مورد للدخل عندهم، فقد اضطروا لاتخاذ بعض التدابير حيال هذا الموقف خاصة وأن ألفونسو ألبوكيرك القائد البرتغالي العام في الهند

قام بالهجوم على مسقط وخورفكان، واستولى على هرمز، وأغلق خليج البصرة، كما قام إيمانويل ملك البرتغال بالتضييق على السفن التجارية المسلمة أمام هذا النشاط البرتغالي، فقام السلطان المملوكي قنصوه الغوري ببناء الأسوار والأبراج على بندر جدة التي كانت تعد بمثابة ميناء مكة المكرمة، وأرسل أسطوله بقيادة الأمير حسين الكردي لمحاربة البرتغاليين، وبالرغم من هذا الأسطول تمكن بمساعدة أسطول والي ديو المسلم من هزيمة الأسطول البرتغالي الذي كان يقوده لورينزو ابن البوكيرك في ميناء شاوال الهندي عام ١٥٠٨م / ٩١٤هـ ؛ إلا أن البوكيرك تحرك على الفور لنجدة ابنه، وهزم الأسطول المصري.

وفي نفس تلك الفترة بدأ أسطول برتغالي يهدد مدينة عدن، ولما علم قنصوه الغوري بذلك أدرك أنه من اللازم تشكيل أسطول قوي في مدينة السويس، فأرسل رسالة للسلطان العثماني بايزيد الثاني يطلب منه أن يمده بالبحارة الأناضوليين المشهورين بنشاطهم ومهارتهم في البحر الأبيض المتوسط، كما طلب منه البارود، والمدافع، والمهمات، والمستلزمات الخاصة بصناعة السفن من أخشاب، وحديد، وغيره.

وقد استجاب السلطان بايزيد الثاني لهذه الطلبات، وأرسل على الفور قافلة محملة بكل ما طلبه قنصوه الغوري، وبالرغم من أن تلك القافلة تعرضت للهجوم بالقرب من علائية (ألانيا) على يد قوات جنود القديس يوحنا إلا أنها تمكنت من الوصول إلى السويس، وقد أعطى ابن إياس المؤلف المشهور المعاصر لتلك الأحداث معلومات قيمة للغاية عن القبطان سلمان رئيس، والألف بحار الذين كانوا تحت إمرته من بحارة الأناضول، وقد أعد القبطان سلمان رئيس أسطولاً يتكون من عشرين سفينة بمساعدة الأمير حسين أمير بندر جدة، وخرج صوب الهند في عام ١٥١٥م / ٩٢١هـ لقتال البرتغاليين، وقد انهزم سلمان رئيس في تلك المعركة، وفي العام التالي جهز أسطولا يتكون من ٢٢ سفينة من نوع الغراب وسفينتين من نوع القاليون، وبالرغم من أنه حاصر عدن إلا أنه لم يتمكن من النجاح في تلك المعركة أيضاً، وعاد إلى بندر جدة مجروحاً، واضطر بذلك لإرسال مجموعة من السفن التي معه إلى السويس

، وفي تلك الأثناء وصلته الأخبار بأن السلطان سليم الأول فتح مصر[١].

ورغم ضعف دولة المماليك آنذاك وقلة إمكانياتهم، إلا أن السلطان الغوري لم يتوقف عن مناوأة البرتغاليين في الهند، فأرسل عام ٩٢٠هـ / ١٥١٤م أسطولا آخر وصل إلى كجرات بالهند، واجتمع بسلطانها "خليل شاه" ثم أمده بمدد آخر بقيادة رجل يدعى سلمان، ونجح في هزيمة البرتغاليين وطردهم من بعض مواني الهند[٢].

## الدولة الصفوية في فارس:

كانت القوة الثانية الموجودة على الساحة الإسلامية آنذاك هي دولة الصفويين بإيران، ورغم أن وصول البرتغاليين تصادف مع وجود أعظم حكام الأسرة الصفوية وهو الشاه إسماعيل الصفوي ١٤٩٩ - ١٥٢٤م / ٩٠٥-٩٣١هـ؛ إلا أن ذلك الشاه كان يركز قوته في شمال البلاد بعيداً عن منطقة الخليج، واتخذ من تبريز عاصمة له.

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، مطبعة الشعب، القاهرة، ١٩٦٠، ج٤، ص ١٤٢. نوال صيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج، مطبوعات دار الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٨٣م، ص ١٠٦.

(٢) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية، هيئة الكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١٠٩.

وبسبب انشغال الصفويين بصراعهم مع الدولة العثمانية فقد تخلوا عن مساعدة سكان المناطق التي احتلها البرتغاليون؛ بل إنهم تحالفوا معهم أملا في نيل مساعدتهم في حروبهم ضد الدولة العثمانية المخالفة لهم في المذهب، واستغل البوكيرك هذا الموقف وأرسل عام ١٥٠٩م / ٩١٥هـ رسالة إلى الشاه إسماعيل قال فيها : "إنني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب، أو أن تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الحمر أمام جدة، أو في عدن، أو في البحرين، أو في القطيف، أو في البصرة، وسيجدنى الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي أنفذ ما يريده"(١).

وقام الشاه بتوقيع معاهدة مع البرتغاليين عام ١٥١٥م / ٩٢١هـ جاء فيها: أن يقدم البرتغاليون أسطولاً للشاه لمساعدته في بسط سيطرته على البحرين والقطيف مقابل اعتراف الشاه بالحماية البرتغالية على هرمز، وتوحيد القوتين في حالة المواجهة مع الدولة العثمانية(٢).

---

(١) صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، البصرة، ١٩٧٩، ص ١١-١٧.

(٢)صلاح العقاد ، ص ٩٨.

وأن يساعد البرتغاليون الشاه في قمع ثورة قامت ضده في مكران، وأن تكون "جوا" وهي مركز البرتغاليين في الهند مفتوحة للتجارة الفارسية، ورحب البرتغاليون بتلك الاتفاقية التي ضمنوا بها تقاعس الصفويين عن دورهم في الخليج العربي، ووقوفهم على الحياد في الصراع البرتغالي الإسلامي، في الخليج بل ومساعدة البرتغال في ذلك الصراع[1].

### ١ـ الدولة المغولية في الهند (بابر وأبناؤه) :

تعتبر الدولة المغولية البابرية التي أسسها محمد ظهير الدين بابر شاه في الهند عام ١٤٩٤م / ٨٥٤هـ هي الدولة التي كانت معاصرة لفترة الاحتلال البرتغالي لمنطقة الخليج، وشبه القارة الهندية. ويعد عهد ظهير الدين بابر شاه وابنه السلطان همايون العهد الذي شهد ذروة الأحداث التي جرت مع البرتغاليين في شبه القارة الهندية. ومن مجريات الأحداث التاريخية في شبه القارة الهندية في تلك الفترة يتضح أن تلك الدولة كانت على خلاف دائم مع الأوزبك.

---

(١) صالح أوزبران، البرتغاليون والأتراك في الخليج العربي، البصرة ١٩٧٩، ص ١٩-٢٠.

وهو ما حال دون وقوفهم ضد الغزو البرتغالي. وقد تعرض سيدي علي رئيس في قسم كبير من كتابه مرآة الممالك إلى تلك الانقسامات والصراعات الدائرة بين الأمراء البابريين والأوزبك.

جلس بابر على العرش في مدينة دلهي عام ١٤٩٤م / ٨٥٤هـ، واستمر في العرش مدة ٣٦ عاما؛ حتى عام ١٥٣٠م / ٩٣٧هـ، وكانت دولته تضم أنديجان، وسمرقند، وكابل، ودلهي. خاض بابر شاه حربًا في عام ١٥٠١م / ٩٠٧هـ ضد شيباني خان، وخسرها؛ الأمر الذي جعله يحتمي بقلعة سمرقند، وأمر بعمل استحكامات جيدة للمدينة؛ إلا أنه اضطر لعقد صلح مع الأوزبك الذين حاصروا المدينة، وقطعوا عنها الإمدادات. بعدها خرج بابر من سمرقند، وأقام فترة عند أقاربه المغوليين، وفترة أخرى في قلعة كابل، وقندهار. إلا أن الأحداث التي تطورت في بلاد ما وراء النهر جعلته يعود إلى المنطقة مرة أخرى عام ١٥١١م / ٩١٧هـ. خاض بابر عدة حروب في الهند أهمها موقعة باني بات في عام ١٥٢٦م / ٩٣٣هـ، وانتصر فيها، وبدأ حكمه في الهند في نفس العام[١].

---

(١) Hakkı Dursun Yıldız, Büyük Islam Tarihi, c. ٩. ist ١٩٨٨, s. ٤٦٢-٤٦٥.

### ٢ـ الدولة العثمانية:

كانت الدولة العثمانية هي أكبر قوة إسلامية موجودة في العالم في ذلك الوقت، ولكنها كانت منهمكة في فتوحاتها وحروبها في أوربا؛ حتى نهاية القرن الخامس عشر، ولم تهتم وتتجه إلى المشرق الإسلامي إلا في مطلع القرن السادس عشر؛ حيث فرض عليها الوضع الضعيف للدول الإسلامية الموجودة به، وتسلط البرتغال على المدن والموانى العربية، وتهديدهم للمقدسات الإسلامية أن تتصدى لذلك بصفتها أكبر كيان إسلامي موجود. والمسئولة عن حماية المسلمين ومقدساتهم، وإنما كان يحول بينها وبين الاحتكاك المباشر بدولة البرتغال وجود قوتين إسلاميتين هما الدولة الصفوية بإيران ودولة المماليك بمصر والشام. لذلك لم يبدأ الصراع المباشر بين العثمانيين والبرتغاليين إلا بعد هزيمة الصفويين والمماليك، وبسط السيادة العثمانية على مصر والشام، ثم بلاد العراق واليمن.

فبعد اكتشاف فاسكو دي جاما لمضيق بورونو عام ١٤٨٩م / ٨٩٤هـ أحكم البرتغاليون قبضتهم على المحيط الهندي، ووصلوا من هذا الطريق الجديد إلى الهند وإلى الشرق الأقصى، وبهذا أصبح البرتغاليون الذين احتلوا النقاط الإستراتيجية في البحر الأحمر وجهاً لوجه مع العثمانيين في البصرة والحجاز واليمن، وفي عام ٩٤٢هـ ١٥٣٥م طلب بهادر شاه سلطان الكجرات في الهند المساعدة من الدولة العثمانية ضد البرتغاليين، فأمرت الدولة العثمانية بتجهيز أسطول في السويس، وأرسلته بقيادة سليمان باشا، وأخذت عدن في اليمن، ووصل سليمان باشا إلى جزيرة ديو في عام ١٥٣٧م/ ٩٤٤هـ، ولكنه لم يستطع السيطرة عليها؛ لأن البرتغاليين كانوا قد قتلوا بهادر شاه، واتحد معهم ابنه محمود شاه الذي خلف والده في الحكم، ذهب سليمان باشا من هناك إلى اليمن، ومنها إلى مصر، بعدها دخل البرتغاليون البحر الأحمر، وهجموا على جدة.

إلا أن استماتة محافظ قلعتها وبسالة أمير مكة الشريف نمى في الدفاع عنها شتت البرتغاليين، ولو أن البرتغاليين استطاعوا الدخول لجدة لساروا مباشرة إلى مكة، وكانوا سيهددون المدن الإسلامية المقدسة؛ بل وربما يحتلونها، ومجرد إعاقة العثمانيين لهذا الخطر المحقق يكفي لإظهار مدى حتمية وأحقية تواجد العثمانيين في الحجاز واليمن، وعندما سيطر العثمانيون على مضيق باب المندب، كان هذا بمثابة الإعاقة للبرتغاليين في القرن السادس عشر، ومن بعدهم الإنجليز في الدخول إلى البحر الأحمر، ومن المعلوم أن الهند - تلك الدولة الغنية - أصبحت من الدول الفقيرة حاليًا بعد احتلال الإنجليز لها عام ١٨٥٨م / ١٢٧٥هـ، أما تواجد العثمانيين في اليمن فلم يكن احتلال؛ بل إن تواجد العثمانيين في تلك الأماكن كان لحماية المدن الإسلامية المقدسة، كما أن الهدف من وجود شركة البن اليمنية لم يكن لهدف سياسي، أما البترول في اليمن وبقية البلدان العربية الأخرى فهو حادثة خاصة بالقرن العشرين، أي أنه كان بعيداً عن العثمانيين.

كانت البرتغال وأسبانيا هما القوتين العظميين في العالم المسيحي في القرن السادس عشر، وقد قسّم البابا العالم على هاتين القوتين، على سبيل المثال نجد البرازيل في أمريكا الجنوبية تتحدث اللغة البرتغالية، وهم كاثوليك لاتينيين، أما بقية الدول الأخرى فتتحدث الأسبانية وهم أيضا كاثوليك لاتينيين، أما الدولة العثمانية فكانت مضطرة للتحارب مع هاتين القوتين بمفردها من ناحية، والتحارب مع إيران التي تضربها من الخلف من ناحية أخرى.

وقد دخلت سفن البرتغاليين البحر الأحمر في القرن السادس عشر، وبالرغم من أنهم سعوا لحرق الأسطول العثماني في السويس، إلا أنهم لم يستطيعوا ذلك، فأحرقوا قصبة طور سيناء عام ١٥٤٣م / ٩٥٠هـ، ويجب ألا ننسى أن هذا العام هو العام الذي عسكر فيه الأسطول العثماني في مدينة طولون الفرنسية الواقعة على البحر الأبيض.

وهذا يعني أن العثمانيين كانوا يظهرون تواجدهم في غرب البحر الأبيض من ناحية، ويسعون لمساعدة المسلمين الموجودين في تلك الديار عن طريق المحيط الهندي بسفنهم من السويس من ناحية أخرى، لقد كانت الدولة العثمانية في القرن السادس عشر دولة عالمية بحق.

احتل البرتغاليون الذين جعلوا المحيط الهندي بمثابة المحيط البرتغالي مدينة عدن اليمنية، واستطاع قائد الأسطول العثماني في السويس بيري رئيس أن يعيدها مرة أخرى للحكم العثماني، وتقدم بثلاثين سفينة حربية، ودارت بينه وبين الأسطول البرتغالي-وعدده سبعون سفينة- معركة بحرية طاحنة عام ١٥٥١م / ٩٥٨هـ بعدها سيطر بيري رئيس على مسقط، وفر البرتغاليون هاربين إلى قلعة هرمز، وبالرغم من أن بيري رئيس حاصر القلعة إلا أنه لم يأخذها، فذهب إلى مدينة البصرة، ولما علم بيري رئيس بأن البرتغاليين سيحاصرون البصرة، أخذ ثلاث سفن، وغادر البصرة إلى السويس، ومنها إلى القاهرة، وحكم عليه بالإعدام نظير فشله في التمكن من الحصول على قلعة هرمز،

وتركه الجنود ومعظم السفن في البصرة، وكان لهذا العقاب تأثيره في نفوس الجميع، وأنهم لن ينسحبوا مهما كان الأمر، لقد استخدم العثمانيون من أجل مصالحهم مبدأ مكافأة الناجحين الشجعان، ومعاقبة الفاشلين المخطئين، ومن هذا المنطلق كان الحكم على هذا البحار بالإعدام رغم شهرته، ومن المعروف أن أقدم خريطة لأمريكا في يومنا هذا هي خريطة بيرى رئيس هذا المؤرخة بتاريخ ١٥١٣م / ٩١٩هـ، وهي محفوظة بمتحف طوب قابى، وتعرّف الخريطة أمريكا بأنها ولاية أنتيليا، ويذكر عباس الهمداني أن العثمانيين اكتشفوا أمريكا قبل الأوربيين، وأن السبب في عدم تمكنهم من الاستيلاء عليها من يد الأوربيين، هو أنهم لم يستطيعوا السيطرة على ساحل أطلانتيك.

وعُيّن بعده مراد رئيس أمير سنجق القطيف السابق قبطاناً على السويس، غادر مراد رئيس البصرة بالسفن وأبحر في مياه هرمز، وتقابل مع سرب برتغالي كبير، وتحارب معه، كانت سفن البرتغال مصممة على أن تعبر المحيط؛ لذا كانت أكبر حجماً من السفن العثمانية، فاضطر مراد رئيس للانسحاب إلى البصرة، واستمر العثمانيون في القتال ما استطاعوا مع البرتغاليين في المنطقة، وقد قام الأتراك بعدة هجمات من سواكن على بلاد الحبشة من عام ١٥٥٧م وحتى عام ١٥٦٢م / ٩٦٥-٩٤٠هـ، وفي عام ١٥٥٧م قُطع الاتصال تماماً بين الحبشة والهند(١).

## تحركات العثمانيين ناحية الشرق :

شهدت بداية القرن السادس عشر تحولا في سياسة الدولة العثمانية، وذلك منذ اعتلاء السلطان سليم الأول سدة الحكم؛ حيث أوقف التوسع تجاه الغرب، واتجه نحو المشرق الإسلامي، وذلك لعدة أسباب كان منها :

---

(١) Mehmed Maksudoglu, Osmanlı Devleti, Eskişehir ١٩٩٩, s. ١٦٢ -١٦٥ .

وقف المد الشيعي الصفوي، والتصدي للخطر البرتغالي الذي سيطر على طريق التجارة بين الشرق والغرب وأصبح يهدد المقدسات الإسلامية، إلى جانب ضعف الدولة المملوكية في مصر والشام، وعجزها عن التصدي للأخطار المحيطة بالعالم الإسلامي، واستنجاد المسلمين في الجزيرة العربية والخليج العربي بالعثمانيين.

بدأ السلطان سليم الحرب ضد الدولة الصفوية، وهزم جيشها في معركة جالديران عام ١٥١٤م / ٩٢٠هـ، وفي ١٥١٦م / ٩٢٢هـ توغلت الجيوش العثمانية في شمال العراق، وأعلن حاكم بغداد ولاءه للسلطان العثماني.

كما نجح السلطان سليم الأول في ضم بلاد الشام بعد هزيمة المماليك عام ١٥١٦م / ٩٢٢هـ، ثم ضم مصر عام ١٥١٧م / ٩٢٣هـ، وتبع ذلك أن أعلن شريف مكة ولاءه للسلطان العثماني، وبذلك دخلت بلاد الحجاز أيضاً تحت السيادة العثمانية.

وقد كان متوقعًا عقب الفتح العثماني لمصر أن يبدأ العثمانيون صراعهم ضد البرتغال في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وخاصة بعد أن أمر السلطان سليم الأول أثناء وجوده بمصر ببناء ترسانة بحرية كبيرة في ميناء السويس، وذلك لم يحدث؛ إذ وجه اهتمامه عقب عودته إلى استانبول إلى تعزيز الأسطول العثماني في البحر المتوسط(١).

## عريضة سلمان رئيس عن الأوضاع في الخليج العربي :

ظل السلطان سليم الأول في مصر حتى العاشر من شهر سبتمبر عام ١٥١٧م / ٩٢٣هـ، ووضع الأنظمة الجديدة، واستقبل الأمير نمي ابن الشريف أبو البركات وأخذ منه مفاتيح الكعبة، وسلمه الكثير من الهدايا والذخيرة، كما أمر بقتل الأمير حسين أمير بندر جدة؛ لأنه جمع الأموال بغير وجه حق.

---

(١) محمد سهيل طقوش، العثمانيون، دار بيروت المحروسة، بيروت ١٩٩٥، ص ١٤٤-١٦٢. روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٥١٩م. عراقي يوسف، الوجود العثماني في مصر في القرنين الـ ١٦-١٧، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٣٧-٧٠.

عُين سلمان رئيس أميراً على بندر جدة، وأرسل له السلطان سليم رسالة بضرورة التعجيل في تنفيذ الأمر، فأرسل سلمان رئيس عريضة للسلطان سليم مؤرخة بتاريخ ٢٥ ربيع الأول ٩٢٣هـ / ١٥١٧م شرح له فيها أسباب عدم تسلمه الحكم وتنفيذه الأمر، وأوضح أنه أرسل عريضته إلى رئيس آستانة الدولة سليمان، ثم شرح الأحداث التي وقعت في بندر جدة ومكة المكرمة.

وقد أعطى سلمان رئيس معلومات في عريضته تلك بخصوص عدم تصويبه لتحركات الأعداء المحتملة، وبخصوص قتل الأمير حسين أمير بندر جدة السابق ومظالم الشريف أبو البركات، كما أشار في العريضة إلى الأزمة التي حدثت بسبب مجيء البرتغاليين ووضع الأهالي.

كما أوضح سلمان رئيس في العريضة أن عدد البحارة الموجودين لديه ٦٠٠ بحاراً من المغاربة والعبيد وبحارة الأناضول، وأنه تلقى أخباراً من اليمن تفيد بأن أسطولاً برتغالياً يتكون من ٤٥ سفينة وصل إلى باب المندب، وشرع في بناء قلعة هناك، وأن هذا الأسطول ذهب إلى كمران،

وأنه -أي سلمان رئيس- كان يرغب في الخروج لمقابلة هذا الأسطول، ولكن الأهالي أصروا عليه في عدم الخروج والبقاء بجانبهم، ولهذا فقد أرسل بايزيد رئيس إلى عتبة الدولة، ثم أوضح أن أسطول الأعداء وصل إلى ميناء جدة بثلاثين سفينة في السادس والعشرين من ربيع الأول، وقام بحرق السفن التي كانت بالميناء، وهي عبارة عن ستة سفن قدرغه واثنان قايق، والباقي منها بارجة وأربعة مراكب.

## وهذا نص العريضة :

"بعد الدعاء والتضرع أعرض عليكم ما يلي: وصل حكم صاحب الدولة السلطان لنا، وجاء فيه بأن أُعجل بمهمتي، وقد أرسلت قبل مني لعتبة الدولة شخصاً باسم سليمان رئيس للامتثال لأمركم، والتمرغ في تراب قدمكم الطاهر الذي هو أكبر مطلب، وأغلى هدف لعبدكم، وقد أخبرت بكل أوضاعنا من كافة الوجوه، وبينما كنا نحن أيضاً على وشك الخروج بعد منه في يوم الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول المبارك؛ إذ بعربي يأتي إلي ميناء جدة من مكان ساحلي، ويخبرنا بأن ٣٢ سفينة أتت أمس في وقت العصر وأرادت دخول الميناء،

وبحلول المساء تمكنوا من الاقتراب من الساحل، وأضاف هذا الشخص أيضًا أن ثمة شخص آخر يسمى يوسف التركي كان له ٤٥ سفينة كانت وجهته تلك الناحية أيضًا، وفي اليوم التالي أرسلت أخبار إلى الشريف أبو البركات تتطابق مع تلك الأخبار، فقام بتهريب أبنائه ومتاعه من جدة وخرج هو الآخر، ولم يكن تصرفه هذا حسنًا، وقد صدر الأمر السلطاني بأن تُرسل الأحكام الهمايونية الشريف إلى أمير مكة وأخيه، وإلى أمير جدة والآخرين، ولكن لم تظهر تلك الأحكام، وبمجرد أن وصل الحكم الشريف إلى شريف مكة قبض على حسين بك، وأخذ كل أمواله ثم أغرقه في البحر، كما أخذ من أمير المدينة ألفين عملة أشرفية، وقبض على العديد من الأشخاص، وأخذ من بعض منهم ألف، ومن بعضهم خمسمائة عملة أشرفية، والنتيجة أن تلك الأوضاع لم تكن في نصابها الصحيح، وكان كل الأهالي يقولون ليعم العدل والأمن في عهد حضرة السلطان، ولكن مع هذا عمت المظالم، وصرخ المسلمون يطلبون النجاة من تلك المظالم منا، وقلت لهم أنا أيضًا: إن السلطان لا يريد هذا الظلم، كما أن القوانين العثمانية لا تقبل به، لقد ذهب العهد السابق،

لقد أعطتني هذه الكلمة القوة، وسأتحدث عن القديم والحديث عن هذا: إن الأشخاص الموجودين معي عبارة عن ٦٠٠ فرداً من المغاربة، ومن بحارة الأناضول، وليكن معلوماً لكم إن أوضاع تلك المنطقة غاية في الغم فقبل أن يأتي هؤلاء الملاعين الكفار كانت قربة القمح تُباع بعشرين أشرفية، أما يوم مجيئهم وصلت إلى ثلاثين أشرفية، وستصل إلى أربعين في اليوم التالي، لقد كان كل يوم يزيد عن اليوم السابق له. وعندما حان وقت خروجنا للميناء خرجنا، ولكن بحكمة الله تعالى هبت رياح شديدة منعتنا من الخروج، ولكن كان سمعنا وبصرنا في البحر، ونأمل أن يكون خروجنا اليوم أو غداً.

كما وصلتنا رسالة من نواحي اليمن تخبرنا بأن ٤٥ سفينة من سفن الكفار وصلت إلى باب المندب، وظلت ١٣ سفينة منها هناك، وبدأت في بناء قلعة، أما السفن الباقية فقد ذهبت إلى كمران، وقررت البقاء هناك، وأنهم كانوا ينوون الذهاب من هناك إلى جدة، والأمر لحضرة السلطان،

وعندما رأى أهالي تلك النواحي هذا الوضع جمعوا كبيرهم وصغيرهم وخرجوا من هناك، وإذا ما رأوا شخصًا ذاهبًا إلى هناك كانوا يقولون له: إلى أين تذهب ؟ إذا كنت ستذهب إلى هناك فإن الكفار موجودون، ولا يوجد أحد يقوى على مقاومتهم، لقد أصبحت المدينة خرابًا، وإذ إننا نرجوك عدم الخروج برأي واتفاق كل الأهالي؛ لذا فإنه أرسل شخصا يدعى بايزيد رئيس إلى عتبة الدولة ليخبر بأوضاعنا هذه، وهذا هو المطلوب والمقصد، ولتتحققوا من هذا من حامل تلك الرسالة لكم.

تاريخ في ٢٥ ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ ".

وبنفس الوثيقة على الهامش توجد فقرة أخرى تتحدث عن الحرب التي تمت مع الأسطول البرتغالي :

"كنا قد كتبنا تلك الرسالة والعدو على وشك الوصول إلينا اليوم أو غدًا؛ حيث أتت ٣٠ سفينة إلى ميناء جدة في السادس والعشرين من شهر ربيع الأول، ورست بميناء جدة، وفي اليوم الذي أتت فيه أحرقت ستة سفن قدرغه، واثنين قايق وأربعة مراكب، والباقيين من نوع البارجه، وقد ظلت في الميناء أربع سفن؛ واحدة منها سلطانية،

والأخرى ليوسف التركي، والثالثة للأمير حسين، والرابعة من السفن المأخوذة من أمام عدن ظلت في الميناء أربعة أيام، وقد بذلنا كل ما في وسعنا، وأطلقنا عليهم المدافع، ولم نعطِ لهم مجالاً للتحرك، وفروا هاربين، وبذلك أخرجناهم من الميناء، ولكننا لا نعلم هل سيذهبون ولن يعودوا ؟ أم سيبقون هناك فترة ثم يعودون؟ وقد تمكن أحد الأشخاص التابعين لنا وكان حبيساً عندهم من الفرار منهم، وأخبرنا بأنهم أتوا من الهند إلى عدن، وأعطاهم صاحب عدن المأكل والمشرب، وقال لهم إن جدة اليوم خالية، اذهبوا واستولوا على جدة أولاً، ثم تعالوا إلى هنا، وسنكون معكم، وأعطاهم أربعة مرشدين، وأرسلهم للميناء ".

ذهب سلمان رئيس إلى مصر مع مجموعة من بحارته في العاشر من شهر رجب عام ٩٢٣هـ الموافق ٢٠ يوليو ١٥١٧م، وقبّل يد السلطان سليم، وبالرغم من أنه ذهب إلى استانبول بناء على أمر السلطان؛ إلا أنه عاد إلي مصر عام ١٥٢٤م / ٩٣٠هـ في ولاية أحمد باشا لمصر، ثم ذهب إلى اليمن، ولعب دوراً هاماً في تثبيت دعائم الحكم العثماني هناك، وفي عام ١٥٢٥م / ٩٣١هـ ذهب إلى عدن واليمن على رأس أسطول يتكون من عشرين سفينة أعدها له الأمير حسين الرومي أمير جدة الجديد، وفي ١٠ شعبان ٩٣١هـ أعد سلمان رئيس لائحة توضح الموانى الموجودة على البحر الأحمر، والوضع التجاري للقلاع التي يسيطر عليها البرتغاليون في الهند بما فيها سومطرة ومالقا.

وقد قُتل سلمان رئيس عام ١٥٢٧م / ٩٣٣هـ على يد خير الدين الرومي (الأناضولي) الذي كان يرى نفسه وكأنه يدير اليمن وبحارته(١).

## ميناء السويس ودوره كقاعدة بحرية عثمانية:

لعب ميناء السويس كقاعدة بحرية عثمانية دوراً هاماً في المعارك البحرية التي دارت للسيطرة على المحيط الهندي، وبالرغم من هذا لا يمكننا القول بأن تلك الترسانة كانت تعمل بشكل دائم ومنتظم، ويرجع السبب في هذا لعدم استقرار السياسة العثمانية في مياه خليج البصرة والمحيط الهندي؛ هذا بالإضافة إلى الصعوبة المتمثلة في إحضار المواد الخام اللازمة لصناعة السفن كالحديد والأخشاب.

---

(١) Şehabeddin Tekindag, Süveyşde Türkler ve Selman Reisin Arızası, Belgelerle Türk Tarihi Dergisi, sayı , ١٩٦٨, ist, s. ٧٧-٨٠ .

وقد شُوهد نشاط ملحوظ في ترسانة السويس عام ١٥٣٧م / ٩٤٣هـ؛ حيث أنشئ فيها أسطول جديد من أجل حملة الهند التي كلف بها سليمان باشا الخادم أمير أمراء مصر، وقد كانت ترسانة السويس نقطة تحول للدولة العثمانية التي وجهت اهتمامهاً بمسألة الهند، وقررت الدخول في حرب أمام دولة البرتغال في الجنوب.

## حملة هرمز عام ١٥٥٢:

كان البرتغاليون ذوي فاعلية قوية في خليج البصرة في عامي ١٥٥٠-١٥٥١م / ٩٥٧ - ٩٥٨هـ، وتقدموا فيه حتى وصلوا البحرين الخاضعة للنفوذ العثماني آنذاك. كما استولوا أيضاً على قلعة القطيف الموجودة بالإحساء؛ هذا إلى جانب هيمنتهم عل منطقة جزاير التي تتكون من الجزر ومنطقة المستنقعات في البصرة. ولم يكتفِ البرتغاليون بدخولهم في تلك المناطق فقط؛ بل كانوا يثيرون الأهالي الذين يعيشون في تلك النواحي ضد الدولة العثمانية.

الأمر الذي جعل الدولة العثمانية تقرر خروج حملة عليهم، وطردهم من تلك النواحي؛ حيث صدر الأمر لبيري رئيس بأن يقوم بتلك المهمة، وعلى هذا تحرك بيري رئيس من السويس في شهر إبريل عام ١٥٥٢م / ٩٥٩هـ على رأس أسطول مكون من ٣٠ سفينة منهم ٢٤ قادرغه، وأربعة (بارجه)، وقد تلقى بيري رئيس تعليمات باستيلائه على هرمز، ثم تخريب كل الأماكن التابعة لها، والتي لم تعترف بالنفوذ العثماني عليها، ثم يصل إلى البحرين، ويخضعها للنفوذ العثماني، تحرك بيري رئيس بالأسطول من السويس في شهر إبريل عام ١٥٥٢م / ٩٥٩هـ[١]؛ حيث كانت وجهته المحيط الهندي مروراً بباب المندب، وصل الأسطول إلى ميناء عدن، وهناك أكمل اللوازم الضرورية للأسطول ثم توجه إلى ميناء شحر، ثم واصل سيره حتى وصل ميناء ظفار، ثم وصل رأس الحد، ثم اتجه من هناك شمالاً إلى بحر عمان، وهناك تم فصل السفن عن بعضها من أجل الحيولة دون حدوث حادثة بسبب الضباب الكثيف،

---

(١) Ismail Hakki Uzuncarsili,a. g. e. , s. ٣٩٧-٣٩٨

وفي تلك الأثناء أرسل القائد البرتغالي في هرمز (ألفارو دي نورونها) بعض سفنه بقيادة (سيمون دي كوستا) لاستكشاف الأسطول العثماني، وتقابل سيمون مع بعض سفن الأسطول العثماني التي كانت قد أرسلت لاستكشاف السفن البرتغالية، وكانت بقيادة ابن بيري رئيس، ولكن لم تحدث بينهم أي مواجهة، واصل بيري رئيس مسيره حتى وصل، أما قلعة مسقط التي كانت تحت السيطرة البرتغالية منذ عام ١٥٠٦م / ٩١٢هـ، وكان حاكمها البرتغالي في ذلك الوقت (جان دي ليسبوا).

وعندما رأى هذا الشخص السفن العثمانية في البحر وضع زوجته وبعض الأشخاص البرتغاليين في إحدى السفن وأرسلهم إلى هرمز، وتذكر المصادر البرتغالية أن الحصار العثماني لمسقط دام حوالي شهر، إلا أن الوثائق التركية تذكر عكس ذلك، وأن الحصار لم يدم إلا ستة أيام فقط سُلمت القلعة بعدها؛ حيث تذكر الوثيقة المؤرخة بتاريخ ١٥٥٢/١١/٦م أن الأسطول العثماني أمطر قلعة مسقط بوابل من القذائف المدفعية لمدة ستة أيام، وفي اليوم السابع سُلمت القلعة للعثمانيين.

ولم تكن في نية بيري رئيس وضع حامية عسكرية في قلعة مسقط لحمايتها، لأن ذلك كان يمثل مشكلة أمامه بسبب قلة عدد الجنود الذين معه، كما أن هدفه الأساسي هو السيطرة على هرمز التي تعد القاعدة البرتغالية الأساسية في الخليج، ولهذا هدم بيري رئيس قلعة مسقط، ثم أبحر صوب هرمز[١].

## حصار هرمز عام ١٥٥٢م:

كانت هرمز أحد أهم موانئ المحيط الهندي باعتبارها مركزاً تجارياً بين أقاليم غرب آسيا والهند؛ لذا فإن التجار كانوا أصحاب نفوذ كبير بها يكاد يكون أكبر من نفوذ الحاكم نفسه، ويعود استيلاء البرتغاليون على هرمز إلى عام ١٥٠٧م / ٩١٣هـ حينما استولى عليها القائد البرتغالي (البوكيرك) وأسس فيها قاعدة عسكرية، أما أثناء حملة بيري رئيس فكان (ألفاروا دي نورناه) هو الحاكم البرتغالي على هرمز، وكان بقلعتها ٩٠٠ من الجند الأشداء، والكثير من الأسلحة والمؤن التي تجعلها تتحمل الحصار لفترة طويلة.

(١) Cengiz Orhunlu وHint kaptanlığı ve piri reis, , Bellten, No : ١٣٤ , Ocak ١٩٧٠, s ٢٣٩ -٢٤١. Cengiz Orhunlu

بدأ بيري رئيس حصاره لهرمز بأسطول يتكون من ٢٨ سفينة و٨٥٠ جنديا، وكان دفاع القلعة قويًا وصامدًا؛ لدرجة أن الهجمات التي قام بها الأسطول العثماني لم تحقق أي نتيجة، وطال الحصار، وهو ما جعل الجنود العثمانيين يفقدون الأمل والهمة في الاستحواذ على القلعة، وكان الهم الأكبر لبيري رئيس في تلك الأثناء هو تخوفه من أن يقوم البرتغاليون بالهجوم عليه من القاعدة العسكرية؛ لذا كان يستشير (جان ليسبوا) قائد قلعة مسقط الأسير عنده لإحاطته بنشاط البرتغاليين، وقد أدلى هذا القائد البرتغالي بمعلومات لبيري رئيس زادت من قلقه وتخوفه، وبالرغم من هذا سيطر بيري رئيس على جزيرة كيشم، وكل جزيرة هرمز ما عدا القلعة الداخلية بها؛ لأنها كانت تقاوم حتى تلك اللحظة، وحينئذ أدرك أنه لن يتمكن من السيطرة عليها، فأطلق سراح قائد قلعة مسقط وبعض الجنود البرتغاليين، وأبحر داخل خليج البصرة، وعلم من البحارة المحليين أن الأسطول البرتغالي وصل أمام هرمز

، وهذا يُظهر مدى تصرف بيري رئيس بحكمة حيال قراره برفع الحصار عن هرمز ومغادرته؛ لأن في بقائه هناك على تلك الحالة سيكون معناه القضاء عليه وعلى الأسطول، واتجه بيري رئيس بعد ذلك إلى البصرة(١).

ولم يتمكن من استدعاء بقية سفنه التي كانت تتجول في مياه الخليج، وكان غرضه الانسحاب بسفنه الثلاث سريعاً قبل أن يلحق به البرتغاليون بأسطولهم ذي القوة العددية الضخمة، وأمام البحرين تحطمت واحدة من سفنه الثلاث وغرقت، وعاد إلى قاعدته في مصر بسفينتين فقط(٢).

وقم تم إعدام بيري رئيس، وتمت مصادرة كل أمواله، وتم تنصيب سيدي علي رئيس -الذي كان يُعرف بكاتبي- قائداً للأسطول المصري خلفاً له لما كان يتمتع به من شجاعة ومهارة في الفنون البحرية(٣).

---

(١) Cengiz Orhunlu, Hint kaptanlığı ve piri reis, Bellten, No : ١٣٤ , Ocak ١٩٧٠, s ٢٣٩ -٢٤١.

(٢) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مركز بحوث العالم التركي، القاهرة ١٩٩٤، ص ٢٧٠.

(٣) صولاق زاده تاريخي، استانبول ١٢٩٧، ص ٥٣٥.

ويمكننا القول أنه بالرغم من أن العثمانيين لم يتمكنوا من السيطرة على الهند نتيجة لتلك الحروب البحرية التي خاضوها هناك، إلا أنهم تمكنوا من إضعاف الوجود البرتغالي هناك، وبعد وفاة القانوني تولى حكم الدولة العثمانية بعده السلطان سليم الثاني، ولم يولي سليم الثاني أهمية لأسطول الهند والبحر الأحمر، فلم يعمل على إحيائه من جديد، ولم يسعَ لفرض سيطرته على بلاد الهند التي كنت تعج بالأتراك والمسلمين في الأماكن المختلفة منها[١].

(١) Türk Denizciliği, Abidin Daver, Istanbul tarihsiz, s. ٤٢-٤٣.

# الفصــل الثانــي

# سيدي علي رئيس حياته ومكانته

سيدي علي جلبي المعروف بـ"كاتبي الرومي" من أشهر الشخصيات في المجتمع العثماني في القرن السادس عشر الميلادي، ويمكن القول بأن شهرته تلك كانت نابعة من شاعريته، ومشاركته في العديد من الحملات البحرية، وتعيينه قائداً للأسطول المصري الذي كان يعرف باسم أسطول الهند، وتأليفه مجموعة من الكتب الخاصة بالجغرافيا والبحرية، وخوضه حروباً ضد البرتغاليين.

ولاشك في أن تلك الأشياء المعدودة إنما هي كافية لجعله مشهوراً، وكان لكتابيه: "المحيط"، و"مرآة الممالك" أثراً كبيراً في انتشار شهرته هذه في البلدان الأجنبية.

وقد أجريت بعض الدراسات عن حياته، إلا أن تلك الدراسات لم تكن تتناول حياته كلها؛ بل كانت تتناول فترات معينة منها، وقد تناول سيدي علي جلبي جزءً من حياته في كتابه مرآة الممالك؛ حتى إن بعض الكتاب أمثال عالي، وكاتب جلبي، وبجوي قد استقوا مادة كتابتهم عن حياته من هذا الكتاب، وقد نشرت حياته من خلال المعلومات المتفرقة هنا وهناك في دائرة المعارف الإسلامية الصادرة باللغة التركية[١].

## أولا : حياته:

من مشاهير رجال البحرية، والأدب، والرياضيات العثمانيين، أصله من سينوب، وهو ابن (حسين رئيس) كتخدا ترسانة غالاطه، كان بحاراً أباً عن جد، لُقّب بلقب كاتبي؛ حيث توجد له أشعار ونثر جيد[٢].

---

(١) Cengiz Orhunlu, Seydi Ali Reis, Ist Üni., Edebiyat fak, Tarih Enistitüsü Dergisi, Istanbul ١٩٧٠, s. ٤٢-٤٤ .

(٢) Katib Celebi,Tuhfet-ul Kibar fi Asfar el Bihar,Haz. Orhan Şaik Gokyay, ist ١٩٧٣, s. ٩٢-٩٤ .

انضم سيدي علي رئيس لخدمة الترسانة وهو في سن صغيرة[١]، وشارك في كل الحملات البحرية العثمانية التي قام بها بارباروس خير الدين باشا في البحر الأبيض المتوسط بداية من فتح قبرص، برز سيدي علي رئيس كقائد للجناح الأيسر للأسطول العثماني في حملة بروزه[٢]، شارك قائد البحرية سنان باشا فتح طرابلس عام ١٥٥١م / ٩٥٨هـ.

(١) بروسه لى محمد طاهر، عثمانلي مؤلفلري، أوجنجى جلد، استانبول ١٣٤٢، ص٢٧١-٢٧٢.

(٢) **معركة بروزه البحرية سنة ١٥٣٨:** من أشهر وأقوى المعارك البحرية التي خاضها الأسطول العثماني بقيادة خير الدين باشا، فبعد أن هاجم الأسطول العثماني السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة الإيطالية، ونزلوا على مقربة من المدينة البحرية أوترانت انتشرت الشائعات في أوربا بأن السلطان سليمان يبغي الزحف على روما كما فعل محمد الفاتح مع القسطنطينية، وتعالت النداءات في أوربا للوقوف في وجه الخطر الإسلامي العثماني، ودعا البابا بول الثالث الجيوش الأوربية للاتحاد ضد العثمانيين، فتشكل تحالف صليبي من البابوية، والإمبراطور الروماني شارل الخامس وجمهورية البندقية، واجتمعت أساطيل ذلك التحالف الأوربي تحت قيادة أندريا دوريا، وكان قوامها ٦٠٠ سفينة حربية، و٦٠ ألف جندي في ميناء بريفيزا (بروزه) جنوبي كورفو. وكان الأسطول العثماني بقيادة خير الدين يضم نحو ١٢٢ سفينة حربية و٢٢ ألف جندي، ووضع خير الدين أسطوله على شكل هلال، ثم بدأ بإطلاق نيران مدفعيته على سفن العدو فجأة، فأحدث خللاً في الأسطول الأوربي بفعل المباغتة، وما لبث أن تفرقت سفن الأسطول الأوربي وهرب قائده أندريا دوريا، وكان ذلك في سبتمبر عام ١٥٣٨م، وقد أثار هذا النصر الفزع والهلع في أوربا كلها، وأكد للبحرية العثمانية هيبتها في البحر المتوسط الذي أصبح بعدها بحيرة عثمانية إسلامية. انظر: يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

ولما أظهر كفاءة في تلك الحملة عين أولا كاتب للعزب[١] في الترسانة ثم عين بعد ذلك كتخدا (وكيلا) لترسانة غالاطه، ثم رقي بعد ذلك إلى رئيس الخاصة أي السفن الحربية التابعة للدولة.

## سيدي علي رئيس والصراع البرتغالي:

وبتنصيب سيدي علي رئيس قائداً للأسطول بدأت الصفحة الثانية من الصراع العثماني البرتغالي في الخليج العربي والمحيط الهندي، فقد صدر الأمر له بأن يتحرك بالأسطول، فجهزه وتحرك به من البصرة، وفي اليوم الأربعين من تحركه وصل إلى مضيق هرمز، وفي ١٠ / ٨ / ١٥٥٤م / ٩٦١هـ وصل إلى خرفكان الواقعة على السواحل العمانية، وهناك التقى بأسطول برتغالي يتكون من ٢٥ قطعة بحرية بقيادة فرناندو ابن ألفوسو دي نورناه الوالي العام للهند، وبمجرد أن اقتربت السفن البرتغالية من الأسطول العثماني تهيأت السفن العثمانية للقتال، واندلعت بينهم حرباً شديدة تبادلت فيها القوتان إطلاق القذائف المدفعية والبنادق،

---

(١) كان العزب يشكلون رجال الترسانة العثمانية، وهم ليسوا من جنود الدوشيرمه، بل من أصل تركي. وبلوك العزب يتكون من ٨٧ أفراد. ولكل بلوك رئيس. انظر:

.Midhet Sertoglu, Osmanlı Tarih Lugatı, s. ٣٠

وفي تلك الأثناء تمكن الأسطول العثماني من إغراق سفينة من السفن الحربية الكبيرة من نوع القاليون؛ الأمر الذي جعل السفن البرتغالية الأخرى تنسحب إلى هرمز، وفي تلك الأثناء هبت رياح عاتية، ولم يعبأ سيدي علي رئيس بتلك العاصفة القوية، وواصل سيره في مياه المحيط الهندي في طريقه إلى البحر الأحمر، ووصل إلى خورفكان، وهناك أخذ احتياجاته من المياه، وأبحر مرة أخرى، وحتى لا يضيع سيدي علي رئيس الوقت، ولا يتأخر في الذهاب إلى المكان الذي يرمو في الوصول إليه، لم يتعقب السفن البرتغالية التي فرت هاربة، كما أنه لم ينتظر هدوء العاصفة التي بدأت.

## الصدام الثاني لسيدي علي رئيس مع البرتغاليين:

مر سيدي علي رئيس بمدينة صحار الواقعة بعمان، وبعد سبعة عشر يوماً في المياه وصل إلى قلعة مسقط وذلك في ٢٦ / ٨ / ١٥٥٤م / ٩٦١هـ، وفي وقت السحر خرج لمواجهة أسطول برتغالي يتكون من ٣٤ سفينة بقيادة فرناندو،

وقد دارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس، دُمر فيها من سفن الطرفين ما يقرب من ١٥ سفينة كبيرة (قادرغة)، واستمر القتال لفترة طويلة لدرجة أن الجدافين العثمانيين والبحارة الموجودين على السفن أصبحوا في حالة لا يقوون بها على العمل، أو التجديف، أو تعمير المدافع وتوجيهها[١].

لقد كان هذا الانتصار الذي حققه الأسطول العثماني على الأسطول البرتغالي مفخرة كبرى للبحرية العثمانية، وخزي للبحرية البرتغالية التي كانت تعد من أكبر القوى البحرية في ذلك الوقت، فقد تمكن هذا الأسطول العثماني الصغير بقيادة سيدي علي رئيس من إغراق العديد من السفن البرتغالية وقتل حوالي ستة ألآلاف نفرا منهم، في حين أن الخسائر العثمانية كانت تقدر بغرق ستة سفن، وقتل ١٥٠٠ نفراً فقط؛ أي أن الخسائر البرتغالية كانت أضعاف الخسائر العثمانية، حقيقة الأمر أن هذه المعركة تفوق نصر بروزه الذي حققه خير الدين باشا على القائد أندريا دوريا، وبعد هذا الانتصار الذي حققه الأسطول العثماني هبت عاصفة قوية كانت الأمواج فيها تشبه سلاسل الجبال،

(١) محمد شكري، أسفار بحرية عثمانية، برنجي جلد، استانبول ١٣٠٦، ص ٤٤٧ ٤٥٠.

اضطرت هذه العاصفة الأسطول العثماني الذي كان يتكون من ٩ سفن فقط إلى الجنوح لناحية (برجاش) على السواحل الفارسية، ولعدم وجود ميناء آمن هناك غيّر الأسطول العثماني خط سيره إلى الجنوب لاسيما وأن الرياح قد بدأت تسكن، وداوم الأسطول سيره حتى وصل إلى ساحل مكران، ومن هناك دخل بندر شهبار، وأخذ الأسطول ما يكفيه من المياه، ودليلاً ليرشده في الطريق، وذهب إلى بندر كوادر، ولأن الأسطول لم يكن معه طعام قط أمر حاكم بندر كوادر الملك جلال الدين بن دينار بإعطاء الأسطول العثماني كل ما يحتاجه من الطعام والمؤن، وأوضح لسيدي علي خالص محبته وإخلاصه للسلطان العثماني، وأنه يريد تقوية الروابط السياسية والدينية بالدولة العلية، لم يتأخر هذا الحاكم قط في تقديم يد العون للأسطول العثماني، فقد أرسل خمسين سفينة محملة بالمؤن إلى الأسطول العثماني عندما وصل هرمز، وبعد إتمام تجهيز الأسطول تحرك صوب جهة الجنوب الغربي صوب السواحل الجنوبية لجزيرة العرب، كانت الرياح مواتية للأسطول العثماني

فقطع عدة أيام في البحر، ولكنه اضطر للعودة بسبب هبوب عاصفة قوية، كانت هذه العاصفة تُعرف باسم (طوفان الفيل)، وهي عاصفة خاصة بالمحيط الهندي، وقد أقلت هذه العاصفة الفزع في قلوب البحارة وأفراد الأسطول، مما جعلهم يسيرون بسرعة صوب سواحل الهند، سار الأسطول العثماني في طقس سيئ للغاية؛ حيث كانت الأمواج تتلاطم بشدة من ناحية، والأمطار تنهمر بشدة من ناحية أخرى، وهو ما زاد من خوف البحارة والأمراء البحريين من الغرق فقاموا بإلقاء كل الأحمال التي لا نفع لها في البحر، وعلى هذا الحال العسير قطع الأسطول العثماني مسافة كبيرة، ولم يتنفس الصعداء إلا بعد وصوله لمضيق جاغات الواقع جنوب خليج قاج الذي يفصل بين سواحل كجرات، والسند على المحيط الهندي، وذلك لأن مياه المحيط الهندي تسير بسرعة كبيرة أثناء هبوب تلك العاصفة، وتُحدث نوبة مد مخيفة، هذه النوبة تجعل السفن تسير بسرعة كبيرة صوب نهاية هذا الخليج المذكور، ثم بعد ذلك تلقي بها على سواحل قفراء خاوية، وبالتالي فإن غرقها وتلفها أمراً محقق،

وعندما رأى المعلمون الموجودون في الأسطول العثماني أن المياه بدأت تميل إلى اللون الأبيض وأن الأمواج بدأت تهدأ أدركوا أنهم أصبحوا على وشك الدخول للخليج المذكور، وبالتالي كان من الضروري صنع فلوكات وقوارب كبيرة للدخول بها للخليج؛ لأن السفن الكبرى كانت لا تستطيع الدخول فيه، وكان الحظ حليفًا للعثمانيين في ذلك الوقت؛ لأن نوبة الجزر قد بدأت، وبدأت المياه تقل معها تدريجيًا، وبالتالي أصبحت هناك إمكانية لدخول الخليج بالسفن دون مخاطر، ولأن الريح سكنت أيضًا في ذلك الوقت استطاع الأسطول أن يسير يومًا وليلة تجاه جهة الجنوب، ولأن الأسطول العثماني كان قد اقترب من قلعة ديو التي تعد من المواقع البرتغالية الهامة على السواحل الهندية، رجح سيدي علي أن يكون المرور من أمام القلعة ليلاً، وبينما كان الأسطول يسير على هذا الحال؛ إذ هبت عاصفة قوية للغاية أقوى من العاصفة الأولى، وأصبح البحارة في حالة من عدم السيطرة على السفن

، لاسيما وأن الأمواج الشديدة المتلاطمة ملئت بعض الأماكن في السفن بالمياه، وحينئذ فقد كل من في السفن الأمل في الحياة والنجاة، وتركوا أنفسهم لقدرهم، وظلوا على تلك الحالة السيئة حتى وصلوا مدخل خليج قامباى الواقع بين ديو ودامان، وبعد فترة تحسن الطقس، فاستطاعت السفن السير إلى الأمام حتى وصلت دامان عصراً[١].

وقد جال سيدي علي رئيس أقاليم السند، والهند، وزابلستان، وبدخشان، وما وراء النهر، وخوارزم، وخراسان، والعجم إقليماً تلو إقليم، ولم يتمكن من الوصول إلى استانبول إلا بعد ثلاث سنوات، ونال شرف تقبيل يد السلطان في أدرنه، وأعطى للسلطان رسائل العديد من الحكام وسلاطين الأوزبك وحكام الهند، كما قدم للسلطان سليمان كتابه المسمى (مرآة الممالك) الذي يشرح في تفاصيل رحلته وكتب نصفه نثراً ونصفه الآخر نظم، وقد أظهر السلطان اهتماماً

---

(١) Cengiz Orhunlu, Seydi Ali Reis, ist Ünvi, Edebiyat fak, Tarih Enistitüsü Dergisi, ist ١٩٧٠, s. ٤٢-٤٤ .

وعناية بالكتاب، وأحسن عليه السلطان برتبة المتفرقة براتب يبلغ ٨٠ أقجه في اليوم، كما أعطى رفقائه في تلك الرحلة رواتبهم المتراكمة طوال الثلاث سنوات التي كانت مدة الرحلة، وأحسن عليهم بترقية رتبهم.

وقد ترجم سيدي علي كتاب الجغرافيا المسمى "فتحية" لعلى قوشجي، وله كتاب آخر عن علم الرياضيات، وسير السفن باسم مرآة الموجودات، وكتاب آخر عن الإسطرلاب، كما كتب تعريفات تتعلق بالمحيط الهندي أسماه المحيط، وهو كتاب قيم للغاية مأخوذ من أحسن المصادر العربية والأعجمية، ويندر وجود كتاب في قيمته[١] كان سيدي علي رئيس يتصف بالكرم والسخاء[٢].

---

(١) هامر ، دولت عثمانية تاريخي، مترجمى محمد عطا، التنجي جلد، ١٣٣٢ ، ص. ١٢٠-١٢١.

(٢) Mehmed Süreyya, Sicil Osmani, yayina hazırlayanlar, Ali Aktan Abdulkadir Yuval, c. ٣, Istanbul tarihsiz, s. ٥٨٢.

## ثقافتـــه :

أوضح سيدي علي رئيس في مرآة الممالك أنه طوّر علمه، ودرس في كل العلوم وخاصة البحرية، يقول في ذلك: " وطورت علمي، ودونت، وعلمت كل العلوم في هذا الشأن. وألفت كتابا في علم الهيئة وفن الحكمة في موضوعات أخرى تتعلق بالبحرية، وعن مواقع النجوم[١].

هذا فضلاً عن ملكته الأدبية واهتمامه بالشعر، فقد كان شاعراً، واتخذ لنفسه مخلصاً هو كاتبى استخدمه في أشعاره التي أورد منها نماذج كثيرة في كتابه مرآة الممالك، كما نتبين من النماذج التي أوردها في مرآة الممالك أنه اطلع على ما كتبه كبار الشعراء من الترك والفرس؛ مثل: يتيمى، ونجاتى، ويارى، ومسيحى، ونظامى الكنجوى[٢].

---

(١) مرآة الممالك، ص ١٤.

(٢) تضمن الكتاب أشعاراً كثيرة، حيث بلغ عدد أبيات الشعر الموجودة في الكتاب ٢٧٤ بيتاً، منها ٢٣٢ لسيدي علي الرئيس، و٤٢ بيتاً لشعراء آخرين، وأكثر الشعراء الذين استشهد بهم سيدي علي في كتابه الشاعر يتيمي، وله ٩ أبيات، يليه نجاتي ٨ أبيات، يليه ياري ٤ أبيات. والباقون تتراوح أشعارهم المذكورة في الكتاب بين بيت وثلاثة أبيات، وهم أمثال: مسيحي، وحافظ، وهجري، وحمدي، ونظامي، وسحري، ومنلا الروم، وشيخي، ولامعي.

كما يغلب التصوف على ثقافته وروحه، وهو ما اتضح من أشعاره الصوفية ومنها:

اشتقت لوجه الحبيب، أو أنني ليس لدى أمل قط في رؤيته

لا أريد الجنة، أي لا أريد الحبيب؛ بل أنا عاشق لوجهه فقط

يا طبيب قلبي المريض حلاوة شفتيك شفاء لألم من يعرف

أنه شفاء للمرض، فعشق الحبيب سلبني عقلي وفكري وصبري

وشعوري، لقد أصبحت في وادي الهجران، ومهما تفعل فأنت حبيبي

لا تلق بسوء وجهك كرقيب على مجالس الدولة،

فلن أضجر من هذا السوء أيها الساقي،

يا كاتبي إن الشعر جميل للسلطان، وأنا أشكره بشفة الحبيب[١].

(١) مرآة الممالك، ص ٤٤.

كما نظم بعض الأشعار في أئمة الشيعة، ولعل ذلك بسبب مروره بمناطق خراسان، وبعض مناطق آسيا الوسطى التي يغلب عليها التشيع، ومما نظمه في هذا قوله في مدح الإمام على:

لم يأت رجل مثلك إلى العالم

ولا يوجد حد لمن يتحارب معك ويضرب بمخالب الأسد

أصبحت في وادي المحنة

يا على طلبت المدد منك فامدد لي يدك

أصبحت تراب على عتبتك

فقد مزقت صدري بخاتمك ذو الفقار

وأدركت سر لا فتى إلا علي

يا علي طلبت المدد منك فامدد لي يدك

لقد بشرتني في عالم الرؤيا

وأشرت لي على طريق الأمن

عندما كان قلبي خراب عمرته

يا على طلبت منك المدد فامدد لي يدك

أيها الاسم الطيب تفاءلت باسمك وخرجت

وعبرت الهند والسند وبلاد ما رواء النهر وأتممتها

التجأت بك بروحي ولساني

يا على طلبت المدد منك فامدد لي يدك[1].

(١) مرآة الممالك، ص ٨٠.

**رؤيته للعلم :**

كان سيدي علي الرئيس يقتنع بالحكمة القائلة: "مناقشة ألف عالم خير من مناقشة جاهل واحد"، ولكنه كان في نفس الوقت حريص على التصريح بصحيح العبادة، وعدم كتمان العلم، وقد تجلى هذا بوضوح عندما دخل عراق العجم الممتلئة بالشيعة، وأخبر من معه بأن يكتموا مذهبهم ومعتقداتكم يقول في ذلك: "ثم وصلنا إلى سمنان وزرنا علاء الدولة السمناني، وهناك هجم علينا بعض الأشخاص كانوا يريدون التحدث معنا في الأمور المذهبية، ولكني قلت للأصدقاء اكتموا مذهبكم ومعتقداتكم "[١].

(١) مرآة الممالك، ص ١١١.

ومن ذلك أيضًا: "وفي أحد الأيام سألني إبراهيم الصفوي أحد العلماء، وهو من أقارب الشاه في نفس الوقت قائلاً: ما هو سبب تكفير العلماء العثمانيين لنا ؟ وعندما قلت له لأنه سُمع أنكم تسبون الصحابة، وسب الصحابة في كتب الفقه كفر. فقال: هذا على رأي الإمام الأعظم، أما الشافعي فقد ذهب إلى أن سب الصحابة من الصغائر. فقلت له: هذا لا يعد من الصغائر عند الشافعي .... وقلت له أيضًا: ألا تعلمون أنه قد ذكر عن العلماء " إن لحومهم مسمومة من يشمها يمرض ومن يأكلها يموت، وبالتالي من يتطاول عليهم سيعاقب في الدنيا والآخرة. وعندما قلت ذلك لم يستطع أن يجيب، وقال: كل هذا تلفيق "[١].

(١) مرآة الممالك، ص ١١٦-١١٧.

**رؤيته للسلطنة العثمانية:**

كان سيدي علي الرئيس ينظر للسلطنة العثمانية على أنها السلطة الأولى في العالم، وأن سلطانها هو أعظم سلاطين الدنيا، وذلك لأنه يملك ويحكم منطقة في كل إقليم من أقاليمها السبعة، وقد أورد ذلك أثناء حديثه مع سلطان الهند عن السلطنة العثمانية[١]".

---

(١) يقول في ذلك: "وذات يوم سأل السلطان الحقير (يقصد سيدي علي) قائلاً له: ( أيهما أكبر ولاية الهند أم ولاية الروم؟) فأجبته: يا سلطاني إن كنت تقصد بالروم ولاية الروم التي مركزها سيواس، فحينئذ الهند أكبر. أما إن كنت تقصد بها البلدان التابعة لسلطان الروم، فالهند لا تمثل عشرها، فقال السلطان: أقصد كلها، فقلت له: يا مولاي على حد ما يذكر الحقير أن الإسكندر كان سلطان الروم، وقد حكم الدنيا كلها، وملك أقاليمها السبعة؛ هذا بالإضافة إلى أن طول الربع المسكون ١٨٠ وعرضه ٦٦ درجة من خط الاستواء، واتساعه على حسب ما ورد في كتب الفلك أربعة آلاف ألف و٦٦٨٦٧٠ فرسخ.

وعلى هذا فإن الانتشار بها وحكمها كلها ليس بالأمر السهل، ونظراً لأن لسلطان الروم نصيب في كل تلك الأقاليم، فإنه يطلق عليه حاكم الأقاليم السبعة، وعندما قلت ذلك سألني السلطان: وهل لسلطان الروم حكما في الأقاليم السبعة ؟ فقلت له: نعم ! له في الإقليم الأول اليمن، وفي الإقليم الثاني مكة الشريفة، وفي الثالث مصر، وفي الرابع حلب، وفي الخامس القسطنطينية، وفي السادس كفه، وفي السابع بودين وبيتش، وبكل تلك البلاد حكام وقضاة نواب للسلطان، انظر: مرآة الممالك، ص ٧٤ ٧٥

وفي موضع آخر تناول السلطنة العثمانية أيضًا، يقول في ذلك: "كل مدينة تجولت بها لم أشاهد فيها نظيراً لغلاطه استانبول، صدق الشاه ما قلت، ثم سألني قائلاً: كم عدد قوات الأمراء العثمانيين ؟ فقلت له إن هذا خاص بسلطاننا في ديار الروم، كما يوجد لكل جندي من الجنود إقطاعات؛ أما إقطاعات أمراء السلاطين فهي على حسب كل أمير، وقد يكون مجموع القوات العسكرية في الإيالات أكثر من مجموع جنود السلطان، على سبيل المثال جنود أمير أمراء الأناضول الرومللى، ومصر، وديار بكر، وبودين، وبغداد، واليمن أكثر بكثير من جنود السلطان، وبقية الأمراء الآخرين على هذا الشكل، وهذا هو ما يليق بأمراء السلطنة، كما أن ولاية الروم هي جيش سلطاننا؛ لذا فإن كل أمرائها يختلفون عن بقية الأمراء الآخرين، فلا يوجد احتمال ولو ذرة واحدة عن انفصالهم عن السلطان أو مخالفتهم لأوامره الشريفة"(١).

---

(١) مرآة الممالك، ص ١١٩.

كان سيدي علي الرئيس يميل في بعض الأحيان في الكتاب إلى عرضه للوحدة الإسلامية، وكيف يجب إن يتحد أبناء الأمة الإسلامية معاً في الشدائد، فإذا ما رأى حاكماً لدولة إسلامية مسلمين في محنة؛ حتى وإن كانوا غير تابعين له، يجب أن يمد يد العون لهم(١).

كما أشار سيدي علي في كتابه: "إلى الوحدة الإسلامية التي ينبغي أن تكون موجودة بين أبناء الأمة الإسلامية"، أشار أيضاً في عدة مواضع إلى صداقة الشعوب الإسلامية مع اختلاف ألسنتها وألوانها، فكم من مرة نزل ضيفاً عند حكام المناطق التي زارها وجد حفاوة في الاستقبال؛ سواء من الحكام أو من شعوب تلك المناطق، ومن ذلك: "وصلنا إلى قلعة صرات مروراً بكجرات بعد ثلاثة أشهر من خروجنا من ميناء البصرة، وقد سُر الأهالي المسلمون الموجودون هناك من مجيئنا، وقالوا لنا: لقد جئتم وقت ثورة الكجرات، وكنتم عونا لنا ... إن أملنا أن تنضم ولاية الكجرات إلى الدولة العثمانية في أقرب وقت بإذن الله "(٢).

---

(١) وقد ذكر سيدي علي هذا في عدة مواضع في الكتاب منها: " وهنا مكان معروف باسم بندر الشهباء. وهناك رأينا قطعة نوتاق أي لوند، وكانت هناك أيضاً سفن من نوع الأقطارمه. فلما رآنا النظرجية (المراقبون) تجمعوا، وأرسلوا لنا رجلاً منهم، ولما قلنا لهم إننا مسلمون، جاء رئيسهم إلى السفينة، ولم يكن في سفينتنا ولا حتى شربة ماء، فلما بيّن لنا مكان الماء، وهب الجند المشرفون على الموت حياة جديدة، وكان ذلك اليوم يوم عيدنا، فكان العيد عيدين بعثورنا على الماء في ذلك اليوم ". مرآة الممالك، ص ٤٢.

(٢) مرآة الممالك، ص ٤٩.

## ثانيا : أعماله :

١ـ **مرآة الكائنات**: وهو كتاب في خمسة مقالات بمئة وعشرين باباً عن كيفية صنع الإسطرلاب واستخدامه، والمسافة بين النجوم والشمس، وعن القبلة، وتحديد وقت الظهر، وإثبات اتساع الأنهار، والربع المجيب، كما أضاف لهذا الكتاب بعض المباحث عن علم النجوم. (النسخة المخطوطة منه محفوظة بمكتبة جامعة استانبول تحت رقم ١٨٢٤ TY).

٢ـ **خلاصة الحياة**: وهو كتاب في الرياضيات، ترجمة لكتاب "فتحية" لعلى قوشجى، وذلك لأنه عندما كان في حلب كان يتلقى دروس الرياضيات على يد الشيخ حمد الله بن الشيخ جمال الدين، وأعجب كثيراً بدروس الشيخ، وقال في نفسه: إنه يجب أن يكون هناك كتاباً مثل هذا باللغة التركية، فترجم الكتاب المار ذكره (النسخة المخطوطة من هذا الكتاب محفوظة بمكتبة آيا صوفيا تحت رقم ٢٥٩١، ونسخة أخرى في مكتبة نور عثمانية تحت رقم ٢٩١١).

**٣ـ الكتاب المحيط في علم الأفلاك والبحور:** كتب سيدي علي رئيس هذا الكتاب عندما كان في حيدر آباد عام ١٥٥٤م، وهو كتاب بمثابة الدليل والمرشد للبحارة والقباطنة عن الملاحة في المحيط الهندي بأمن وسلام، من خلال التجارب الفعلية التي قام بها المؤلف، وقد استفاد المؤلف في هذا الكتاب من الكتب البحرية الأخرى إلى جانب مشاهداته وتجاربه الشخصية، ويبرهن هذا الكتاب على أن سيدي علي رئيس لم يكن بحاراً عملياً فقط؛ بل كان عالماً بأمور الجغرافية البحرية ماهراً بها، ألفه سيدي علي رئيس عندما كان في أحمد آباد في بلاد الهند عام ١٥٥٤م، والكتاب عبارة عن اقتباسات من الكتب الأقدم منه، بالإضافة لمشاهدات وتجارب سيدي علي رئيس نفسه، ونسخه الأصلية نادرة للغاية؛ حيث توجد له نسختان أحدهما محفوظة في مكتبة قصر روان بطوب قابي سرايي، تحت رقم ٣٤٩٤٢، أما الثانية فتوجد في مكتبة نور عثمانية باستانبول، تحت رقم ٢٩٤٨،

أما النسخ الموجودة في أوربا فهي نسخة وحيدة محفوظة بمكتبة فيينا، وهي نسخة قيمة منسوخة من النسخة الأصلية التي تركها المؤلف في ديار بكر عام ١٥٥٨م / ٩٦٦هـ؛ حيث قام فون هامر بشرائها عندما كان في استانبول عام ١٨٣٢م (وهذه النسخة محفوظة بمكتبة فيينا تحت رقم ١٢٧٧ فهرس فلوجال)، كما توجد نسخة أخرى في نابولي قام بنسخها مسيو بوربونيكو (Museo Borbonico) عام ١٥٧٠م.

والاسم الأصلي لهذا الكتاب هو (الكتاب المحيط في علم الأفلاك والأبحر) وفي الفترة فيما بين عام ١٨٣٤ – ١٨٣٨م / ١٢٥٠- ١٢٥٤هـ قام فون هامر بترجمة الفصول الهامة من الكتاب من حيث جغرافية وأفلاك البحار إلى اللغة الإنجليزية، وقام بنشرها تحت اسم(Extracts from the Muhit) في المجلدات الثالث، والخامس، والسادس، والسابع من Jornal of the Asiatic Society of the Bengal، كما قام أحد أساتذة جامعة روما وهو Luigi Boneli

بعمل دراسة عن نسختي الكتاب الموجودتين في أوربا، ونشر في عام ١٨٩٤م الأبواب التي تتعلق بالجغرافيا الطبوغرافية، وهي الباب الرابع، والسادس، وجزء من الباب السابع في Rendconti Della Reale Academia Dei Lincei، كما قام أحد أساتذة جامعة فيينا وهو M. Bittner بترجمة الفصل الذي يتناول السواحل الهندية بالنسبة للرياح، والجزر الموجودة في المحيط الهندي، وبعض المعلومات عن العالم الجديد، وقام أيضاً بترجمة الفصل الرابع الذي يتناول الموانى المشهورة على السواحل المحيط الهندي، والجزر الموجودة به، وقياس الارتفاعات بالأصابع من حيث النجم القطبي، كما قام البروفسور Tomaschchek بعمل دراسة عن سيدي علي رئيس، وكتابه المحيط أسماها Die Topographischen Capital des Indischen Seespiegels،

ونشرها عام ١٨٩٧م / ١٣١٥هـ في Festschrift بمناسبة الاحتفال بمرور أربعمائة سنة على اكتشاف طريق الهند الشرقي على يد فاسكو دي جاما، ولأن الكتاب لم ينشر حتى الآن بصورة كاملة وتامة؛ سواء في تركيا، أو في أوربا، فإنه لم يجد ميلاً من المؤلفين الأتراك، ولم ينقل منه سوى كاتب جلبي في كتابه جهاننما؛ حيث نقل منه معلومات عن جزر جاوا، وسومطرة، وسيلان، وبعض الجزر الأخرى.

**وخلاصة محتويات الكتاب على ما يلي:**

**الباب الأول عن:** تعيين الجهات ومسح لمسافات النجوم ودائرة السماء وحساب ارتفاع النجوم.

**الباب الثاني عن:** حساب الزمن والتقويم والسنوات الشمسية والقمرية.

**أما الباب الثالث فعن:** تقسيمات البوصلة، والرابع عن: المواد التي تحدثنا عنها فيما سبق، والخامس عن: سطوع وأفول بعض النجوم الهامة بالنسبة للبحرية وأسمائها، والسادس عن: ارتفاع المواني والجزر المشهورة بالنسبة للنجم القطبي، والسابع: معلومات عن الفلك وقياس المسافات بين بعض المواني بحساب الضم، الثامن عن الرياح ومواسمها، التاسع عن: الطرق الملاحية، والعاشر عن: العواصف البحرية الشديدة التي يطلق عليها الطوفان[١].

---

(١) Abdülhalik Adnan Adıvar, Osmanlı Türklerinde Ilim, ٢. baskı, Istanbul ١٩٤٣, s. ٦٩-٦٨.

٤ـمرآة الممالك: وهو كتاب يتناول الرحلة والأحداث والأهوال التي عاشها سيدي علي رئيس ورفقاؤه أثناء عودتهم من الهند إلى بغداد، ويتناول فيه المدن التي زاروها والأضرحة، وقد أتمه سيدي علي رئيس في أواسط شهر صفر عام ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م، ويعطي سيدي علي رئيس في الكتاب معلومات مفصلة عن الوقائع التي شاهدها، والحكام الذين تعرف بهم، والبلدان التي مروا بها، وقد نشر الكتاب باللغة التركية عام ١٣١٣ على يد أحمد جودت بمقدمة لنجيب عاصم، كما قام فريد ريتش ديز بترجمة الكتاب إلى اللغة الألمانية، وترجم إلى اللغة الإنجليزية على يد فامبري، وترجم للفرنسية على يد م. موريس، كما ترجم للغة الروسية على يد ش. زمنون اب.

وإلى جانب هذا كان سيدي علي شاعراً، تخلص في أشعاره بمخلص كاتبي، وكاتبي الرومي، ولا يوجد له ديوان مرتب، ولكن كتابه مرآة الممالك يحتوي على نماذج من أشعاره، وكان ينال إحسان الحكام الذين يمدحهم بغزلياته في البلدان التي زارها؛ حتى أن أشعاره هذه كانت سبباً في إنقاذه من الحبس في قزوين، حتى أن همايون شاه جعله في مرتبة مير على شيرنوائي، ولقبه بمير على الثاني[١].

وقد اهتم سيدي علي في كتابه مرآة الممالك بالناحية الأدبية، الشعر فيه كثيراً، منه ما نظمه هو بنفسه، ومنه لغيره من الشعراء المعاصرين، وغير المعاصرين له. كان سيدي علي يستخدم في غزلياته الصور المألوفة لدى الشعراء الترك ذات المعاني الصوفية؛ مثل طرة الحبيب، والقلب الذي يحترق، والشفتين، والحاجب الذي يشبه القوس، واحتراق الجسد بنار الفراق.

---

(١) Şerefeddin Turan, Seydi Ali Reis maddesi, Islam Ansiklopedisi, c. ١٠, Eskişehir ١٩٩٧, S. ٥٢٨ .

وقد بلغ عدد أبيات الشعر في كتاب "مرآة الممالك" ٢٧٤ بيتاً، منها ٢٣٢ لسيدي علي الرئيس، و٤٢ بيتاً لشعراء آخرين، وأكثر الشعراء الذين استشهد بهم سيدي علي في كتابه "الشاعر يتيمي"، وله ٩ أبيات، يليه "نجاتي" ٨ أبيات، يليه "ياري" ٤ أبيات. والباقون تتراوح أشعارهم المذكورة في الكتاب بين بيت وثلاثة أبيات، وهم أمثال: مسيحي، وحافظ، وهجري، وحمدي، ونظامي، وسحري، ومنلا الروم، وشيخي، ولامعي.

ومعظم أبيات سيدي علي رئيس أورد في آخرها مخلصه الشعري (كاتبي)، مثله في ذلك مثل بقية الشعراء، ومثال ذلك:

**هل تعرف كم يكون ذلك الوجه جميلاً**

عندما تحمر وجناته من تأثير الخمر

المنادون سعوا وقالوا من ينفق عمره

في سبيل الوصول إليك

الشفاه التي تحيي القلوب الميتة

مثل الولي الذي يجد الروح

شفاه الحبيب مثل الزهرة

فلماذا لا يمسك بها القلب

فالقلب دائما ميال لكل زهرة تتفتح

يا كاتبي لا تجعلني مجنونا بالعشق

ولا تجعلني عبداً بالعشق

ولا تبكني فصدري ملئ بقطرات الدموع الفضية[1].

هذا بالإضافة إلى أنه كان ينظم الشعر لأسباب مختلفة؛ منها على سبيل المثال أنه نظم الغزليات لتكون وسيلة للتضرع، ومثال ذلك:

يا صاحب الوجه الوردي

إن القلب يزرف دمعه كحبة الثلج

وكل سحر يذهب إلى قرية الروضة

يا طبي الروضة ماذا يكون لو التفت

---

(١) مرآة الممالك، ص ٧٣.

شفتك السكرية على صدري

الأسود للحظة ووجدت الدواء

يا كاتبي تسير وأنت في مقدمة طريق العشق

تستطيع أن تذم فرهاد والمجنون

لأنهما هربا من طريق العشق[١].

وأحيانا كان سيدي علي ينظم الشعر للتسلية عن رفقائه في الرحلة من الآلام والأهوال[٢].

---

(١) السابق، ص ٧٧.

(٢) نفسه، ص٤٧.

# الباب الثاني

# كتاب مرآة الممالك

# دراسة في المحتوى والأسلوب

# الفصـــل الأول

# كتاب مرآة الممالك

كتاب "مرآة الممالك" لسيدي علي رئيس من كتب التراث العثماني. طُبع في مطبعة إقدام عام ١٣١٣هـ / ١٨٩٥م. يقع الكتاب في ٩٠ صفحة، متوسط الصفحة الواحدة ٢١ سطراً، متوسط السطر الواحد ١٠ كلمات.

يبدأ الكتاب بالحمد والثناء على الله، والصلاة والسلام على النبي الكريم ﷺ، وصحابته وآل بيته الكرام. ثم تحدث في مدح سلطان العصر السلطان سليمان القانوني، ثم سبب تأليف الكتاب، ثم ذكر سيدي علي رئيس بداية ملحمة مرآة الممالك.

## سبب تأليف الكتاب:

ذكر سيدي علي رئيس سبب تأليف الكتاب في مقدمته حيث يقول: " وكانت لدينا الرغبة في كتابة كتاب يشرح المدن التي رأيناها والعجائب والغرائب التي شاهدناها، والمزارات الشريفة التي زرناها، والآلام والمحن التي تعرضنا لها"[١].

---

(١) مرآة الممالك، ص ١١.

## سبب تسمية الكتاب :

ويقول في ذلك: "وكنا سنسميه محنت نامه (رسالة المحنة) نظراً لما فيه من الشدائد والآلام، ولكننا أسميناه (مرآة الممالك) لأنه يتناول بالشرح أحوال كل الولايات والمدن التي تجولنا بها[1]".

قسّم سيدي علي الكتاب إلى ١٣ عنوانا؛ الأول وهو في: "بيان الأحداث التي وقعت في ولاية البصرة"، والثاني وهو في: "بيان الأحداث التي وقعت في بحر هرمز"، والثالث وهو في: "بيان الأحداث التي وقعت في ديار الهند"، والرابع في: "بيان الأحداث التي وقعت في ولاية الكجرات"، والخامس وهو في: "بيان الأحداث التي وقعت في ولاية السند"، والسادس في: "بيان الأحداث التي وقعت في ديار الهند"، والسابع وهو في: "بيان الأحداث التي وقعت في زابلستان أي أرض بوختر"،

(١) مرآة الممالك، ص ١١.

والثامن وهو في: "بيان الأحوال التي حدثت في بدخشان وخوتلان"، والتاسع وهو في: "بيان الأحوال التي وقعت في ولاية توران أي بلاد ما وراء النهر"، والعاشر وهو في: "بيان الأحوال التي وقعت في ولاية خوارزم وصحراء القبجاق"، والحادي عشر في: "بيان الأحداث التي وقعت في ولاية خراسان"، والثاني عشر وهو في: "بيان الأحداث التي وقعت في عراق العجم"، والثالث عشر وهو في: "بيان بقية الأحوال".

وبالرغم من صغر حجم كتاب مرآة الممالك؛ إلا أنه من كتب التراث العثماني الهامة؛ لما يحتويه من معلومات هامة وقيمة عن مناطق قلما كتب عنها العثمانيون، كما يلقي الضوء على أخبار وأحوال تلك الأماكن، وعادات أهلها، والصراعات التي كانت دائرة بينهم. كما تبرز أهميته في أنه ذكر الصراع العثماني البرتغالي في عصر السلطان القانوني، وهي أهم فترة حدث وتطور فيها هذا النزاع في العهد العثماني. وهذه أيضًا ميزة للكتاب لأن المصادر التي كتبت عن هذا الصراع العثماني البرتغالي في الخليج العربي والمحيط الهندي قليلة؛ بل تكاد تكون نادرة.

كما تعرض الكتاب للظواهر البحرية والملاحية للخليج العربي والمحيط الهندي. والأحداث والأهوال التي شهدها سيدي علي رئيس ومن كانوا معه في رحلتهم من خليج البصرة وحتى عودتهم إلى استانبول مروراً بالمحيط الهندي، ثم السير براً إلى بلاد السند والهند، وبلاد ما وراء النهر، وخراسان، وعراق العجم، ثم إيران، ومنها إلى العراق، ثم إلى الأناضول، ثم استانبول، ومنها إلى أدرنه.

## الهدف من الكتاب :

لقد كان هدف سيدي علي رئيس من كتابه مرآة الممالك كما بينه في كتابه (هو العظة والعبرة لأصحاب العبر، وأرباب الخبرة) وهو هدف تقليدي للكتاب المسلمين، وهدف آخر أخلاقي وهو: (ألا ينغمس أي شخص قط في أهوائه، وليصغى دائما إلى الحكمة القائلة : " إن القناعة كنز لا يفنى ")[١].

بالرغم من أن كتاب مرآة الممالك يعد من كتب التراث العثماني القيمة نصاً وموضوعاً، إلا أنه يفتقر إلى غزارة المادة المعروضة. فرحلة الكاتب سيدي علي الرئيس امتدت لأربع سنوات تقريبا؛ زار فيها مناطق كثيرة تمتد لآلاف الكيلومترات بدءاً من خليج البصرة حتى نهايته، والإبحار في المحيط الهندي حتى بلاد الهند، ثم بلاد السند، ثم بلاد الأفغان، فبلاد ما وراء النهر بوسط آسيا، ثم عاد إلى نيسابور، ثم عراق العجم (بلاد إيران) ومنها إلى عراق العرب

(١) مرآة الممالك، ص ٩٨.

ثم إلى ديار بكر ثم إلى استانبول. وكان المفترض أن تكون وقائع الرحلة أكبر مما قدمه سيدي علي رئيس؛ لأنه كتب رحلته هذه في ٩٩ صفحة فقط، ولعل السبب في ذلك هو أنه كان أحد قادة البحرية الذين تنصب معظم اهتماماتهم في البحرية والأسطول وشؤون الأسطول فقط إلى جانب شاعريته، وهذه لها جانب آخر مختلف، ولم يكن رحالة أو سائح يهوى التجوال في البلدان، ويجمع في رحلته كل ما يشاهده في تلك البلاد من عادات ونواحي اجتماعية وسياسية واقتصادية؛ بل أراد سيدي علي الرئيس أن يشرح وبإيجاز المصاعب والأهوال التي ألمت به في تلك الرحلة التي ذهب إليها مضطراً؛ لأن مهمته الأساسية كانت تتمثل في جلب الأسطول المصري من ميناء البصرة، وشاء الله القدير أن يتحارب في طريق عودته مع الأسطول البرتغالي مرتين، وتهب عاصفة قوية شديدة جعلته يغير اتجاه سيره، ويُجبر على الجنوح إلى نواحي الهند، ثم تتوالي الأحداث الجسام عليه، وعلى من معه، وهو ما شرحه في كتابه مرآة الممالك.

# العالم الإسلامي في كتاب مرآة الممالك

## ١- منطقة الخليج العربي كما وردت في كتاب مرآة الممالك لسيدي علي رئيس:

تعرض الرئيس على في كتابه مرآة الممالك لمنطقة الخليج العربي مرتين الأولى عندما كان يتحدث عن الرئيس بيري والأحداث التي جرت له في خليج البصرة، وهذه لم يسهب سيدي علي رئيس القول فيها؛ حيث جعلها بمثابة المدخل لتعيينه على قيادة الأسطول البحري المصري، يقول سيدي علي في ذلك: "قبل ذلك خرج الرئيس بيري قبطان مصر من ميناء السويس، ومعه ثلاثين سفينة من نوع الباشترده، والقدرغه، والقالته، والقليون، قاصداً جدة عبر البحر الأحمر. ومن هناك وصل اليمن، وخرج من مضيق باب المندب.

ومن قبالة عدن اجتاز رأس الحد، وعبر طريق شحار وظفار، وكان الطريق مليء بالسحب والضباب؛ الأمر الذي جعل السفن تتفرق عن بعضها البعض، وتحطم قسم منها بالقرب من شحر. وفتح قلعة مسقط جنوب عمان، وأسر أهلها، وأغار على جزر هرمز وبرخت، ولما وصل ميناء البصرة، علم بخبر مفاده أن أسطول الكفار قادم في الطريق. أخذ على الفور السفن الثلاث التي تخصه، وخرج من الميناء قبل وصول العدو. وبالقرب من البحرين تحطمت إحداها، ووصل بالاثنتين الباقيتين إلى مصر، وبقيت السفن الأخرى في البصرة.

ولما وصلت تلك الأخبار إلى استانبول، أسندت قيادة البحرية إلى مراد بك الذي كان موجوداً بالبصرة في تلك الأثناء، وصدر الأمر له بإبقاء قطعتين، وخمس قدرغات، وقاليته واحدة في البصرة، والرجوع إلى مصر بالسفن الباقية، ولما وصل مراد بك قبالة هرمز تقابل مع أسطول البرتغال، ودارت حرب كبيرة، استشهد فيها الرئيس سليمان رئيس القباطنة، ورجب رئيس، وعدد كبير من الجنود، واستولى العدو على قطعة بحرية، فعاد مراد بك إلى البصرة بالسفن مرة أخرى"(١).

(١) سيدي علي رئيس، مرآة الممالك، ص ١٣.

وبالرغم من أن تلك المقدمة التي أورد فيها سيدي علي بعض الأخبار عن منطقة الخليج مقدمة بسيطة إلا أنها تبرز لنا نقطة هامة، وهي الوجود الفعلي القوي البرتغالي في منطقة الخليج في تلك الفترة (القرن السادس عشر)، محاولتهم لمنع أي تقدم للعثمانيين في مياه الخليج.

أما المرة الثانية التي تحدث بها سيدي علي الرئيس عن منطقة الخليج العربي، فكانت أكبر من حيث الكم؛ حيث أسهب القول فيها إلى حدٍ ما، وقد أفرد لها سيدي علي عنواناً في كتابه المرآة وهو: "في بيان الأحداث التي وقعت في بحر هرمز"، وقد شرح بها سيدي علي ما حدث له عندما خرج بالأسطول المصري من ميناء البصرة قاصداً مصر، يقول في ذلك: " ومن مواني شيراز وصلنا مدينة الري. وطفنا بسواحل بر فارس -أي شيراز-، وقابلنا في البحر سفينة صينية، وتحرينا منها أخبار العدو، ولكنها لم يكن لديها أي أخبار. ووصلنا من بر العرب إلى ميناء القطيف بالقرب من هجر -أي الإحساء-، ثم عبرنا إلى البحرين، وتقابلنا مع حاكمها مراد رئيس، والحاصل أننا عبرنا من هناك، وعرجنا إلى جزيرة قيس أي هرمز القديمة، وجزيرة برخت، وعدد من جزر البحر الأخضر أي بحر هرمز.

ومن سواحل جلغار وجادي اجتزنا كيمزار، والقصبة المعروفة باسم "ليمه". ووصلنا بالقرب من مدينة خورفكان في العاشر من شهر رمضان، وكان ذلك اليوم هو اليوم الأربعين لخروجنا من البصرة، وأما خورفكان وفي وقت الضحوة الكبرى قابلنا فجأة ٢٥ سفينة من سفن البرتغال الكفار، وهجموا علينا، فتجهزنا وتوكلنا على الله، وتوسلنا بهمة الأنبياء والأولياء وقوينا الأعمدة، ورفعنا الألوية، ودعونا الدعاء المحمدي، ثم بدأنا الحرب معهم، وكانت حرباً بالمدافع والبنادق يعجز اللسان عن وصفها، استمرت حتى العشاء، وفي النهاية انسحب أسطول الكفار. وفي اليوم التالي وصلنا عمان أي مدينة سُحار.

ولما وصلنا قبالة قلعة مسقط وقلهان في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك -أي في ليلة القدر-، هجم علينا العدو مرة أخرى من ميناء مسقط بأربع وثلاثين سفينة مجهزة ومكملة، والتجأنا إلى الله، وتوكلنا عليه، وتحاربنا معهم، وكانت حرب ضروس بالمدافع والبنادق والسيوف والسهام يعجز اللسان عن وصفها. وانفتحت في سفن الأعداء ثغرات بحجم النوافذ ... ووقعت خسائر كبيرة من الجانبين، فاضطررنا للإبحار بعيداً عن الساحل، وفي تلك الليلة غادرنا بلاد العرب "[١].

وعلى ما يبدو أيضاً من هذه الأحداث التي أوردها سيدي علي الرئيس أن أسطول البرتغال كان يحكم قبضته بشكل كبير على منطقة الخليج.

---

(١) نفس المصدر، ص ١٧-٢١.

## ٢- منطقة وسط آسيا كما وردت في كتاب مرآة الممالك لسيدي علي رئيس:

من المناطق التي زارها سيدي علي الرئيس في رحلته البحرية البرية التي استمرت أربع سنوات تقريباً، وجمع أحداثها في كتابه "مرآة الممالك منطقة وسط آسيا"، وقد أفرد لها سيدي علي الرئيس عنواناً خاصاً باسم "في بيان الأحداث التي جرت في ولاية أرض توران أي ما وراء النهر". وقد أسهب سيدي علي رئيس في الحديث عن تلك المنطقة، فالمتتبع لأحداث الرحلة في تلك المنطقة يجد أنه أشار إلى بعض الظواهر الجغرافية بها، والأحداث التاريخية التي حدثت فيها أثناء زيارته لها، والأولياء الذين زارهم بها أحياء أو أموات. يقول سيدي علي في ذلك: "استرحنا في اليوم الذي عبرنا فيه الجسر ودخلنا فيه إلى أرض توارن أي بلاد ما وراء النهر، وفي اليوم التالي استكملنا مسيرنا فوصلنا هزارنو، ومن هناك وصلنا قصبة جارشمبة ورزنا خوجه يعقوب الجرخي، ومن هناك ذهبنا إلى جيغان ياط، بعد ذلك عبرنا جبل سينجرد،

وكان المطر ينهمر باستمرار على الجبل، فقد انهمرت مياه المطر من الجبل وكأنها نهر كبير شاهدنا فيها قدرة الله، وسرنا من هناك حتى وصلنا شهر سبز أي كش، والتقينا بالسلطان هاشم، وسمح لنا بالمرور من أرضه، فعبرنا الجبل الموجود بين شهر سبز وسمرقند بصعوبة بالغة، ومررنا بقصبة مهر واستكملنا مسيرنا حتى وصلنا سمرقند التي تشبه الجنة في بدايات شهر شعبان المعظم"[١].

كما أشار سيدي علي الرئيس إلى الأحداث التاريخية التي وقعت في سمرقند أثناء زيارته لها فقال: "وقد تولى بوراق خان حكم سمرقند بدلا من عبد اللطيف خان الذي كان حاكماً عليها عندما قابلناه هناك، إلا أن بير محمد خان أمر بقراءة الخطبة باسمه في بلخ، كما أمر برهان سيد خان بقراءة الخطبة باسمه في بخارى، ولهذا استولى بوراق خان على سمرقند أولا، ومن هناك سار إلى مدينة سبز وجرت فيها حربا عظيمة، وكانوا ينوون احتلال المكان ثم الذهاب إلى بخارى. ولما تمت محاصرة هذا المكان فترة طويلة قام حاكم بخارى سيد برهان بمنح قره قولى لبير محمد خان، وأصبح بذلك تابعاً لبراق خان

---

(١) مرآة الممالك، ص ٦٤.

، وعندما دخل براق خان سمرقند خرج أغا الروم ومن معه من المدينة؛ حيث اتجهوا إلى بلاد الروم عبر طريق طشقند – تركستان .... وعندما ذهبنا إلى بول رباط وجدنا جند خوارزم شاه على أهبة الاستعداد للحرب، وفجأة رآنا خان علي بك فسألنا إلى أين تذهبون ؟ فقلنا: إلى بخارى، فقال لنا: إن حاكم بخارى على وشك الوصول للتحارب مع سلطان خوارزم فهلا ساعدتمونا بأن تترجوه في عدم فعل هذا ؟ فقلت له إننا لم نأتِ إلى هنا لمساعدة أحد .... ثم ذهبنا إلى بخارى ومنه إلى نيسابور"[١].

ويتضح من خلال هذا أن سيدي علي رئيس تناول الأحداث التاريخية التي جرت بمنطقة وسط آسيا وقت زيارته لها، وأشار إلى الخلافات التي كانت موجودة بين حكامها، وحروبهم مع بعضهم البعض، وخاصة التي جرت بين الأوزبك وبين سلطان خوارزم. كما حمل سيدي علي رئيس رسائل من حكام تلك المناطق إلى السلطان سليمان القانونى، عبروا فيها عند نظرتهم إلى السلطان سليمان القانونى بوصفه

(١) نفس المصدر، ص ٦٦.

(مؤسس بنيان الإسلام، أصدق السلاطين قولاً ودنيًا، أحق الملوك والخواقين صدقًا ويقينًا، مرصص معاقد العقل والإنصاف هادم قواعد الجور والاعتساف ... ملجأ سلاطين الزمان، معين الخواقين المظفرين)[١].

(١) انظر: فريدون بك ، منشئات السلاطين، ج٢، ص ٧١ – ٧٢ .

## ٣- شبه القارة الهندية:

وهي الأهم؛ حيث استغرقت القسم الأكبر من الرحلة، وفيها تعرض لوصف الحياة السياسية والأدبية، وبعض التقاليد الاجتماعية لتلك المنطقة. ومما أورده سيدي علي رئيس عن شبه القارة الهندية في كتاب مرآة الممالك ما يوضح علاقة الدولة العثمانية بسلاطين الهند المسلمين لدرء الخطر البرتغالى عن بلاد الهند[١]، واحتياجهم لمساندة العثمانيين ضد البرتغال الكفار[٢].

---

(١) يعبر سيدى على رئيس عن ارتباط سلاطين الهند بالدولة العثمانية فيقول: " بينما كانت السفينة على وشك التحرك، أتى السلطان سامري سلطان كالكتا إلى السفينة، وقدم خالص احترامه وارتباطه بالسلطان صاحب السعادة. مرآة الممالك". ص٢٧. ويذكر أيضاً تبعيتهم المعنوية للدولة العثمانية فيقول: "وتقابلنا مع السلطان ووزيره عماد الملك ومع الخانات الأخر، وقدمنا هديتنا المتواضعة للسلطان أحمد، وكنا مظهراً لإحسانه وإكرامه، وعرض كامل إخلاصه وانقياده لحضرة سلطان العالم". مرآة الممالك، ص ٣٣.

(٢) يقول سيدى على رئيس: "ذات يوم اجتمعت مع سفير الكفار في قصر عماد الملك الوزير الأعظم للسلطان أحمد، فقال عماد الملك للسفير نحن في احتياج للسلطان العثماني، وإن لم تذهب سفننا إلى موانيه ستكون بلادنا كسابق عهدها القديم، كما أنه سلطان الإسلام". مرآة الممالك، ص ٣٣. وقد أورد فريدون بك صور الرسائل المتبادلة بين حكام الهند والسلاطين العثمانيين . انظر: منشئات السلاطين ج٢.

## ٤- الصراعات بين الأمراء:

ومثال ذلك أيضاً ما أورده في حديثه عن ولاية السند، يقول في ذلك: "وقد قام عيسى طورخان شاه بقتل رجال السلطان حسن ميرزا، ووزع على جنوده خزينة قلعة نصرت آباد، وأمر بقراءة الخطبة باسم السلطان همايون، فقام السلطان حسن ميرزا بتعيين أخيه من الرضاعة، ويدعى السلطان محمود قائداً عام على القوات البرية، أما هو فقد سار بنفسه على رأس ٤٠٠ قطعة بحرية إلى الأمير عيسى المذكور"(١).

---

(١) مرآة الممالك، ص ٥٩.

ومن ذلك أيضاً ما أورده في حديثه عن بلاد الهند؛ حيث قال: "وعندما توفي سليم شاه ابن شير خان سلطان بلاد الهند، أصبح إسكندر خان سلطاناً، وعندما سمع السلطان همايون بذلك سار إلى الهند عبر طريق كابل، وسيطر في البداية على مدينة لاهور، ووضع بها مجموعة من الجند، وتقابل مع اسكندر خان أمام مدينة سرهند، وهجم عليه، وحصل منه على ٤٠٠ فيلا و٤٠٠ عربة، وفر اسكندر خان هارباً واحتمى بقلعة مانقوت، وجمع حوله مجموعة من الرجال وعين الشاه أبو المعالي أحد أمراء كشمير قائداً على الجيش وسار خلفهم"(١).

ومثال ذلك أيضا: "وقد تولى بوراق خان حكم سمرقند بدلاً من عبد اللطيف خان الذي كان حاكماً عليها عندما قابلناه هناك، إلا أن بير محمد خان أمر بقراءة الخطبة باسمه في بلخ، كما أمر برهان سيد خان بقراءة الخطبة باسمه في بخارى، ولهذا السبب استولى بوراق خان على سمرقند، ومن هناك سار إلى مدينة سبز وجرت فيها حرباً عظيمة، وكان فكر نواب الروم أن يحتلوا هذا المكان، وينتقلون منه إلى بخارى.

---

(١) مرآة الممالك، ص ٦٦.

ولما تمت محاصرة هذا المكان لفترة طويلة قام حاكم بخارى سيد برهان بإعطاء مدينة قره قولى لبير محمد خان الذي أرسل إخوته الصغار إلى هناك فاحتلوها، وفي النهاية أصبح تابعًا لبراق خان، ثم فوضت تلك الولاية إلى سيد برهان، أما براق خان فقد سار إلى قره قولى الأمر الذي جعل إخوة بير محمد خان يطلبون منه الأمان وسلموه المدينة"(١).

## ٥- بعض التقاليد الاجتماعية:

ومثال ذلك أيضًا: "وبينما كنت على وشك الرحيل أراد السلطان أن يخرج للشعب وقت صلاة العشاء يوم الجمعة، وبينما كان السلطان خارجًا من القصر أذن لصلاة العشاء، وكان من عاداتهم أنهم حينما يسمعوا الآذان يخرجون جالسين على ركبتهم، وفعلنا ذلك، وبينما كان السلطان يفعل ذلك سقط من سلم القصر

(١) مرآة الممالك، ص ٨٩.

فشجت رأسه وكسر ذراعه، واضطرب الأهالي. فاضطررت للبقاء هناك يومان. وقد أُرسلت الرسائل إلى كافة النواحي بأن السلطان تعافي وشُفي، ووزعت الصدقات على الفقراء، ومنح الجند الإنعام، وفي اليوم الثالث لسقوط السلطان انتقل من دار الشقاء إلى دار الرحمة: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦]"(١).

## ٦- الحياة الأدبية في بلاد سلاطين الهند :

رأى السلطان الغزلية التي نظمتها، وأنعم عليّ بكثير من الإحسان. وكان يخاطبني قائلاً: "مير على شير الثاني"، فقلت: إن العاجز ليس أهلا لمخاطبته بمير على شير الثاني، ولو كان في مقدورنا جمع السنابل لوافقنا على ذلك. فأظهر السلطان مزيداً من اللطف والإحسان قائلاً: "الكل يعلم بحق الله أنك أنسيت الجغتائيين مير على شير".

(١) مرآة الممالك، ص ٧٩.

وذات يوم وأثناء حديثنا اقترح أحد الأمراء المقربين للسلطان ويدعى "خوش حال"، وكان شابًا يافعًا مسئولاً عن سهم وقوس السلطان، اقترح هذا الشاب على العاجز أن ينظم غزليتين لتلك المناسبة، وعيّن لذلك الرديف والقافية، وقرأت بعده الغزليتين في مجلس السلطان:

هل تعرف كم يكون ذلك الوجه جميلاً

عندما تحمر وجنتيه من تأثير الخمر(١).

(١) مرآة الممالك، ص ٤٩.

# الفصـــل الثانـــي

# الخصائص الأسلوبية واللغوية لكتاب مرآة الممالك لسيدي علي رئيس

# الخصائص الأسلوبية واللغوية لكتاب مرآة الممالك لسيدي علي رئيس

حدد سيدي علي رئيس الأسلوب الذي التزم به في كتابه هذا بقوله: "إنه كتبه بلغة سهلة بسيطة يستطيع المثقف العثماني والرجل العادي فهمه بسهولة، فلم يركن به إلى الجمل المعقدة، أو العبارات الملتوية". وقد أشار إلى ذلك في مقدمة الكتاب حيث يقول: "ولم نعمد فيه إلى التصنع المقصود، كما أننا لم نراعِ السجع، فكتبناه بلغة الحديث اليومية حتى يستطيع أي شخص أن يطلع عليه"[١].

(١) مرآة الممالك، ص ١١.

فسيدي علي رئيس كتبه ليقدمه للسلطان الذي هو رئيس الدولة، وقد خرج الكتاب منمقاً خالياً من الفنون البلاغية، والمحسنات البديعية كالاستعارات والمجازات، ولعل السبب في هذا هو أن سيدي علي الرئيس لم يكن أديباً من أدباء عصره؛ بل كان قائداً بحرياً، قضى معظم حياته بين البحر، وشؤون الأسطول، وأعماله كلها أعمال علمية تتعلق بالفلك والبحار، وإلى جانب ذلك كان شاعراً وأمر شاعريته لا يتطلب بالضرورة أن يكن أديباً؛ لأن ملكة الشعر قد تكون موجودة في أي شخص حاكماً أو راعياً أو قائداً.

أ- تأثره باللغتين العربية والفارسية :

استخدام سيدي علي الرئيس لمفردات وتراكيب عربية وفارسية بين ثنايا جمل الكتاب، كان تأثره باللغة العربية والفارسية واضحاً أكثر من خلال الأبيات الشعرية العربية والفارسية الواردة بالكتاب، ولا عجب في ذلك فالثقافة الفارسية والعربية كانت ثقافة العلماء والأدباء، كما أن مفردات هاتين اللغتين صارتا من نسيج اللغة العثمانية، فسيدي علي رئيس كان شاعراً وكغيره من شعراء عصره مطلع على الشعر الفارسي والشعر العربي اللذان يدلان على سعة ثقافة وإطلاع الشاعر.

ومن الأبيات الشعرية الفارسية والعربية الواردة بالكتاب:

بدريادر منافع بى شمارست اكر خواهي سلامت در كنارست[1]

ان مع العسر يسر جو يسر قفاست شاد برانم كه كلام خدا است[2]

صوفي نشود صافي تا در نكشد جامى بسيار سفر بايد تا بخته شود خامى[3]

ومن الأشعار العربية:

قال فخر الأنام والأمم اتقوا عن مواضع التهم[4]

---

(١) مرآة الممالك، ص ٣١.

(٢) مرآة الممالك، ص ٣٢.

(٣) مرآة الممالك، ص ٨٤.

(٤) مرآة الممالك، ص ٤٥.

**ب. اقتباسه آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة :**

**[وكان في هذه الاقتباسات دلالة واضحة على ثقافته الإسلامية، وكان يستخدم هذه الآيات والأحاديث ليلخص من خلالها خلاصة فكره في موقف من المواقف كقوله:** ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾[الرحمن: ١٩][(١)]– ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾[المائدة: ٤٥][(٢)]، ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩][(٣)]، ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ [الرحمن: ٤١][(٤)]، ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١][(٥)]، ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ [الروم: ١–٢] [(٦)].

---

(١) مرآة الممالك، ص ١٨.
(٢) مرآة الممالك، ص ٣١.
(٣) مرآة الممالك، ص ٣١.
(٤) مرآة الممالك، ص ٨١.
(٥) مرآة الممالك، ص ٨٦.
(٦) مرآة الممالك، ص ٩٤.

ج – استخدامه للحكم والأمثال :

كذلك استخدم سيدي علي رئيس الحكم والأمثال وأغلبها من الثقافة العربية لكي يبسّط المعنى للقارئ ولتقوية وإبراز المعنى الذي يرمي إليه، وهو ما يُظهر تأثره بالعربية، ومن ذلك:

العبد يدبر والله يقدر[١] –الإبرام يحصل المرام[٢]– الهدايا قدر من يهدى[٣]– المأمور معذور والعذر عند كرام الناس مقبول[٤] – القناعة كنز لا يفنى[٥] حب الوطن من الإيمان[٦].

وهكذا كان أسلوب سيدي علي رئيس يحمل خصائص أسلوب المثقف العثماني في عصره من حيث المفردات والمحتوى الفكري.

---

(١) مرآة الممالك، ص ١٠.
(٢) مرآة الممالك، ص١١.
(٣) مرآة الممالك، ص ٤٤.
(٤) مرآة الممالك، ص ٤٨.
(٥) مرآة الممالك، ص ٩٨.
(٦) مرآة الممالك، ص ٩٩.

# الفصـــل الثالــث

# منهج سيدي علي في كتابه مرآة الممالك

## منهج سيدي علي في كتابه مرآة الممالك

**اهتمامه بدقة وصف خط سيره:**

كان سيدي علي الرئيس دقيقاً في وصف خط سيره، وكيف لا وهو من القادة البحريين المتميزين ومن أمثلة ذلك: "ومن أمام قصبة المسيب اجتزنا معبر الفرات فبلغنا عزو؛ أي كربلاء"(١).

ومن ذلك أيضاً: "ووصلنا قلعة صدر السويب من قبالة قلعة العجل، وقلعة المزرعة، ثم بلغنا شط البصرة"(٢).

وفي موضع آخر يقول: " ثم ذهبت إلى ماتشورا عن طريق سرهند، ومنها إلى بشاور، وعبرنا نهر سلطان بور بالسفن، واتخذنا طريقاً وعراً حتى وصلنا لاهور مرة أخرى في غرة ربيع الأول"(٣).

---

(١) مرآة الممالك، ص ٣٥.

(٢) مرآة الممالك، ص ٣٥.

(٣) مرآة الممالك، ص ٨٠.

وفي موضع آخر يقول: " وفي اليوم التالي استكملنا مسيرنا فوصلنا إلى حزارنو، ومن هناك وصلنا إلى قصبة جارشمبة، ومن هناك ذهبنا إلى جيغان ياط"[1].

**التزامه بتسجيل الأحداث التاريخية :**

كان من منهج سيدي علي الرئيس في كتابه "مرآة الممالك"، التزامه بتسجيل الأحداث التاريخية التي حدثت في الأماكن التي زارها، وهي هامة -بالرغم من صغر المادة المدونة-؛ لأنه أعطى انطباعاً عن مجريات الأحداث في تلك الأماكن التي قلما نجد مؤرخ عثماني أرخ لها؛ بل إنه كان في بعض الأحيان يرى نفسه جزءً من هذا التاريخ، ويلزم عليه المشاركة فيه، ومن ذلك: "وعندما جلس السلطان الجديد على العرش ووزع منحة جلوسه، لم يرضَ الخان الكبير المعروف باسم "ناصر الملك" بسلطنته، وأدعى السلطنة لنفسه، وجمع الرجال حوله

(١) مرآة الممالك، ص ٨٨.

، وأخذ قلعة بروج ووضع بها الجند، وأرسل رسالة مع بعض رجاله إلى قائد قوات كوريا قال له فيها: "إذا ما ساعدتمونا ستكون دامان وبوروج وسومنات ومانجلور وفرميان لكم وتكون قرصى لي"، فتحرك السلطان أحمد أيضاً بجيشه إلى بروج"[١].

**تسجيله للمقابلات التي قام بها :**

ومن ذلك مقابلته للسلطان أحمد سلطان الكجرات ووزيره عماد الملك عندما وصل مدينة أحمد آباد عاصمة الكجرات، يقول: "وتقابلنا مع السلطان ووزيره عماد الملك ومع الخانات الأخر، وقدمنا هديتنا المتواضعة للسلطان أحمد، وكنا مظهرا لإحسانه وكرمه"[٢].

---

(١) مرآة الممالك، ص ٥٠.

(٢) مرآة الممالك، ص ٥٥.

ومن ذلك أيضاً مقابلاته مع السلطان حسين ميرزا سلطان بلاد السند، وعندما تلقى الأخبار بقدومنا إلى هناك أرسل لنا رجلاً من عنده، واستقبلنا بالاحترام والرعاية، التقينا به في بدايات شهر ربيع الآخر، وعندما قدمنا بعض هدايانا المتواضعة أكرموا هذا العاجز وأحسنوا إليه وقدموا له الخلع المختلفة، وجعلوا اسمنا جيش الغيب"(١).

ومن ذلك أيضاً مقابلته للسلطان محمود ميرزا ووزيره الملا ياري، وتقابلنا هناك مع السلطان محمود والوزير الملا ياري وزير المرحوم الميرزا، قدمنا الهدايا إلى السلطان وتحدثنا معه، وأخبرنا بأنه سيقرأ الخطبة باسم السلطان همايون"(٢).

---

(١) مرآة الممالك، ص ٥٩.

(٢) مرآة الممالك، ص ٦٣.

**تصويره للظواهر الجغرافية البحرية:**

أسهب سيدي علي الرئيس القول، وخاصة في بداية الكتاب أي القسم الذي كانت الرحلة فيه بالسفينة في ذكر الظواهر الجغرافية البحرية، فهو عالم بأمور وعلوم البحر؛ لذا رصد تقريباً كل الظواهر الجغرافية البحرية في خليج البصرة والمحيط الهندي، ومن ذلك حديثه عن طوفان الفيل، والدوامات البحرية، يقول في ذلك: "وقد عبرنا رأس الخط تقريباً ووصلنا بالقرب من سواحل ظفار وشحر، وبعد غروب شمس هذا اليوم هبت عاصفة مشهورة باسم "طوفان الفيل"، ولم نتمكن من فرد الأشرعة في السفن؛ لأن الرياح لم تكن مواتية تماماً، والعاصفة شديدة حتى أن العواصف التي تهب في البحر الأبيض لا تمثل شيئاً بجوار تلك العاصفة، فقد كانت الأمواج التي تشبه سلاسل الجبال أعلى أضعاف وأضعاف من تلك الموجودة في البحر الأبيض، ومن شدة اضطراب الطقس لم نستطِع التمييز بين الليل والنهار"[١].

---

(١) مرآة الممالك، ص ٤٣.

كما تحدث عن الدوامات البحرية، يقول في ذلك: "بدأ لون البحر يبيض، وصاح المرشدون الذين معنا، وهذا إشارة منهم إلى أننا سنقابل دوامة بحرية، وتحدث هذه الدوامة في هذا البحر في موضعين الأول في جواردا فول على سواحل الحبشة، والثاني في خليج جكيد بالقرب من السند، ومحرر في كتب الجغرافيا أن السفن التي تعلق بها لا تنجو منها، فقمنا بقياس عمق المكان الموجودين فيه فوجدناه خمسة باعات، وعلى الفور ربطنا الشراع الأوسط وسرنا عكس اتجاه الريح"(١).

كان سيدي علي الرئيس يرى أن الوقوف التام بعلوم البحار والخبرة فيها، من الأمور الهامة التي يجب أن تكون موجودة فيمن سيتولى رئاسة القيادة البحرية، فبعد أن ذكر سيدي علي في مقدمة كتابه "المرآة" علمه وخبرته بعلوم البحر، جعلها سبباً في توليه قيادة الأسطول المصري، يقول في ذلك: " فإذا وضعنا كل هذا نصب أعيننا فقد أهديت إلى الفقير خدمة قبطان مصر في أواخر ذي الحجة من عام ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م باعتبار أنني رجل عارف بعلم البحر"(٢).

---

(١) مرآة الممالك، ص ٤٤.

(٢) مرآة الممالك، ص ٣٤.

**تصويره للمعارك :**

من الأشياء التي أسهب سيدي علي القول فيها في الكتاب وصفه للمعارك التي دارت بينه وبين الكفار – البرتغاليين - ، يقول في ذلك: "وفجأة وفي وقت الضحوة الكبرى قابلنا خمس وعشرين سفينة من سفن الكفار – البرتغال- عبارة عن أربع قطع بحرية كبيرة، وثلاث قاليونات كبيرة، وست قطع من القاريوله البرتغالية، وهي أصغر قليلاً من القاليون، واثنتي عشرة قطعة (غراب) أي قاليته، وهجموا علينا، فقمنا على الفور بدورنا، وشرعنا الأشرعة، ورفعنا الحدائد. وجهزنا أسلحتنا، وتوكلنا على الله، وتوسلنا بهمة الأنبياء العظام والأولياء الكرام، وقوينا الأعمدة، ورفعنا الألوية. ولما أتممنا استعداداتنا، ودعونا الدعاء المحمدي بدأنا الحرب على الفور.

وكانت حرب بالمدافع والبنادق يعجز اللسان عن وصفها، وفي النهاية قذفنا بالمدفع واحدة من قاليونات البرتغال، فجنحت بعون الله إلى جزيرة فك الأسد، لكن لم يمكن إنقاذها وغرقت بمن فيها. ودارت الحرب بيننا ضروساً حتى وقت العشاء"(١).

---

(١) مرآة الممالك، ص ٣٩.

وفي موضع آخر يصور المعركة الثانية التي دارت بينه وبين البرتغاليين، فيقول: "ولما وصلنا قبالة قلعة مسقط وقلهان في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك -أي في ليلة القدر- هجم علينا العدو فجأة من ميناء مسقط بأربع وثلاثين سفينة عبارة عن اثنتي عشرة قطعة كبيرة، واثنين وعشرين قطعة من نوع الغراب؛ كلها مجهزة، وبها ما لا يحصى عدداً من الجند، وهجموا علينا.

أخذنا وضع الاستعداد للقتال على الشاطئ، ووصلت القطع البحرية، والتحمت القادرغات، ودارت حرب ضروس بالمدافع، والبنادق، والسيف، والسهم، فكانت معركة يعجز اللسان عن وصفها، وانفتحت في السفن المقاتلة ثغرات بحجم النوافذ، واحترقت واحدة من سفننا القادرغة بقذيفة مدفع، وانسحبت خمس قطع، وخمس قادرغات إلى البر، وغرقت كلها، والحاصل أنه وقعت الخسارة في الجانبين، وانقطعت قوة جماعة التجديف، ولم تعد لديهم القدرة على سحب المجداف،

أو إطلاق المدافع، واقتضت الضرورة إلقاء الهلب، وأخذ الحديد إلى مؤخرة السفن، وهذا كله مع استمرار الحرب، وأنزلت الصنادل إلى البحر لإنقاذ من يمكن إنقاذه"[١].

**إجلاله للمقدسات:**

الواضح من منهج سيدي علي الرئيس أنه كان يجل المقدسات، ويكن لها كل احترام، ويتضح هذا جليًا من خلال زيارته للمشايخ والأولياء والصالحين؛ سواء كانوا أحياء أم أموات، فكان من منهجه أن أول ما يصل إلى المكان يقوم بزيارة الأولياء والصالحين الموجودين به، ومن ذلك ما أورده في حديثه عند دخوله لبلاد الهند " في بادئ الأمر قمنا بزيارة أضرحة المشايخ الموجودة في ملتان، وهم: الشيخ بهاء الدين زكريا، والشيخ ركن الدين، والشيخ صدر الدين -رحمهم الله جميعا- وتقابلنا بالشيخ محمد راجو ودعا لنا بالخير[٢].

---

(١) مرآة الممالك، ص ٤٠.

(٢) مرآة الممالك، ص ٦٦.

كما أورد ذلك في حديثه عن زيارته لبلاد ما وراء النهر، يقول: "كما زرنا أضرحة المشايخ والعلماء، ومنهم: ضريح صاحب الهداية أبو منصور الماتريدي، وشاه زندا، والشيخ عبيد الله الأحرار خوجه عبدي دروان، وقاضي زاده الرومي، وقبور علماء ما وراء النهر؛ أي أننا قمنا بزيارة ٤٤٤٠ ضريح"(١).

**اهتمامه بذكر الطرائف والغرائب التي رآها :**

ولاشك في ذلك فقد زار سيدي علي رئيس مناطق مشهورة في كتب الرحلات بعجائبها وغرائبها، ومن ذلك ما أورده في حديثه عن الحكم الغريبة التي شاهدها في البحرين عندما ذهب إليها يقول: "وللبحرين حكمة غريبة، فالبحارة يغوصون في البحر إلى عمق ثمان أذرع أو يزيد، وفي أيديهم القرب، ويملئونها بالماء العزب، ويأتون به إلى مراد رئيس حاكم البحرين، ويكون هذا الماء في فصل الصيف أكثر برودة من سائر المياه، وقد استساغ مراد رئيس هذا الماء فداوم على شربه"(٢).

---

(١) مرآة الممالك، ص ٩٠.

(٢) مرآة الممالك، ص ٣٨.

كما ذكر عجيبة أخرى رآها وهو في طريقه إلى أحمد آباد يقول: "واصلنا مسيرنا صوب جامبانور، ورأينا الأشجار العجيبة في الطريق، على سبيل المثال تلك الأشجار التي تصل قمتها إلى عنان السماء، وبين كل غصن من أغصانها مسافة ١٤ إصبع، على كل شجرة منها عدد لا حصر له من الوطاويط –الخفافيش-، تنحدر أفرع هذه الأشجار من أعلى إلى أسفل، وتنبت شجرة جديدة في المكان الذي تنزل فيه، وعلى هذا يمكن أن تتكون من شجرة واحدة عشرة أو عشرين شجرة، أو حتى أكثر من ذلك"(١).

وفي حديثه عن الغرائب الموجودة في بلاد الهند أيضًا ذكر ما يلي: "يوجد هنا غزلان مدربة يضعون عند قرونها حبال، وعندما تسير تلك الغزلان المدربة بجوار الغزلان البرية تقوم بإمرار الحبل إلى قرون الغزلان البرية، وتوقع بها على الأرض، وكلما تحرك الغزال البري شُد عليه الحبل بإحكام، وبذلك يكون الإمساك به سهلاً"(٢).

---

(١) مرآة الممالك، ص ٥٤.

(٢) مرآة الممالك، ص ٨٢.

**ذكره الرؤى لإيمانه بها:**

كثيرا ما كان سيدي علي الرئيس يذكر الرؤى الإيمانية التي كان يراها في المنام لإيمانه بها، ومن ذلك: "وفي أحد الأيام رأيت الإمام على كرم الله وجهه في المنام، وكان أمامي قطعة من الورق مكتوبة، فقال لي: هذه رحمة الله معك، فلا تخف، وفي الصباح قصصت تلك الرؤيا على رفقائي فشكروا الله جميعاً "[1].

ومن ذلك أيضاً: "وحدث ذات ليلة أن رأيت في الرؤيا أن سيفي انكسر، وقد رُوي أن الشيخ محي الدين بن عربي قدس سره رأى أن سيف النبي انكسر في إحدى المعارك، فقال: إن الصحابة انهزموا، وقد جالت هذه الواقعة بخاطري، واستولى الخوف عليّ، ودعوت الرسول، فلاح بقلبي أن جند الإسلام هم المنصورون، واستيقظت وأنا أهم بالدعاء، ولم أقص تلك الواقعة على أحد، وإن شغلت بها لفترة طويلة "[2].

---

(١) مرآة الممالك، ص ٥٦.

(٢) مرآة الممالك، ص ٣٦.

**تعليلاته الدينية الإيمانية :**

ومن ذلك:"وبقدر ما أحزنتني هذه الواقعة؛ إلا أنني رأيت فيها تفسيراً لرؤياي التي ذكرتها. واتضح أن التدبير لا يغير التقدير"(1). ومن ذلك أيضاً: "تشاورت مع الأصدقاء وقلت لننتهي من الخراج مذكراً إياهم بالحكمة "من يقنع يشبع ومن يطمع يسقط على عقبيه"(2).

ومن ذلك أيضاً: "وعندما وصلنا إلى الرباط ضرب أحد الظالمين بسهم من الرباط فأصابني (ساعة القضا يعمى البصر)"(3).

ومن ذلك أيضاً: "وعندما قال بعض أمراء الشاه لنحضر الكتب التي أخذها إبراهيم ميرزا في مدينة مشهد، ونعطيها للشاه؛ لأنها معه ستكون في أمان قلت (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها، وما حدث قد حدث)"(4).

---

(١) مرآة الممالك، ص ٣٦.

(٢) مرآة الممالك، ص ٨٤.

(٣) مرآة الممالك، ص ٩٢.

(٤) مرآة الممالك، ص ١١٩.

**استخدامه مسميات أخرى لبعض المدن :**

ومن ذلك: "فبلغنا عزو أي كربلاء"[1]. "وفي اليوم التالي ذهبنا إلى حائزة أي النجف"[2].

"وعرجنا على جزيرة قيس أي هرمز"[3]. "من هجر أي الإحساء"[4]. "وعدداً من جزر البحر الأخضر أي بحر هرمز"[5].

---

(١) مرآة الممالك، ص ٣٢.
(٢) مرآة الممالك، ص ٣٥.
(٣) مرآة الممالك، ص ٣٨.
(٤) مرآة الممالك، ص ٣٧.
(٥) مرآة الممالك، ص ٣٨.

**اهتمامه بزيارة الأولياء والصالحين:**

كان المجتمع العثماني مجتمعًا متدينًا، يعطي للأولياء والصالحين اهتمامًا ملحوظًا. وسيدي علي الرئيس فرد من أفراد هذا المجتمع يجل العلماء والأئمة والصالحين، ويظهر هذا في منهج سيدي علي الرئيس في مرآة الممالك، فيذكر الأولياء والصالحين كثيرًا ومن أقواله في هذا:

"توجهنا إلى سيدي غازي وزرنا قبره "[١].

"ولدى وصولنا إلى قونية قمنا بزيارة مولانا الرومي وسلطان العلماء وشمس التبريزي وصدر الدين القونوي"[٢].

"ووصلنا من تكريت إلى سامراء، ورزنا الإمام على الهادي، والإمام حسن العسكري، والإمام موسى الكاظم، ومحمد التقي، وبرهان الدين المحققي"[٣].

---

(١) مرآة الممالك، ص ٣١.

(٢) مرآة الممالك، ص ٣١.

(٣) مرآة الممالك، ص ٣٤.

ومن الأمور التي اعتاد سيدي علي رئيس عليها في زيارته لكل مكان، فكان يحرص على زيارة الأولياء والصالحين والمتصوفة، ولعل السبب في هذا نزعته الصوفية التي كانت واضحة كل الوضوح في أشعاره خاصة، ومن أمثلة زيارته للمتصوفة عندما ذهب إلى بغداد "والشيخ عبد القادر الجيلاني، وجنيد البغدادي، ومعروف الكرخي، والشيخ شبلي، وسري السقطي، وحلاج المنصور، وبشر الحافي، وجومرد القصاب، وبهلول ديوانه، وفضيل بن عياض"(١).

**ترجمته لنفسه:**

من المفيد أن سيدي علي الرئيس ترجم لحياته، وذكر خدماته في قوله:

"أنا سيدي علي ابن الفقير حسين، شغوفاً بالبحر منذ زمن قديم، فدرست البحرية، ورضيت روحي وقلبي عندما أتممت التحصيل (العلمي)، وكنت برفقه مولانا السلطان صاحب السعادة -يقصد السلطان العثماني- عند فتحه جزيرة رودس. ومنذ ذلك الوقت

---

(١) مرآة الممالك، ص ٣٤.

وإلى اليوم اشتركت في كل الحروب التي جرت في البحر الأبيض، وفي فتح كل القلاع، واشتركت في خدمات كثيرة مع المرحوم والمغفور له خير الدين رئيس، وسنان رئيس، وسائر رؤساء البحر الآخرين. وتجولت في كل زاوية وركن في البحر الأبيض، وطورت علمي ودوّنت، وعلمت كل العلوم في هذا الشأن، وألفت كتاباً في علم الهيئة، وفن الحكمة، وفي موضوعات أخرى تتعلق بالبحرية ومواقع النجوم"[١].

كما لم يهمل سيدي علي الرئيس تقديره لذاته، بعد أن أوضح أنه على دراية بعلوم البحار، وأن خبرته هذه لم تأتِ من فراغ؛ بل تعلم وطور علمه بالتجارب، وأن هذا كله كان سبباً في تعيينه قبطاناً على مصر، وأشار إلى ذلك في قوله: "فإذا وضعنا كل هذا -يقصد التجارب والخبرة والتعلم- نصب أعيننا، فقد أهديت إلى هذا الفقير خدمة قبطان مصر في أواخر ذي الحجة من عام ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م باعتبار أنني رجل عارف بعلم البحر"[٢].

---

(١) مرآة الممالك، ص ٣٣.

(٢) مرآة الممالك، ص ٣٤.

**ذكره للعادات الاجتماعية:**

أهتم سيدي علي رئيس بتسجيل كل ما رآه غريبا عليه من عادات وتقاليد الشعوب في المناطق التي مر بها أثناء رحلته من الهند إلى استانبول، فيذكر أن الكجرات يطلقون على كفار تلك المنطقة (بانيان)، ويطلق الهنود عليهم اسم (هندوس)، وهؤلاء ليس لهم كتاب، ويقولون بقدم العالم. وعندما يتوفى أحدهم يُحمل على ظهر صاحبه، ويضعه على ضفاف الماء ويشعل فيه النار، ولو مات الرجل وترك خلفه أنثى، وكان عجوزاً لا يحرقون هذا الميت، ولكن إذا طلبت الزوجة ذلك يفعلون. ولو أُحرقت المرأة بطلبها تقام لذلك الاحتفالات بين قومها. وهذه أيضاً إحدى العادات الغريبة الموجودة هناك[١].

---

(١) مرآة الممالك، ص ٥٨.

# القســم الثانــي

# الترجمة العربية لكتاب مرآة الممالك

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد والثناء الذي لا يحصى لواجب الوجود واهب الخير والجود، وخالق كل الوجود من العدم، الذي أغرقنا في بحر نعمه وكرمه، صاحب الكمال، القادر ذو الجلال جل جلاله وعم نواله.

خلق الله العالم ومنحه الشرف وشرف هذا العالم بآدم

أيها القلب ارتحل وابحث عن الحق وكن ملاحا في بحر العلم

والتحيات الطيبات والتسليمات الذكيات على سرور الكائنات وفخر الموجودات، الذي خلق الله كل المخلوقات على شرف محبته، شفيع المذنبين ورحمة الله للعالمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أغرقتنا نفوسنا في المعاصي فاشفع لنا يا رسول الله ليرحمنا الله

عاملنا بالإحسان يوم الحشر لتكن وجوهنا بيضاء لا سوداء

# في مدح السلطان مؤسس الدين:

إن الدعاء لحضرة سلطان الإسلام لازما وهاما بل هو واجب وألزم على كل مؤمن. وخاصة الدعاء لسلطان السلاطين، وخاقان الأرض والعصر، صاحب الهيبة والشوكة والعدل، الكريم بجوده، المقدام، الغازي، خاقان البر والبحر، صاحب القوة والشرف السلطان سليمان خان(١) ابن السلطان سليم خان أطال الله في عمره، وأيد سلطنته إلى غاية الزمان والدوران آمين بحرمة الروح الأمين.

إلهي إن دعائي لك أن تجعل شهر وعام سلطاننا في سعادة

فإن خاقان الصين سفيره ويطيعه سلطان الهند والسند

---

(١) سليمان الأول الملقب بالقانوني: هو سليمان بن سليم الأول، ولد في ٢٧/ابريل/١٤٩٥م، والدته هي السيدة حفصة خاتون، انتقل وهو في السابعة من عمره إلي استانبول لتلقي العلم، فدرس علي يد قره قيز اوغلو خير الدين خضر أفندي التاريخ–الفنون الأدب والعلوم الدينية، جلس علي العرش العثماني في ٣٠/سبتمبر/١٥٢٠م. خاض أول حملة كبرى يقوم بها في ١٨/مايو/١٥٢١، وكانت ضد بلجراد، استطاع أن يفتح بلدان كثيرة للدولة العثمانية في أوربا وأفريقيا وآسيا، بلغت الدولة العثمانية في عهده أوج قوتها، وكان آخر فتح يقوم به هو فتح قلعة زيجواتور في ٦/سبتمبر/١٥٦٦م، توفي القانوني في سبتمبر/١٥٦٦م انظر:
Yavuz Bahadiroğlu, Osmanlı Padişahları Ansiklopdisi, c. ١, Yeni Asya Yayı, Istanbul ١٩٨٦, s. ١٩٠ -١٩١ .

## سبب تأليف الكتاب:

سبب تأليف الكتاب على ما يلي: لقد توجه سلطاننا صاحب السعادة مؤسس العالم -أعز الله أنصاره- إلى حملة الشرق، وعندما عسكر في حلب المحمية بالسعادة، أنعم على الفقير بقيادة الأسطول المصري، وصدر الفرمان بإرجاع الموجود من سفن الأسطول المرسل من قبل من ولاية مصر إلى البصرة إلى مصر مرة أخرى، وبموجب الفرمان العالي توجهت إلى البصرة المحروسة، وعزمت على العودة بالخمسة عشر قدرغة الموجودة إلى ولاية مصر عبر بحر هرمز، ولكن لم يكن تدبيرنا هذا موافقا لما هو مقدر لنا (العبد يدبر والله يقدر)، ولم يتيسر لنا الوصول إلى مصر، واضطررنا للذهاب إلى ولاية الهند، ولم يكن ممكنا الذهاب بالطريق البحري،

فخرجت مع مجموعة من البحارة المصريين الذين أكلوا من طعام حضرة السلطان، ويعرفون حق نعمته إلى الطريق قاصدين الدولة العثمانية عبر الطريق البري. وقد مررنا في طريقنا هذا بولاية الكجرات، والهند، والسند، وبختر زمين؛ أي زابلستان[١]، وديار بدخشان، وختلان وتوران، وإيران أي بلاد ما وراء النهر وخراسان[٢]، وولاية خوارزم وصحراء القبجاق. ولم نتمكن من إيجاد طريق في هذه النواحي، وفي النهاية وصلنا بغداد المحروسة عبر طريق مشهد خراسان – العراقين أي من قزوين وهمدان، وعندما خرجنا من بغداد بعد أن أمّنا سلامة الطريق، أتى إليّ رفقائي في الطريق المخلصين سليمي السريرة وقالوا لي: من يشرح رحلتنا هذه في الصحاري والجبال بعد أن نجونا من تلك المشقة والمحن،

---

(١) زابلستان وصفها ياقوت الحموي بأنها كورة واسعة قائمة برأسها جنوبي بلخ وطخارستان، وهي زابل والعجم يزيدون السين وما بعدها في أسماء البلدان تشبيهاً بالنسبة، وهي منسوبة إلى زابل جد رستم بن دستان. وهي البلاد التي قصبتها غزنة. انظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧م، ج ٣، ص ١٢٥.

(٢) خراسان بلاد واسعة أول حدودها ما يلي العراق، وآخر حدودها ما يلي الهند وغزنة وسجستان وكرمان، وتشتمل على أمهات من البلاد منها: نيسابور، وهراة، ومرو، وبلخ، وطالقان، وسرخس، فتحت في عهد عمر بن الخطاب عام ١٨هـ على يد الأحنف بن قيس، يقول البلازوري عنها: خراسان أربعة أرباع؛ فالربع الأول: إيران شهر، وهي نيسابور، وقهستان وهراة، والربع الثاني: مرو، ولهشجان، وسرخس، ونيسا، ومرو وخوارزم، والثالث: فرياب، وطخارستان، وباميان، ونبلان، والرابع: ما وراء النهر. انظر: ياقوت الحموي، مرجع سابق، ج٢، ص ٣٥٠-٣٥١.

ويقول: إن تلك الرحلة أصعب من رحلة جدة ومكة فلن يبالغ. فلو كانت مياه المحيط الهندي الهائجة مداداً، وغابات السند ومثلها ألف مرة أقلاماً لشرح المعاناة والضيق الذي لاقيناه في تلك الرحلة، فلن تكون واحد في الألف من الشكل الحقيقي للمعاناة التي عانيناها، ولو يأتي ألف محاسب فلن يستطيع أن يشرح أو يكتب عُشر ما قابلناه من الخوف من المخاطر. وكانت لدينا الرغبة في كتابة كتاب يشرح المدن التي رأيناها والعجائب والغرائب التي شاهدناها، والمزارات الشريفة التي زرناها، والآلام والمحن التي تعرضنا لها، وقد أقدمنا على كتابته بمقتضى مقولة: (الإبرام يحصل المرام).

ولم نعمد فيه إلى التصنع المقصود، كما أننا لم نراعِ السجع، فكتبناه بلغة الحديث اليومية حتى يستطيع أي شخص أن يطلع عليه. وبوصولنا إلى وطننا المألوف أي دار السلطنة استانبول المحروسة انتهت رحلة ألآمنا المريرة. وكنا سنسميه محنت نامه "رسالة المحنة"؛ نظراً لما فيه من الشدائد والآلام، ولكننا أسميناه "مرآة الممالك"؛ لأنه يتناول بالشرح أحوال كل الولايات والمدن التي تجولنا بها، وإذ أنني آمل من أصدقائي عندما ألتقي بهم أن يتذكروا هذا العاجز الذي تحير في وادي الهجران، وأنّ بالآهات في ديار الغربة بالدعاء له بالخير.

لو يريد أي شخص أن يترك له اسم في الدنيا فليتذكروه بهذا الاسم بالخير

وبغيتي من شرح رحلتي هذه أن يتذكروني بالدعاء بالخير

# مدخل ملحمة مرآة الممالك

في منتصف شهر رمضان من عام ٩٦٠هـ[١] خرج مولانا السلطان ملجأ العالم[٢] بجيش عظيم إلى حملة الشرق. واتجه ناحية حلب ليقيم معسكره هناك، وكلف هذا العاجز بمهمة في هذه الحملة الهمايونية، فاتخذنا سبيلنا بهذا الجيش المبشر بالظفر، وأدركنا وسلطاننا صاحب السعادة، عيد الفطر المبارك في يكى شهر. ومن هناك توجهنا إلى سيدي غازي وزرنا قبره.

وعندما وصلنا قونية، زرنا مولانا الرومي سلطان العلماء، وشمس التبريزي، والشيخ صدر الدين القنوي. وعندما وصلنا قيصرى زرنا كذلك الشيخ أوحد الدين الكرماني، والشيخ برهان الدين محققي، وداود القيصري. ومن هناك وصلنا إلى حلب، وزرنا أنبياء الله؛ النبي داود، وزكريا، وبلقيا عليهم السلام، وقبور سعد الأنصاري، وسعيد الأنصاري والصالحين. وأمضينا هناك عيد الأضحى المبارك مع حضرة السلطان.

---

(١) الموافق ١٥٥٣م.

(٢) يقصد السلطان سليمان القانوني.

وقبل ذلك كان الرئيس[١] بيري[٢] قبطان مصر قد خرج من ميناء السويس

---

(١) رئيس: لقب كان يُمنح لأمراء البحرية حتى القرن السابع عشر. وحل لقب القبطان محله من بعد القرن السابع عشر. انظر:

.M. Sertoğlu,Osmanlı Tarih Luağtı, ٢. Baskı, Istanbul ١٩٨٦, s, ٢٨٣

(٢) ولد بيري رئيس في غاليبولى في تركيا عام ١٤٦٥م وأعدم في القاهرة عام ١٥٥٤م. اشترك في الحروب الطويلة التي دارت بين العثمانيين والبنادقة من عام ١٤٩٨م حتى عام ١٥٠٢م، كما اشترك مع عمه الرئيس كمال في حركة نصرة مسلمي الأندلس عام ١٤٨٧م، وكان له دور كبير في الاستيلاء على بعض الموانى والإغارة على سواحل جنوب فرنسا، وسردينيا، وكورسيكا. وقد شارك الرئيس بيري في الحملات التي قام بها السلطان سليم الأول على مصر والشام، وقد رسم خريطة لمصب نهر النيل. انظر: محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مركز بحوث العالم التركي، القاهرة، ص ٢٧٠ ٢٧٧.

ومعه ثلاثين سفينة من نوع الباشترده[١] والقدرغه[٢] والقالته[٣] والقليون[٤]، قاصداً جدة عبر البحر الأحمر، ومن هناك وصل إلى اليمن، وخرج من مضيق باب المندب، ومن قبالة عدن اجتاز رأس الحد عبر طريق شحر وظفار. وكان الطريق مليء بالسحاب والضباب؛ لذا تفرقت السفن عن بعضها البعض،

---

(١) الباشترده كانت أكبر من سفن القدرغه؛ حيث يبلغ طولها ٥٧ ٧٢ ذراع، بها ٢٦-٣٦ مقعداً؛ يسحب كل مجداف بها ٥-٧ أشخاص، كانت تلك السفن مخصصة لأمين الترسانة، أو كتخدا الترسانة. أما أكبر باشترده في الأسطول -٧٠ ذراعاً-، فكانت مخصصة للباشا القبطان، وكان يوجد بها بين كل مجداف وآخر ٣ محاربين، وبالباشترده الواحدة ٥٠٠ جندي، ٢١٦ مجداف. انظر :

.Edip Bostan, Gemi maddesi, T. D. Vakfı. Islam Ansik, c. ١٤, ist ١٩٩٦, s. ١٢

(٢) القدرغه هي السفينة الأكثر استخداماً في الأسطول العثماني منذ تأسيسه حتى القرن السابع عشر، كانت طويلة للغاية؛ حيث يبلغ طولها ٥٥ ٥٦ ذراعاً، ومنخفضة بدرجة يمكن القول بأنها كانت تستوي مع سطح البحر، كان بها ٢٥ مقعداً، و ٤٩ مجدافاً يسحب كل مجداف منها ٤-٥ أشخاص. كان بها ١٠٠ محارباً، ١٩٦ مجدافاً، وعامل للشراع، واثنان لإصلاح المجاديف، و٣ أشرعة، وظلتين، ٥ هلب زنة الواحد ٦٥ كجم. انظر:

Vakfı. Islam Ansik, a, g, m, s. ١٢ -١٣ .

(٣) القاليته يتراوح طول هذه السفينة ما بين ٤٢-٤٨ ذراعا (٣٢-٣٦م) وبها ١٩-٢٤ مقعداً، وهي من القطع الخفيفة، كانت تستوعب ٢٤٠ جندياً. انظر:

T. D. Vakfı. Islam Ansik, a, g, m, s. ١٢ .

(٤) كان اسم القليون يطلق على كل السفن الشراعية بشكل عام، إلا أنه بمرور الوقت أصبح الاسم خاصاً بالسفن ذات الصواري الثلاث الكبرى، كانت تستخدم للنقل عموماً من القرن الخامس عشر، وحتى القرن التاسع عشر، هذا إلى جانب اشتراكها في المعارك البحرية. وقد دخلت أول سفينة قليون كبيرة الأسطول العثماني في عهد بايزيد الثاني على يد كمال رئيس، وكانت تزن ٢٥٠٠ طن. انظر:

T. D. Vakfı. Islam Ansik, a, g, m, s. ١٢ .

وتحطم قسم منها بالقرب من شحر. وأمكن إنقاذ القسم الآخر. وفتح قلعة مسقط جنوب عمان، وأسر أهلها، وهجم على جزر هرمز وبرخت، وعندما وصل إلى ميناء البصرة علم أن أسطول الكفار[1] في الطريق إليه، ولما قال قبطان العدو الذي تم أسره في قلعة مسقط من قبل: "إن مجيء الأسطول أمر مؤكد، ويجب عدم الانتظار هنا، وإلا فلن تتمكنوا من الخروج"، ولم يكن ممكنًا في تلك الأثناء إخراج كل الأسطول، فأخذ الرئيس بيري السفن الثلاثة التي تخصه، وهي من نوع القدرغه، وخرج بها من الميناء قبل مجيء العدو. وبالقرب من البحرين تحطمت إحداها، ووصل بالاثنتين الباقيتين إلى مصر. وظلت بقية السفن في البصرة.

(١) يقصد أسطول البرتغاليين.

وأسند قباد باشا[١] قيادة البحر إلى على بك قومندان الجند وأحد أمراء سنجق مصر. لكنه رفض وهرب إلى مصر عن طريق البر. ودمرت سفنه. ولما علمت استانبول بهذا الموقف أسندت قيادة البحر إلى مراد بك المعزول من سنجق القطيف، والموجود في مدينة البصرة. وصدر الأمر بإبقاء قطعتين من السفن وخمس من القدرغه، وقاليته واحدة في ميناء البصرة. كما احترقت قدرغه في ميناء البصرة أيضاً. أما بقية السفن وهي خمس عشرة قدرغه، وقطعتان قاليته، فقد غادر بها مراد بك البصرة بأمل الوصول بها إلى مصر. ولما وصل قبالة هرمز تقابل مع أسطول العدو، ودارت بينهم حرب كبيرة. استشهد فيها الرئيس سليمان رئيس القباطنة، والرئيس رجب، وعدد كبير من الجنود. وحدثت أضرار جسيمة في السفن بسبب القذائف المدفعية. ونهاية الأمر حل المساء وكان ذلك نجاة لهم. حيث انسحب ما بقى من السفن إلى ضفة (لار) الإيرانية،

(١) باشا: لقب كان يستخدم في الدولة العثمانية، يٍمنح للأمراء ورجال الدولة ذوي المناصب العليا؛ سواء في الناحية الإدارية أو العسكرية، كما كان يمنح للوزراء والولاة، وفي عهد السلطان محمد الفاتح كان يُمنح للعلماء ذوي المراتب العلمية العليا، ومن بداية القرن السادس عشر أصبح يمنح لأمراء السناجق. انظر: het Sertoğlu, A. g. e, s. ٢٧٧.

ونجا بعض الأشخاص، وأُسر بعضهم. واستولى العدو على قطعة بحرية. فرجع مرة أخرى إلى البصرة بما تبقى معه من سفن، ولما عُرض على السلطان أنه من غير الممكن العودة إلى الوطن، أسندت إلينا أنا العاجز مهمة رئاسة البحر.

وكنت أنا العاجز كاتبي الرومي عبد السلطان والداعي له أعني سيدي علي ابن الفقير حسين شغوفاً بالبحر منذ زمن قديم، فدرست البحرية، ورضيت روحي وقلبي لما أتممت التحصيل.

وكنت برفقة مولانا السلطان صاحب السعادة لدى فتح رودس(١).

---

(١) كانت أولى أعمال السلطان سليمان البحرية الحربية هي فتح جزيرة رودس، فقد كانت تلك الجزيرة الواقعة في الجانب الشرقي للبحر الأبيض المتوسط معقل لفرسان القديس يوحنا الثاني؛ الذين ما برحوا منذ أيام الحروب الصليبية خطراً يهدد المسلمين في الشرق بشكل عام والسيادة العثمانية بشكل خاص؛ لأنهم كانوا يساعدون القراصنة المسيحيين، ويقطعون طريق الحجاج المسلمين إلى الحجاز، فضلاً عن قيامهم بقطع خطوط المواصلات البحرية العثمانية، وتهديد الطرق الواصلة بين استانبول ورودس، والقيام بأعمال سلب ونهب للسفن التجارية الإسلامية، فقرر السلطان سليمان وضع حد لتلك التجاوزات، فضم جزيرة رودس لتكون حلقة اتصال بين استانبول ومصر من جهة البحر، وحتى لا يكون للمسيحيين مركز حصين في وسط بلاده تلجأ إليه أساطيل الدول المعادية وقت الحرب، وانتهز السلطان ظروف انشغال أوربا بمشاكلها وحروبها الداخلية، وأهمها الحرب بين شارل الخامس وفرانسوا الأول.

في البداية أرسل السلطان سليمان إلى قائد هؤلاء الفرسان في الجزيرة رسالة يدعوه فيها إلى تسليم قلعة الجزيرة، ويتعهد له باحترام الحرية الدينية لأهالي الجزيرة، والحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم، إلا أن القائد رفض العرض.

والجدير بالذكر أن ثمة محاولات سابقة جرت لفتح تلك الجزيرة من قبل السلطان محمد الفاتح، ولكنها باءت بالفشل لقوة تحصيناتها.

وقد درس السلطان سليمان أسباب فشل المحاولات السابقة، وشن هجوماً بحرياً بقوة تبلغ ٣٠٠ سفينة حربية، ونحو ١٠٠ ألف جندي، وحاصرها في يوليو ١٥٢٢م، ورغم الصعوبات التي واجهها الأسطول العثماني، واستمات أهلها في الدفاع عنها، وما أنزلوه من خسائر فادحة بالأسطول العثماني في الأرواح؛ إلا أنها استسلمت في نهاية الأمر، بعد حصار دام أربعة أشهر واثنين وعشرين يوماً، واستشهد من الجيش العثماني ما يقرب من ٢٠ ألف جندي بسبب شراسة المقاومة. وفي ٢١/ديسمبر عام ١٥٢٢م وقعت اتفاقية بين الجانبين، = تقرر بمقتضاها منح الفرسان مهلة قدرها اثنا عشر يوما للانسحاب من الجزيرة، وأن يقدم لهم السلطان سفناً لنقلهم إلى جزيرة مالطة، وأن تحترم السلطات العثمانية الحرية الدينية للسكان، وتحافظ على كنائسهم، وهكذا زال من شرق البحر المتوسط خطر تلك الدول، وصارت هذه المنطقة البحرية آمنة. انظر: أندري كلو، سليمان القانوني، تعريب البشير بن سلامة، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١ ص ٨٩؛ محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار النفائس، بيروت ص ٢٠٥؛ يلماظ أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان سليمان، استانبول ١٩٨٨، ط ١ ، ص ٢٦٢-٢٦٤.

ومنذ ذلك اليوم اشتركت في كل الحروب التي جرت في البحر الأبيض وفي فتح كل القلاع

واشتركت في خدمات كثيرة مع المرحوم والمغفور له خير الدين[1] رئيس وسنان رئيس

---

(١) يرتبط نشاط البحرية العثمانية في البحر المتوسط بصفة عامة، وشمال أفريقيا بصفة خاصة بشخصية لعبت دوراً كبيراً في هذا التطور، وحققت للعثمانيين كثير من الانتصارات في شتى البحار، وهو خير الدين بارباروس باشا، وباربارو س لقب لأسرة تركية، وقيل ألبانية اشتهرت بجهادها في شمال أفريقيا، وسواحل البحر المتوسط إبان القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، وهو لقب أطلقه عليه المؤرخون الغربيون ويعني ذا اللحية الشقراء، ويعود أصل هذه الأسرة إلى رجل يدعى يعقوب نشأ في الأناضول، وكان يعمل جندياً في الجيش العثماني، وانتقل إلى جزيرة ميدللي، بعد أن فتحها العثمانيون سنة ١٤٥٧م، وتزوج بها ورُزق بأربعة أبناء هم: أوروج، وخير الدين، وإلياس، وإسحاق.

وعمل هؤلاء الأخوة بالتجارة وارتياد السفن في حوض البحر المتوسط، وفي إحدى أسفارهم قتل فرسان رودس أخاهم إلياس وأسروا أوروج، ولكنه تمكن من الهرب، وعزم على الانتقام منهم، ومهاجمة جميع السفن المسيحية، وتزامن ذلك مع سيطرة الأسبان والبرتغاليين على سواحل شمال أفريقيا، ومهاجمة مسلمي أفريقيا، واستولوا على عدة مدن، وأقاموا بها قواعد عسكرية؛ حيث احتل الأسبان المرسى الكبير في غرب الجزائر، وبجاية، وطرابلس، ووهران، وغيرها من المدن الساحلية.

والجدير بالذكر أن هذا الصراع الإسلامي المسيحي اجتذب عدداً من البحارة المسلمين من أقاليم شمال أفريقيا، كانوا قد نشأوا في مطلع حياتهم في خدمة الأسطول العثماني، ثم كونوا سفناً تعمل في النقل البحري، وفي الوقت نفسه تجاهد ضد البرتغاليين والأسبان، وكان منهم الأخوين أوروج وخير الدين؛ اللذان اتفقا على الاستقرار في جزيرة جربة التونسية الواقعة بين تونس وليبيا عام ١٥١٣م، وجعلها مركزاً للقيام بعملياتهم الحربية في البحر الأبيض المتوسط، واستطاعا أن يشتريا قسماً من الساحل التونسي، ويؤسسا قاعدة للحملات ضد السفن الأسبانية والبرتغالية، وأقاما علاقات حسنة مع قانصو الغوري سلطان مصر، وأبي عبد الله الخامس سلطان تونس الذي وافق على منحهما قلعة حلق الوادي، = وكانت عبارة عن ميناء يسيطر على خليج تونس وذلك مقابل إعطائه خمس الغنائم. ولما بدأت القوة البحرية للأخوين في الاتساع أخذت تضرب السفن الصليبية على نطاق واسع، ونجحت في انتزاع ميناء ومدينة بجاية من الأسبان عام ١٥١٥م، واتخذاها قاعدة بحرية للصراع مع أسبانيا.

وواصل القائد أوروج جهاده في استخلاص المدن والقلاع من أسبانيا ومن أهمها قلعة بنون الواقعة على الجزيرة المواجهة للساحل الجزائري، ثم مليانة، ومدية، وتناس؛ حتى

وسائر رؤساء البحر الآخرين. وتجولت في كل زاوية وركن في البحر الأبيض المتوسط. وطورت علمي، ودونت، وعلمت كل العلوم

---

استشهد أوروج في أغسطس عام ١٥١٨م، وخلفه في جهاده أخوه خير الدين، وتزامن ذلك مع جلوس السلطان سليم الأول على العرش العثماني وضمه مصر لحوزة العثمانيين.

وعندما تولى السلطان سليمان القانوني حكم الدولة العثمانية أعجب به وبجهوده، فقام بتغيير نظام الحكم في الجزائر من كونها لواء عثماني إلى إيالة -أي إقليم شبه مستقل-، وولى عليها خير الدين عام ١٥٢٠م، وعهد إليه بقيادة حملات غرب البحر الأبيض المتوسط، وأمده بالمساعدات اللازمة التي استطاع بها أن يوجه ضربات قوية للسواحل الأسبانية.

ونجح في إنقاذ ٧٠ ألف مسلم أندلسي من قبضة السلطات الأسبانية؛ حيث قام عام ١٥٢٩م بإرسال ٣٦ سفينة خلال سبع رحلات إلى السواحل الأسبانية لنقلهم إلى شمال أفريقيا.

وفي أبريل ١٥٣٣م استدعاه السلطان سليمان إلى استانبول، فغادر الجزائر مع ٤٤ قطعة بحرية من أسطوله، و١٨ من أميرالاته، وفي طريقه قام بهجوم بحري كبير على أسبانيا عبر طريق خليج جنوة، ومضيق مسينا (صقلية)، واستولى على كافة السفن الراسية في ميناء صقلية، وعددها ١٨ سفينة، ووصل إلى استانبول في ديسمبر ١٥٣٣م، وخرج أهالي استانبول لاستقباله. وأقام له السلطان احتفالات كبيرة، وعهد إليه السلطان بتنظيم شؤون الأسطول والإشراف على بناء السفن.

وفي ١٥٣٤م قام السلطان بتعيينه قائداً للقوات البحرية العثمانية ثم ناظراً للبحرية، وفي إطار خطته لتقوية وتطوير الأسطول قام بارباروس بإنشاء ما يقرب من ٦١سفينة جديدة في ترسانة استانبول، وطور من مرمى المدافع عليها، ودرب أفرادها تدريباً عالياً، كما حدّث المدافع والسفن القديمة. انظر: أشرف نبيه، ألبانيا في ظل الحكم العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس، ٢٠٠٥م، ص ٢٤٢. وانظر أيضاً: عزيز سامح ألتر، ترجمة محمود على عامر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣٠ ٣٨. وانظر: محمد حرب، الدولة العثمانية، موسوعة سفير، القاهرة ١٩٩٦، ص ٤٨.

في هذا الشأن. وألفت كتاباً في علم الهيئة[1] وفن الحكمة[2] في موضوعات أخرى تتعلق بالبحرية، وعن مواقع النجوم.

---

(١) علم الهيئة هو علم يدرس أحوال الأجرام البسيطة العلوية والسفلية، وأشكالها، وأوضاعها، ومقاديرها، وأبعاد ما بينها، وحركات الأفلاك والكواكب، وحركة الأجرام السماوية، والبروج، والخسوف والكسوف. كما يبحث أيضاً في علم الأرض المعمور منها والمغمور، والآهل وأحوال المساكن. والكتاب الذي ألفه سيدي علي رئيس في علم الهيئة هو مرآة الكائنات: وهو كتاب في خمس مقالات بمئة وعشرين باباً عن كيفية صنع الأسطرلاب واستخدامه، والمسافة بين النجوم والشمس، وعن القبلة وتحديد وقت الظهر، وإثبات اتساع الأنهار، والربع المجيب، كما أضاف لهذا الكتاب بعض المباحث عن علم النجوم. (النسخة المخطوطة منه محفوظة بمكتبة جامعة استانبول تحت رقم TY ١٨٢٤). انظر: محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، تحقيق: محمود فاخوري- محمد كمال، مكتبة لبنان، ط ١، ١٩٩٨، ص ٧٩. وانظر أيضا :
Islam Ansik, Devlet kitabları, Eskişehir ١٩٩٧, c. ١٠, s. ٥٣٠ .

(٢) وهو كتاب خلاصة الحياة: وهو كتاب في الرياضيات، ترجمة لكتاب "فتحية" لعلى قوشجى، وذلك لأنه عندما كان في حلب كان يتلقى دروس الرياضيات على يد الشيخ حمد الله بن الشيخ جمال الدين، وأعجب كثيراً بدروس الشيخ، وقال في نفسه: إنه يجب أن يكون هناك كتاباً مثل هذا باللغة التركية، فترجم الكتاب المار ذكره (النسخة المخطوطة من هذا الكتاب محفوظة بمكتبة آيا صوفيا تحت رقم ٢٥٩١، ونسخة أخرى في مكتبة نور عثمانية تحت رقم ٢٩١١). انظر : Islam Ansik, a,g,e, c. ١٠, s. ٥٣١.

كان أجدادي لوالدي ووالدتي يعملون في وظيفة كتخدا[1]دار الصناعة العامرة (أي الترسانة) في غالاطه[2] منذ فتح استانبول. وكان كل واحد منهم ماهرا في علم البحر، وبرهن عن مهارته. لهذا فإن فن الإبحار ميراثي عن أجدادي.

وإن وضعنا كل هذا نصب أعيينا، فقد أهديت للفقير خدمة قبطان مصر في أواخر ذي الحجة من عام ٩٦٠هـ[3] باعتبار أنني رجل عارف بعلم البحر. وقد صدر الأمر إليّ بإرجاع السفن الموجودة في ميناء البصرة مرة أخرى إلى مصر.

---

(١) كتخدا: كلمة فارسية الأصل تعني وكيل أو نائب؛ حيث كان لرجال الدولة ورجال القصر العثماني من ينوب عنهم في أعمالهم، ويُطلق عليه (كتخدا). انظر:

M. Sertoğlu,a. g. e, s, ١٨٣ .

(٢) غالاطه: أحد الأحياء التاريخية القديمة في استانبول. كانت لها أهمية كبرى في العهد البيزنطي. يقع هذا الحي في القسم الشمالي للخليج. وقد فتحت في عهد السلطان الفاتح مع فتح استانبول. وكان لها قاضي غير قاضي استانبول؛ حيث كان قضاتها يرقون إلى درجة قاضي استانبول بعد بقائهم فترة في قضاء غالاطه، كانت لها أسوار يبلغ طولها ١٠ الآلاف خطوة؛ أي ١٨ ألف ذراع معماري، ما يعادل ١٣٥٤٤ متر، أما ارتفاعه فكان يتراوح بين ١٠-٢٠ متراً. وفي القرن السابع عشر كان بها ١٨ حياً للمسلمين، و٧٠ للأروام، و٣ للإفرنج، = وحياً لليهود، واثنان للأرمن. أما عدد سكانها في ذلك الوقت فكان ٢٠٠ ألف مسيحي، و٦٠ ألف مسلم. وكان بها العديد من المنشآت الهامة في الدولة، فكان بها قصر غالاطه، وجسر غالاطه، وبرج غالاطه الشهير. انظر : M. Sertoğlu, A, g, e, s. ١١٩. Türk Ansik, a, g, e,c. ١٧, s. ١١٧.

(٣) الموافق ١٥٥٢م.

وبموجب هذا الفرمان خرجت من حلب قاصدا البصرة في غرة محرم لعام٩٦١هـ[١] واجتزت جسر الفرات قبالة بيره جيك، فبلغت الرها. وزرت مقام إبراهيم عليه السلام، وانتقلنا من نصيبين إلى الموصل، وهناك زرت مقامات سيدنا يونس، وسيدنا جرجيس، والشيخ محمد الغرابيلي، وفتح الموصلي، وكذلك قضيب البان الموصلي، ثم توجهنا صوب بغداد، ووصلنا من تكريت إلى سامراء، وزرنا الإمام على الهادي، والإمام حسن العسكري. ومن مدينة عاشق ومعشوق وصلنا بغداد المحروسة عبر طريق قصبة الحربى وقصر سمكة. ومن الجسر عبرنا شط بغداد أي دجلة. وزرنا النبي يوشع عليه السلام، والإمام الأعظم، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام يوسف، والإمام محمد، والإمام محمد الغزالي، وعيص بن إسحاق عليه السلام، والإمام موسى الكاظم، والإمام محمد التقي، وقنبر على والشيخ عبد القادر الكيلاني، وجنيد البغدادي ومعروف الكرخي، والشيخ شبلي وسري السقطي، والحلاج المنصور، وبشر الحافي، وجومرد القصاب، وبهلول ديوانه، والفضيل بن عياض، والشيخ شهاب الدين السهروردي، والشيخ داود الطائي.

(١) الموافق ١٥٥٣م.

بعد ذلك عبرنا من قبالة قلعة الطير، فبلغنا قلعة بيره. ومن أمام قصبة المسيب اجتزنا معبر الفرات، فبلغنا عزو أي كربلاء. وزرنا الإمام الحسين، ومشهد الشهداء وحر شهيد، ثم سلكنا طريق الصحراء من جانب شفاته قاصدين مشهد. وفي اليوم الثاني وصلنا حائرة -أي النجف-، وزرنا سيدنا آدم والنبي نوح وشمعون عليهم السلام، وسيدنا على المرتضى ﷺ. ووصلنا الكوفة وزرنا مسجدها، ومحاريب الأنبياء عليهم السلام، وبيت سيدنا على المرتضى ومقام قنبر ودلدل. وبعد ذلك جئنا إلى القلعة الحسينية، وفي الطريق زرنا النبي ذي الكفل بن هارون عليهما السلام. ومنها جئنا إلى الحلة وزرنا فيها أيضاً مقام صاحب الزمان -أعني الإمام محمد المهدي-، والإمام عقيل أخو سيدنا على، ومسجد شمس. وعبرنا الفرات مرة أخرى من الجسر، ورجعنا إلى بغداد ثانية، وهنا ركبنا السفن واتجهنا صوب البصرة، وشاهدنا أثناء الطريق مدينة المدائن، وطاق كسرى، وقصر شاه زنان، وزرنا سلمان الفارسي، واجتزنا مضيق العمارة، ووصلنا زكية عبر طريق واسط، وزرنا قبر العزير عليه السلام الواقع في مواجهتها، ووصلنا قلعة صدر السويب من قبالة قلعة العجل، وقلعة المزرعة، ثم بلغنا شط البصرة، ودخلنا المدينة في أواخر شهر صفر من السنة المذكورة.

# في بيان الأحوال الواقعة في ولاية البصرة

في اليوم التالي تقابلنا مع مصطفى باشا، فلما رأى الفرمان الشريف الذي معنا، سلمنا الخمس عشرة قدرغه الموجودة. وأصلحنا ما يمكن إصلاحه في الأماكن التي تحتاج إلى تعمير فيها، وملأنا ما بين أخشابها بالقار. وعثر لدى الرؤساء على مقدار من القذائف من غنائم هرمز، فعملنا منها عدداً من الفناطيس تكفي لتلبية احتياج كل سفينة من الماء.

ونظراً لابتعاد موسم المطر فقد وضعنا بها من الماء ما يكفي خمسة شهور. وزرنا مسجد علي، وحسن البصري، وطلحة، والزبير، وأنس بن مالك، وعبد الرحمن بن عوف، والصحابة الشهداء، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وحدث ذات ليلة أن رأيت في الرؤيا أن سيفي انكسر، وقد روي أن الشيخ محي الدين بن عربي -قدس سره- رأى في المنام أن سيف النبي ﷺ قد انكسر في إحدى المعارك، فقال: إن الصحابة انهزموا. وقد جالت هذه الواقعة بخاطري، واستولى عليّ الخوف، ودعوت الرسولﷺ، فلاح بقلبي أن جند الإسلام هم المنصورون. واستيقظت وأنا أهم بالدعاء، ولم أقص هذه الواقعة على أحد. وإن شغلت بها لفترة طويلة. واتفقت مع مصطفى باشا، فذهب بطائفة ذات بأس لفتح قلعة هويزه[١]. وأرسلني عليان أوغلى أنا الحقير بخمس قدرغات إلى مدينة جزاير[٢] منبها عليّ بألا ألحق الضرر بها، وذهب جند مصر الموجودون في السفن مع المشار إليه. ولم يتيسر فتح القلعة لحكمة يعلمها الله. واستشهد هناك ما يزيد على مئة من رفاقي من رماة البنادق المهرة. وبقدر ما أحزنتني هذه الواقعة إلا أنني رأيت فيها تفسيراً لرؤياي التي ذكرتها. لكن اتضح أن التدبير لا يغير التقدير.

(١) ويقال لها أيضاً حويزه، وهي من القلاع الموجودة على الحدود بين العراق وإيران.

(٢) المقصود بها مقاطعات الجزائر التابعة لعشيرة منتفك في المنطقة الممتدة بين سوق الشيوخ ومدينة البصرة على يمين نهر الفرات. انظر: محمد خورشيد، سياحتنامه حدود، استانبول، ١٢٧٧هـ، ص ١٣.

شيخي(١) المقدر يكون؛ سواء حاولت أم لم تحاول، اتسع له صدرك أم لم يتسع ولما أوشك الموسم على الانتهاء، أرسل الباشا المشار إليه شخصاً معروفاً اسمه شريف باشا ماهراً في علم البحر، ومعه فرقاطة(٢) إلى هرمز لتقصي الأوضاع، فجاب في تلك الأماكن مدة شهر، وجاء يخبر بأنه ليس للعدو من السفن سوى أربع قطع، وإنها سفن موسمية، وعليه أركبنا الجند السفن، واتجهنا قاصدين مصر.

---

(١) شيخي ولد في كوتاهية وتعلم بها. ثم ذهب إلى إيران، وتعرف بها على السيد الشريف الجرجاني. ثم عاد إلى الأناضول، وانتسب بحاجي بيرام ولي. له مكانة كبيرة في الشعر الديواني. وقد تأثر بشعراء الفرس مثل حافظ، وأعطى نماذج جيدة للشعر التركي في القرن الخامس عشر، أثر شيخي في الشعراء الأتراك المعاصرين له. ومن أعماله الديوان وخرنامه، وخسرو، وشيرين. ويذكر محمد طاهر البورصوي أن له أيضاً كتاب باسم "كنز المنافع في الأحوال والأمزجة والطبائع". انظر:

.Türk Ansiklopedisi, Şeyhi maddesi, c. ٣٠, Ank ١٩٨١, s. ٢٧٥.

(٢) الفرقاطه يتراوح طولها بين ٤,٥ - ٢٧ ذراع، وبها من ١٠ - ١٧ مقعداً. ويسحب المجداف بها من ٢-٣ أشخاص. كانت تستخدم في الأسطول الخفيف مثل القاليته، ولأنها كانت سريعة كانت تستخدم في نقل الأخبار. وتستوعب ٨٠-١٠٠ شخصا. انظر:

.T. D. Vakfı. Islam Ansik, a, g, m, s. ١٢-١٣

# في بيان الأحداث التي جرت في بحر هرمز

في غرة شهر شعبان من السنة المذكورة، غادرنا ميناء البصرة. ولما بلغ شريف باشا المذكور آنفًا هرمز بفرقاطته أرسله الباشا إلينا ليرافقنا. وبعد أن زرنا عبادان ومقام الخضر عليه السلام خرجنا من شط العرب إلى بحر هرمز عبر طريق مهزري. ومن سواحل دوسبول وشوشتر وصلنا إلى الجزيرة المحترمة؛ أي خارك. وزرنا الإمام محمد الحنفي ابن سيدنا علي، والصحابة الشهداء رضي الله تعالى عنهم، ومن مواني شيراز وصلنا مدينة الري. وطفنا بسواحل بر فارس أي شيراز، وقابلنا في البحر سفينة صينية، وتحرينا منها أحوال العدو، فلم تخبرنا بشيء. ومن بر العرب وصلنا إلى القطيف بالقرب من هجر -أي الإحساء-، وهناك وجدنا دليلاً، وسألناه عن الأمر، فلم يفدنا بأي شيء أيضًا.

ثم عبرنا إلى البحرين، وتقابلنا هناك مع حاكمها مراد رئيس(١). وسألناه، فأخبرنا بأنه لا وجود للكفار في البحر. وللبحرين حكمة غريبة؛ حيث يغوص البحارة في البحر إلى عمق ثمان أذرع أو يزيد وفي أيديهم القراب، ويملئون هذه القراب بالماء العذب، ويأتون به إلى الرئيس مراد. ويكون هذا الماء في فصل الصيف أكثر برودة من سائر المياه. وقد راق هذا الماء للرئيس مراد فداوم على شربه.

وقد أرسل منه إلى العاجز تلطفا منه، وحقيقة الأمر أنه ماء طيب جداً. لا حدود لقدرة الله وعظمته، والله على كل شيء قدير، وعلى هذا ينطبق قول الحق: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[الرحمن: ١٩]،

---

(١) مراد رئيس من مشاهير البحريين العثمانيين، تربى على القرصنة البحرية، وكان ضمن أسطول بيري رئيس في البحر الأحمر، تولى إمارة سنجق القطيف، له فتوحات عديدة توقي عام ١٠٧٣هـ. انظر: شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، استانبول ١٣١٦، ج ٦، ص ٤٢٥٤.

ويعتقدون أن هذا هو سبب تسمية مدينة البحرين بهذا الاسم. الحاصل أننا عبرنا من هناك، وعرجنا إلى جزيرة قيس -أي هرمز القديمة-، وجزيرة برخته، وعدد من جزر البحر الأخضر أي بحر هرمز، ولم نعلم عن أمر الكفار شيئًا. ولما اجتزنا هرمز أرسلنا شريف باشا الذي رافقنا منذ خروجنا من البصرة برسالة إلى مصطفى باشا تفيد بأننا اجتزنا هرمز بصحة وسلام.

ومن سواحل جلفار وجادي اجتزنا كيمزار والقصبة المعروفة باسم ليمه. ولما اقتربنا من خورفكان كان هذا اليوم يوافق العاشر من شهر رمضان المبارك، وهو اليوم الأربعين لخروجنا من البصرة .... وفجأة وفي وقت الضحوة الكبرى قابلنا خمس وعشرين سفينة من سفن الكفار -البرتغال- عبارة عن أربع قطع كبيرة بشكل القراقة[١]، وثلاث قليونات كبيرة، وست قطع من القراوله البرتغالية،

(١) وتسمى أيضًا قباق، وهي نوع من سفن القليون. كان طولها يترواح بين ٤٣ - ٢٩ ذراع، وكانت عبارة عن طابقين؛ الأول للمستلزمات، والآخر للمدافع، وتستوعب ٨٠٠ شخص. انظر : T. D. Vakfı. Islam Ansik, a, g, e, c. ١٤, ist ١٩٩٦, s. ١٢.

وهي أصغر قليلاً من القليون، واثنتي عشرة قطعة (غراب) قاليته. وهجموا علينا. فقمنا على الفور بفتح الأشرعة، ورفعنا الحدائد، وجهزنا أسلحتنا، وتوكلنا على الله وتوسلنا بهمة الأنبياء العظام والأولياء الكرام، وقوينا الأعمدة، ورفعنا الألوية. ولما أتممنا استعداداتنا، ودعونا الدعاء المحمدي بدأنا الحرب على الفور.

وكانت حرب بالمدافع والبنادق يعجز اللسان عن وصفه. وفي النهاية قصفنا بالمدفع واحدة من قليونات البرتغال بعون الله، ولجأت إلى جزيرة فك الأسد، ولم يكن هناك إمكانية لإنقاذها فغرقت بمن فيها.

مسيحي(١)

---

(١) اسمه عيسى بك، ولد في بريشتينا، وكان صاحب تيمار في بلده، وفد إلى استانبول في سن مبكرة، اشتهر بحسن خطه؛ لذا عُين كاتباً لدى الصدر الأعظم على باشا الخادم، وهو من الشعراء الذين لهم بصمة في الشعر التركي، كان متأثرا بالشاعر باقي وعالي، له ثلاثة أعمال هي الديوان – شبرنكيز– كول صاد برك. امتازت لغته بالبساطة والوضوح. انظر : Türk Ansik, a, g, e, Ankara ١٩٧٦, c. ٢٤, s. ٣٧.

غالبًا لـمـ تــــر عينــــي

حادثـــة عظيمــة كهـذه

لا أدرى كيف يمكن وصف

تلك الـواقعــة الكبـــرى.

ودارت الحرب بيننا ضروسًا حتى وقت العشاء. وفي النهاية تحطمت آمال قبطان العدو، وتملكه الخوف، وأصدر الأمر إلى سفنه بإطلاق المدافع إشارة وقف الحرب. وجمعوا قطعهم، وولوا وجوههم شطر هرمز.

وبوصفنا عبيد لأمر مولانا السلطان صاحب السعادة، وبعون الله هزمنا العدو، أنزلنا الهزيمة بأعداء الدين، وفي النهاية حل الظلام، وبينما وجه الماء ساكن كالميناء هبت فجأة ريح قوية، ونظرًا لأننا كنا على مقربة من الشاطئ، فقد تحسسنا طريقنا ببطء حتى الصباح، وتلاطمت الأمواج بالشاطئ، فطهرت الخليج وهطلت أمطار غزيرة. ثم انفتح البحر قليلاً، وفتحنا الأشرعة، وواصلنا مسيرنا. وفي اليوم التالي وصلنا خورفكان. فاستوفى الجند الماء، ثم وصلنا من ولاية عُمان إلى قصبة عمان أعني مدينة سُحاره. وهكذا طالت رحلتنا في البحر مدة سبع عشرة يوما أخرى.

ولما وصلنا قبالة قلعة مسقط وقلهات في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك -أي في ليلة القدر- هجم علينا العدو فجأة من ميناء مسقط بأربع وثلاثين سفينة عبارة عن اثنتي عشرة قطعة كبيرة واثنتين وعشرين قطعة من نوع الغراب، كلها مجهزة ومملوءة بما لا يحصى عدداً من الجند. لقد كانت القطع البحرية والقليونات وكل شيء يبهر العين، وعلقوا الأشرعة، والأشرعة الاحتياطية أيضًا، وفتحوا أشرعة القراولات. وزينوا السفن بأغصان النباتات، وهجموا علينا.

والتجأنا بدورنا إلى الله سبحانه وتعالى، وأخذنا استعدادنا على الشاطئ للقتال، وجاءت القطع البحرية، والتحمت القدرغات، ودارت حرب ضروس بالمدافع والبنادق والسيوف والسهام، يعجز اللسان عن وصفها.

وانفتحت في السفن المقاتلة ثغرات بحجم النوافذ، وانهمرت السهام على السفن والأشرعة فصارت كظهر القنفذ.

يتيم[1]

من ينزل جلده الحجارة

يسكب خبره في البحـــر

واحترقت واحدة من سفننا من نوع القدرغه بقذيفة مدفع، وبحكمة الله احترقت قادرغه وقطعة بحرية أخرى، وانسحبت خمس قطع وخمس قادرغات كاملة إلى البر، وغرقت كلها، وتوقفت قطعها بقوة الشراع؛ لكنها غرقت أيضاً. والحاصل أن وقعت خسارة كبيرة من الجانبين. وانقطعت قوة جماعة التجديف، ولم تعد لديهم القوة والقدرة على سحب المجداف إلى الخلف، أو على إطلاق المدافع. واقتضت الضرورة إلقاء الحديد (الهلب)، وأُخذ إلى مؤخرة السفن، وهذا مع استمرار الحرب،

(١) الشاعر يتيمي من شعراء القرن العاشر الهجري، أسمه على. من استانبول، كان والده طورناجي باشي. وكان هو ينتسب إلى أحد أوجاقات الإنكشارية، ولكنه ترك العمل فيها لانتسابه بأحد المشايخ المتصوفة، ولما أصبح ذو أولاد وعيال، قد عريضة للسلطان القانوني يطلب فيها إيجاد وظيفة له، وبالرغم من أنه قدمها للسلطان، إلا أنه لم يتلقى أي رد نظرا لانشغال السلطان في الحملات، والتحق بالأسطول أثناء قيادة سيدي علي رئيس له، تمتاز مثنوياته بالبساطة والسلاسة. انظر: شمس الدين سامي، مرجع سابق، ج٦، ص ٤٧٩١ .

وأُنزلت الصنادل إلى البحر -لإنقاذ ما يمكن إنقاذه-، وتم التقاط علم شاه[1] رئيس أحد رؤساء القدرغه، وقره مصطفى، وقلفات ممي، كما أُنقذ مصطفى بك الدورزي وهو من قادة المتطوعين، وحوالي مائتين من جنود المصريين. وكانت طائفة ساحبي المجاديف من العرب. وهؤلاء عندما انسحبوا إلى اليابسة، هرع ما لا يحصى من عرب نجد لمساعدة جيش الإسلام، وأرشدوهم إلى الطريق البري.

---

(١) الشاه: كلمة تعني الحاكم أو السلطان في بلدان الشرق وخاصة في إيران. وكانت تستخدم عند العثمانيين بصيغة شاه العالم، أو التشريف الشاهاني، والجنود الشاهانية. انظر:
Midhet Sertoğlu, A.g.e, ٣٢٠ .

كما أخذ الكفار من الأعراب ما تبقى من الكفرة الفجرة في السفن، وكونوا بهم قبيلة عربية، وانسحبوا بهم إلى الولايات العربية. ويعلم ألله أنني كنت مع المرحوم خير الدين باشا، ولم تجر حرب بالسفن كهذه في الحروب التي جرت مع أندريه دوريا وجند دال. فلما أقبل المساء هبت عاصفة أخرى على خليج هرمز. فألقت كل قطعة حديدتان كبيرتان. وربطوا الحبال، وانسحبت سفن الغراب إلى البر، ولم تتمكن سفن القدرغه من إلقاء رواسيها. وأُسقط في أيدينا، واضطررنا إلى الإبحار بعيداً عن الساحل.

في تلك الليلة غادرنا بلاد العرب، وخضنا البحر الذي لا حد ولا نهاية له. ثم وصلنا من ولاية كرمان[1] إلى برجاش، ولم يكن بها مرفأ؛ بل كان ساحل مستو، فلما انتقينا شاطئ، ألقينا المراسي، وأمضينا ليلتين على هذا النحو. ثم وصلنا من ولاية مكران إلى كيجي مكران. وحل المساء وأصبح من غير الممكن الوصل إلى الشاطئ. وتوقفنا تلك الليلة في البحر إلى الصباح، ونحن نتحرك مرة إلى أسفل، ومرة إلى أعلى، وتركنا الأمر للريح، وتشتت أمرنا. وفي النهاية تمكنا عند الصباح من بلوغ الساحل بمشقة وخسارة كبيرة.

(١) أحد الولايات التابعة لإيران.

وهنا مكان معروف باسم بندر الشهباء، ورأينا هناك قطعة نوتاق أي لوند[١]، وسفن من نوع الآقطارمه. فلما رآنا النظرجية-المراقبون- تجمعوا وأرسلوا لنا رجلاً، ولما قلنا لهم إننا مسلمون، جاء رئيسهم إلى السفينة. ولم يكن في سفينتنا ولا حتى شربة ماء. ولما بيّن لنا مكان الماء، وهب الجند المشرفين على الموت حياة جديدة، وكان ذلك اليوم يوم العيد، فجعلنا العيد عيدين بعثورنا على الماء في ذلك اليوم أيضاً.

وجعل هذا الرئيس من نفسه مرشداً لنا، وأوصلنا إلى مرفأ يسمى كوادر. أهله من بلوجستان. وملكهم الملك دينار ابن الملك جلال الدين. جاء حاكم كوادر إلى السفينة، وأعلن إخلاصه للسلطان صاحب السعادة، وكان لدى وصول الأسطول إلى هرمز من قبل قد أرسل السفن المحملة بالطعام والرجال، ولكنه لم يدرك الأسطول.

---

(١) اللوند، هم صنفا من الجنود كانوا يستخدمون في القوات البحرية والقوات البرية. وقد دخل اللوند خدمة الأسطول العثماني منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر. واللوند الأسطول ينقسمون إلى قسمين الأتراك والروم. ويضع اللوند الأتراك على رؤوسهم عمامة حمراء ويرتدون قميصاً أبيض ذو أكمام. انظر: M. Sertoglu, A. g. e , s. ١٩٩.

وفي أي وقت كان يأتي فيه الأسطول إلى هرمز كان هذا الملك يرسل الأرزاق بحوالي خمسين أو ستين مركبًا. وبذل الوعود باستعداده دائما للوفاء بأي خدمة، وأنه سيكون مستعداً إن شاء الله ، فالأمور مرهونة بأوقاتها. وأرسلنا خطابًا إلى الملك جلال الدين نسأله معلمًا ورباذًا أي دليلاً للبر والبحر، فأرسل لنا معلمًا وخبيرًا ورباذًا قديرًا، وأظهر الانقياد والطاعة للسلطان صاحب السعادة.

# في بيان الأحداث التي وقعت في المحيط الهندي

وعندما هدأت الريح توكلنا على الله وخرجنا من بندر كوادر إلى بحر الهند أي البحر المحيط، ولما صارت الريح مواتية عزمنا التوجه مرة أخرى ناحية اليمن.

نجاتي[١]

تركت قارب القلب عند محل فسيح أمام الله

ظللنا في البحر عدة أيام. وعبرنا رأس الحد تقريباً، ووصلنا بالقرب من سواحل ظفار وشحر، وبعد غروب شمس هذا اليوم هبت عاصفة مشهورة باسم طوفان الفيل، ولم يكن هناك إمكانية لفرد الشراع فحسب؛ بل لم تكن هناك إمكانية أيضاً لفرد التاندة (الظلة).

---

(١) اسمه عيسى ولد في أدرنه وتوفي في استانبول عام ١٥٠٩م. أحد ممثلي الشعر العثماني الكلاسيكي. ذهب إلى قسطموني وهو شاب، وهناك اشتهر بحسن الخط والشعر. وقد أعجب الشاعر أحمد باشا بأشعاره. كما أعجب به السلطان محمد الفاتح، لدرجة أنه عينه كاتبا للديوان. كان نجاتي يعرف عند أهالي الأناضول بخسرو الروم وملك الشعراء. وقد اشتهر نجاتي في قصائده بتصويره للطبيعة والأحياء. وله ديوان يبلغ ٦٥٥٤ بيتاً، منها ٧٠ بيتاً بالفارسية. انظر:

Türk Ansik, a, g, e, Ank ١٩٧٧, c. ٢٥, s. ١٦٧ .

يتيم

لقد رست سفينة القلب على ساحل كهذا، وليس هناك ساحل

ولا يوجد شراع سيتحمل تلك الرياح التي تهب دون توقف

لم تكن الرياح مواتية تماماً؛ حتى أن العواصف التي تهب في البحر الأبيض لم تكن شيئاً بجوار تلك العواصف، فقد كانت الأمواج التي تشبه سلاسل الجبال أعلى أضعاف من الموجودة في البحر الأبيض، فلم نكن نستطيع التفريق بين الليل والنهار، وألقينا في البحر كل الأحمال والأثقال التي في السفن، وأنشدنا:

حافظ [1]

ماذا يقول عنا الذين يقفون على الساحل في راحة بينما

نحن في ظلمة الليل ونحن في عقبات كالدوامات والأمواج

استمرت الريح واحدة تلو الأخرى دون انقطاع، وحينئذ لم يكن أمامنا حيلة سوى أن نحني رقابنا لقضاء الله. وطلبنا المدد من الله، واستنجدنا بهمة الرسول الكريم والأولياء الصالحين.

وأحياناً كنت أنشد أبيات يتيم لأسلي بها الأذهان المغمومة :

يتيم

لا تغص في بحر الحزن بسبب كثرة

---

(١) هو محمد شمس الدين المعروف بحافظ الشيرازي (وفاة ٧٩١هـ/١٣٨٨م) ثمة روايات عديدة حول حياته. ومنها أنه ولد في محلة شيادان بشيراز. عاش حافظ الشيرازي في الفترة التي كانت معاصرة لاحتلال المغول لإيران. حيث كانت إيران تعج بالمشكلات السياسية. عاش هذا الشاعر فترة عصيبة من حياته في عهد مبرز الدين محمد. وكان حافظ من الشعراء الذين تأثروا بموجة التصوف، وروح التصوف التي ظهرت في الأدب، وخاصة الشعر الفارسي، وخاصة بعد الملحمة الكبرى التي قدمها الفردوسي (الشاهنامه) ويعد حافظ من أكبر الشعراء الذين أثروا الشعر الفارسي بالغزليات، وله مثنويات ( ساقي نامه – مفتي نامه) وقد تمت دراسات وشروح عديدة عن ديوان حافظ الشيرازي. انظر:
Türk Ansik, a, g, e , Ank ١٩٧٠, c. ١٨, s. ٣١١.

العواصف فبالتأكيد ستنقطع العاصفة

أيها الفلك كن ساكناً عندما ترى اليابسة ، واكتفى بهذا القدر

وأحيانا كنت أنشد :

أيها القلب تعالى إلى بحر القلب، ولا تسقط في دهاليز الحزن

فبعد يوم أو اثنين ستتوقف العاصفة ، ولن تبقى هكذا

لأسكن بها القلوب المتألمة.

استمرت هذه العاصفة عشر أيام على هذا الحال، ولم تخمد ولو ليوم واحد، وكنت أشد من أزر من معي، فأقول لهم: سيكون خيراً بإذن الله.

فقالوا لقد رأينا في البحر أسماك كبيرة أطول من سفينتين من سفن القدرغه، فقال المرشدون : لا تخافوا.

وفي النهاية حدث المد والجزر، ولأن المد كان عالياً في المنطقة التي كنا بها فقد وصلنا بالقرب من خليج جكيد، ورأينا قناديل البحر، والضفادع الكبيرة، والثعابين الضخمة، وفرس البحر، وذلك إشارة إلى أننا أصبحنا في مكان قريب من اليابسة.

بدأ لون البحر يبيض، وبدأ المرشدون الذين رأوا هذا الوضع يصيحون، وكان هذا إشارة منهم إلى أن دوامة بحرية ستحدث، ويحدث هذا الوضع في هذا البحر في موضعين؛ الأول في جواردا فول على سواحل الحبشة، والثاني في خليج جكيد بالقرب من السند، ومحرر في كتب الجغرافيا أن السفن لا تنجو منها إذا ما علقت بها، فقمنا بقياس عمق المكان الموجودين فيه، فوجدناه خمس باعات، وعلى الفور ربطنا الشراع الأوسط، وسرنا عكس اتجاه الرياح.

ولأن السفينة كانت قائمة من ناحية استخدمنا المجاديف في هذا اليوم بليلته.

وفي النهاية وبأمر الحق تبارك وتعالى حل وقت الجزر، وبدأت الرياح تهب بشكل معاكس، يعني أنها كانت تهب بشكل خفيف من خلف السفينة.

سحري[١]

---

(١) سحري شاعر من الشعراء العثمانيين، من مدينة أدرنه، كان كاتباً في محكمة أدرنه عندما كان كمال باشا زاده قاضيا عليها. انظر: شمس الدين سامي، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٥٣٩.

اترك ورقة الجسد عند بحر العشق فستنقطع الرياح

فالله تعالى هو مرسلها ومحولها أيها القلب ستنقطع الرياح ذات يوم

في الصباح التالي أنزلنا الشراع مبكراً، وقام أحد البحارة بإحكام الربط، ونصبنا عامود الشراع دون أن نفرد الشراع نفسه، ووضعنا ركيزة تحته، وألغينا بذلك عامود الشراع.

وعندما نظرنا حولنا بدت لنا الكنيسة الموجودة بولاية جامبر على ساحل البحر، نزلنا للأسفل مرة أخرى، وعلقنا الشراع، وعبرنا من أمام الفورميان والمنكلور.

وبالرغم من أن كنيسة سومنات كانت تختفي بين المنازل بين الحين والآخر، إلا أننا عبرنا في النهاية من أمام سومنات، وأخيراً وصلنا إلى ديو[1] التي كانت في أيدي الأعداء؛ لذا انسحبنا من هناك، ولم نفتح الشراع في هذا اليوم؛ بل سرنا بمعرفة الخبير البحري الذي له خبرة بدفة السفن، وكلما كنا نسير كانت سرعة الرياح تزداد، وأصبحت دفاف السفن في حالة لا يمكن ضبطها، واستطاع أربعة أشخاص ضبط اثنين منها بصعوبة بالغة، واستطعنا أن نتفاهم بصعوبة بالغة مع البحارة، ولم يتمكن البحارة، أو عمال الشراع من التوقف ولو لحظة واحدة في قمراتهم.

وفي النهاية أمتلأ المخزن بالجند المأجورين، وأخذوا الأشجار الطويلة الموجودة على السفن وذهبوا بها.

---

(١) ديو: جزيرة ومدينة برتغالية في الهند موقعها في عرض ٤٣ - ٢٠ شمال، وطولها ٤٥-٧٠ شرق، تبعد ١٦٠ ميلا عن بومباي إلى الشمال بالقرب منها. عدد سكانها نحو ١٠ آلاف. أرضها لا تصلح للزراعة، لها ميناء جيد، استولى البرتغاليون عليها عام ١٥١٥م، وفي عام ١٦٢٠م نهبها عرب مسقط. انظر: بطرس البستاني، دائرة المعارف، بيروت، بدون تاريخ، ج ٨، ص ٢٥٥.

والنتيجة أن هذا اليوم كان كيوم جهنم، وأخيراً وصلنا إلى إيالة[١] كجرات[٢] الهند، ولكننا لم نكن نعرف في أي مكان نحن. وعندما صاح المرشدون فجأة انتبهوا أمامنا دوامة ألقينا الهلب، إلا أن السفينة مالت وأوشكنا على الغرق. وتشتت طائفة الجدافين، وتجرد كل شخص. وبدأ بعضهم يجهز البراميل وبعضهم يجهز القراب لحفظ المياه، وأنا أيضا تجردت وأطلقت سراح عبيدي، ونذرت لفقراء مكة –شرفها الله– مئة عملة ذهبية وفي النهاية كُسر اثنان من حديد الهلب من قاع السفينة، فربطناهما بشكل محكم، وبذلك أنقذنا لمرة أخرى من العاصفة.

---

(١) ايالة: اسم يطلق علي أكبر جزء في التشكيل الإداري للدولة العثمانية، وهى تشبه المحافظة في الوقت الحالي. كانت الإيالة تنقسم إلي عدة سناجق والسنجق ينقسم إلي عدة أقضية والقضاء ينقسم إلي عدة نواحي، كانت إدارة الايالات تؤول إلى أمير الأمراء و من بعد منتصف القرن الخامس عشر أصبحت تُدار من قبل الوزراء. انظر:

.M. Sertoğlu, a. g. e. s. ١٠٦

(٢) كجرات منطقة كبيرة على ساحل بحر عمان في الجهة الغربية من الهند، يحدها شمالا راجبوتا، وشرقا مالو وكنديش، وجنوبا كوتكان، وغربا بحر عمان، وهي قسمان؛ غربي (كج) وشرقي وهي القسم البري منها. طولها من الشرق إلى الغرب ٥٦٠ كم، وعرضها ٥٠٠ كم. ومساحتها الإجمالية ١٣٨٧٧٠ كم. انظر: شمس الدين سامي، مرجع سابق، ج٥، ص ٣٨٢٧.

ولكن المرشدين قالوا لنا: إن هذا المكان يقع بين ديو ودامان[1]، وإذا ما غرقت السفينة هنا فلا أمل قط في إنقاذ أي شخص، وعندما قالوا: يجب فتح الشراع والذهاب إلى مكان يقع على مقربة من الأعداء، قمت على الفور بحساب المد والجزر أي سرعة التدفق في الذهاب والمجيء في هذا المكان.

نظرت في الخريطة على البوصلة فوجدت مكاننا، وحسبت هل نحن قريبين من البر أم لا، ووجدت بهذه الحسبة فألاً من القرآن الكريم، فكان هذا علامة على أنه سيكون خيراً بإذن الله.

نظرت على مياه السفن، فوجدت المياه قد غمرت أرضياتها تماما، بدأنا في تفريغ المياه، ووجدنا بعض النوافذ المستديرة في السفن ففتحناها فأخرجنا قسما من المياه منها،وعند العصر بدأت الرياح تنشط، وكنا وقتها أمام ولاية دامان التابعة لكجرات الهندية، وكنا نبعد عن اليابسة بمقدار ميلين.

---

(١) دامان قرية قرب الرافقة، بينهما خمسة فراسخ، وهي بإزاء فوهة نهر التيهاء. وإليها ينسب التفاح الداماني الذي يُضرب المثل بحمرته. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧م، ج٢، ص ٤٣٣.

كانت كل السفن هناك، وعجزت بعض السفن القدرغه عن التحرك بسبب التلاطم الشديد للأمواج لقربها من الساحل، ألقيت الصنادل والمجاديف والبراميل من السفن في البحر، ورست تلك السفن على اليابسة، وقد قضينا خمسة أيام بلياليها تحت المطر الشديد؛ لأن هذا الموسم هو موسم هطول الأمطار في الهند، ولم يكن بوسعنا شيء، فرضخنا للأمر الواقع امتثالاً للمثل القائل: (ما تمطره السماء لا تقبله الأرض)، وخلال تلك الأيام الخمسة لم يرَ أي شخص منا أي أثر للشمس بالنهار أو النجوم بالليل، فلم نترك البوصلة أو الساعة من أيدينا طيلة الأيام الخمسة المذكورة.

وخلاصة القول أصبحنا جميعا في حيرة من أمرنا غارقين في الضيق النفسي، فقد كل شخص الأمل في الحياة. وكنت أسلي عن رفقائي بهذه الأبيات:

آفتابي(١)

سيبتسم لنا الحظ يومًا وسننجو من هنا

لأن الله تعالى لا يترك عبده في مشقة

ومن حكمة الله تعالى أنه قد رست ثلاثة سفن أخرى هنا ، ومالت تلك السفن وأوشكت على الغرق وحينئذ صاح من بداخلها قائلين :

حافظ

نحن في سفينة تعرضت لمصيبة

أيها الرياح المواتية هبي لنصل إلى الحبيب على الشاطئ

وأخذوا يتضرعون إلى الله، وبإذنه تعالى أنقذوا جميعًا من الغرق.

---

(١) آفتابي من شعراء عهد السلطان محمد الفاتح. ولد في مدينة مرزيفون من أعمال أماسيا، انتسب لشيخ صوفي، بعد أن أتم تحصيله العلمي. واشتغل بعلم التصوف، وقد كان مظهرا لمحبة وصداقة السلطان بايزيد عندما كان أميرا على أماسيا. له ديوان مرتب. انظر: شمس الدين سامي، مرجع سابق، ج١، ص ٢٣٥.

## في بيان الأحول التي جرت في كجرات

بعناية الله تعالى قلت حدة الرياح بعد خمسة أيام، وساد الهدوء والسكون البحر. وقد تركنا مدافع السفن التي تحطمت والأجزاء الأخرى أمانة في قلعة دامان؛ أي عند حاكم دامان الملك أسد أحد أمراء السلطان أحمد سلطان كجرات، وكان يوجد هناك مجموعة من السفن الموسمية التي أتت من كالكتا، وبينما كانت السفينة على وشك التحرك، أتى السلطان سامري سلطان كالكتا إلى السفينة، وقدم خالص احترامه وارتباطه بالسلطان صاحب السعادة.

وعندما أخبروا بأنهم في حالة حرب مع كفار البرتغال ليل نهار، كتبت رسالة إلى سامراء والقبطان علي الذي يقوم بمهمة الإرشاد في الولاية، وعلى السفن القدرغه بأنهم لو أرسلوا الأسطول الهمايوني من مصر لأمكن إنقاذ تلك النواحي من الأعداء، وأرسلت هذه الرسالة إلى السفن.

وقد أرسل الملك أسد والي تلك المدينة رسالة إلى العاجز يخبره فيها بأن أسطول الأعداء على وشك القدوم، وأنه يجب علينا اتخاذ الإجراءات اللازمة، وسرعة الوصول إلى قلعة سرت[1].

ولأن هذا الخبر انتشر بين الطوائف الموجودة في السفن ظل بعضهم هناك، وأصبح تابعا للملك أسد، وبعضهم أنشد تلك الأبيات:

يتيم

إن الأشخاص المتعقلون الذين سبقونا في هذا العالم

قالوا إن الماء ساكن في الكوب والسفينة ساكنة على الورقة

وحتى لو تركوا اليابسة وخافوا من جو البحر

فإن عقلهم يصبح هباء حتى ولو كان ابن سينا

---

(١) سرت مدينة في الهند شمال مقاطعة بمباي، تابعة لها. تقع على ضفة نهر تيني، يبلغ سكانها نحو ٧٠ ألف نسمة. فيها العديد من الجوامع الجميلة وكنيسة إنجليزية. وبها مدار هندية كثيرة. أطلق عليها المسلمون أثناء ولايتهم للهند اسم باب مكة، لوفرة ما يتجمع إليها من الحجاج ويركبون منها البحر إلى مكة. غزاها البرتغاليون عام ١٥٢٠م. واستولى عليها المغول عام ١٥٧٢م، واستولى عليها الإنجليز عام ١٨٠٠م. انظر: بطرس البستاني، مطبعة الهلال مصر عام ١٨٩٨م، ج ١٠، ص ١٩٣.

ووثبوا على الصنادل وقرروا الذهاب إلى سرت من البر.

واتحدوا مع مجموعة من البحارة الذين يتفقون من العاجز، وعملوا سويًا، وأخذنا مرشدًا لكل سفينة، وسرنا صوب الميناء المسمى سرت.

وأبحرت السفينة بصعوبة بالغة، وبينما كنا نفرد الشراع أتى مجموعة من عند عماد الملك الوزير الأعظم للسلطان أحمد، ومعهم حمزة أغا[١] أمير سرت، وأحضر الرسالة، وأخبروا بأن الأعداء قد تجمعوا، وأن دامان مكان مكشوف، ويجب عليهم اتخاذ الإجراءات اللازمة.

وعندما وصلنا إلى قلعة سرت أخبرونا بأن هذا المكان خطر، ونحن أيضًا كنا نتفق معهم في هذا الرأي.

---

(١) أغا: يستخدم هذا اللقب في كل اللهجات التركية، بلفظ أقا وأقاى وأغاى وتعنى كلها السيد العظيم، ويطلق علي من يعرف الكتابة، وقد كان لكل طائفة في الدولة العثمانية أغا عليها، فكان يوجد أغا الإنكشارية وأغا العبيد وأغا القابى وأغا الحريم. انظر:
M. Sertoğlu, a. g. e, s. ٧، وانظر أيضًا: شمس الدين سامي، ع، ك، ١ ، ص ٣٨ .

وفي اليوم الخامس سرنا في طريقنا عندما انسحبت المياه في خور قارى، وعندما زادت المياه رسونا.

لاقينا مشقة وتعب، ولكن في النهاية -وبعون الله- وصلنا إلى قلعة سرت مروراً بكجرات بعد ثلاثة أشهر من خروجنا من ميناء البصرة، وقد سُر الأهالي المسلمون الموجودين هناك من مجيئنا، وقالوا لنا: لقد جئتم في وقت ثورة ولاية الكجرات، وكنتم عونا لنا.

حقيقة الأمر أن لم تهب عاصفة في البحر مثل تلك العاصفة منذ عهد سيدنا نوح، ولكن لم يأتِ من بلاد الروم[١] إلى تلك النواحي من بلاد الهند أي قبطان ماهر في البحرية منذ عهد آدم وحتى الآن، إننا نأمل أن تنضم ولاية الكجرات إلى الدولة العثمانية في أقرب وقت بإذن الله، ولتعملوا على انتزاع تلك الأراضي والمواني الهندية من أيدي الأعداء الكفار.

وقبل قليل نصّب سلطان الكجرات المرحوم السلطان بهادر الأمير أحمد الذي كان شاباً في الثانية عشر من عمره سلطاناً على الكجرات.

---

(١) يقصد الدولة العثمانية.

وعندما جلس السلطان الجديد على العرش ووزع منحة جلوسه على العرش، لم يرضى الخان الكبير المعروف باسم ناصر الملك بسلطنته، وأدعى السلطنة، وجمع العديد من الرجال حوله وأخذ قلعة بروج ووضع بها الجند، وكان هو يجلس في مكان ما في حالة اجتماع دائم.

وأرسل رسالة وبعض الرجال إلى قائد قوات الأعداء في كوريا "غوور نادور" وقال له: " إذا ما ساعدتموني ستكون دامان أي سرت وبروج وكتبايه وسومنات ومنكلور وفرمايان لكم، وتكون قرصي لي ".

تحرك السلطان أحمد أيضاً بجيشه إلى بروج، وبينما كانت الحرب على وشك البدء، سمعوا بقدومنا فأرسل السلطان أحمد رسولاً من عنده لنا، فأخذ قرابة المأتي جندي من رماة البنادق وغيرهم، وتحرك بهم صوب بروج، وفي اليوم الثالث من وصولنا إلى هناك أرسل لنا الكفار خمسة من قادتهم وقبطان بحريتهم على رأس سبعة سفن قليون كبيرة، وثمانين سفينة غراب، ولأنهم تلقوا الأخبار بأننا موجودين هناك بدأوا الحرب معنا، وقد نزلنا إلى الساحل وأسسنا خيامنا، وأقمنا المتاريس، وتجهزنا لحرب نحارب فيها ليل نهار طيلة شهرين.

اتفق الظالم المعروف باسم ناصر الملك مع الكفار للقضاء على هذا العاجز، ووعد بعض الفدائيين، وأرسلهم إلى خيامنا ليلاً، ولأن الحراس كانوا متيقظين فر هؤلاء الفدائيون هاربين، وفي المرة الثانية أرادوا أن يضعوا لنا السم في الطعام، إلا أن أمير قلعة سرت حسين أغا أخبر العاجز بهذا الترتيب أيضًا.

ونحن أيضًا كنا متنبهين؛ لذا لم يستطيعوا أن يوفقوا في مخططاتهم بإذن الله.

وتمكن السلطان أحمد من فتح قلعة بروج وأرسل خداوند خان وجهانكير خان بمجموعة من الأفيال والجند إلى سرت، أما هو فسار صوب أحمد أباد، وقضى هناك على حكم الأمير أحمد الذي كان أحد أقارب السلطان بهادر خان، وأعلن سلطنته هناك.

وبمجرد وصول السلطان أحمد إلى هناك ظهر له معارضون، ونشبت حرب كبيرة، وجُرح السلطان أحمد، وعندما سقط حسن خان أيضًا، وهو أحد الخانات الموجودين هناك فر هاربًا.

وجلس على العرش السلطان أحمد الذي كان سلطاذًا قبل ذلك، ولما توفي ناصر الملك من شدة حزنه ساد الهدوء والصفاء كجرات.

وعندما علم الكفار بذلك أرسلوا سفيرا من عندهم إلى خداوند خان فقال له: "لا عمل لنا معكم، ولكن عملنا الآن مع قبطان مصر"، ولكنهم لم يوافقوا على ذلك وردوا على هذا المطلب بعدم الموافقة، وقد أرادت الجنود التي معي قتل هذا السفير، ولكنني منعتهم من ذلك، وقلت لهم: " لنتصرف بحكمة إن لهذا المكان سلطانا، لننتظر العاقبة ". وأنشدت لهم :

نجاتي

لنصبر على هذا البلاء الذي أبتلينا به

ولننظر إلى أين سيوصلنا الله

ولو أن أحد عمال الآلات الكفار قد هرب من سفينة العاجز، وتمكن من الركوب في سفينة هذا السفير، وقال لهم: " عندي أخبار عن أوضاعهم، لحدث ما حدث، ولكن الجند الذين في السفينة تمكنوا من القبض على هذا الرجل، وسيق إلى القلعة وأعدم أمامها، وعندما علم السفير بهذا اعتراه الخوف".

ويوجد بتلك المدينة شجرة كالنخيل تعرف باسم شجرة التاري، يعلقون على كل فرع من أفرعها جرة للمياه؛ حيث يقطعون طرف الغصن، ويدخلون الجرة إليه، فتنهمر مياه لونها أحمر اللون داخل الجرة، إذا ما تركت تلك المياه في الشمس تتحول إلى خمر عجيب في وقت قصير، وتحت كل شجرة توجد خمارة؛ حيث يجلسون ويشربون.

وبعضاً من الجند فاسدي الجبلة يجلسون هناك، ويشربون، ويتفقون على قتل قادتهم، ويأتون وقت الفجر، وقد قام أحد المنحوسين ويدعى ياغمور(مطر) بسحب خنجره، وهجم على حسين أغا قائد الشراكسة، وعندما أراد بعض أصدقائه منعه جرح اثنين منهم، وقتل شخص يدعي الحاج مامي.

أتى الجنود وقالوا لي:"لنتصرف في شأن هذا الرجل"، وعندما قلت لهم إن لهذه الولاية حاكم، وليس لنا حكم نافذ بها، وفي الصباح بمشيئة الله نخبر أهل الحكم فيها بالأمر، قالوا لي: "إن سلطاننا حكمه نافذ في كل البلاد، وأنت قائدنا الذي تصدر الحكم الشرعي، ونحن علينا التنفيذ"، فقرأت عليهم الآية الكريمة : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]، وعندما قلت يجب قتله لأنه قتل، قتلوه على الفور، وقد عمل هذا على تسكين الغاضبين الآخرين الذين رأوا الحادثة، وهنا يظهر المعنى الموجود في الآية الكريمة: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وهدأ كل شخص، ولما سمع الكفار بتلك الحادثة أخذوا الكثير من العبر والعظة منها، وفي تلك الأثناء ركب السفير العربة على الفور، وسار في الاتجاه الموجود به السلطان أحمد.

وزّع خداوند خان راتبًا يقدر بخمسين أو ستين أقجه على كل جندي، كما وزع عادل خان نفس الراتب على الأهالي الموجودين في بروج.

فلم يرَ الأهالي الرواتب منذ قرابة العامين، وبدأوا يثيرون المشكلات.

لم يعد معنا ما يطلق عليه طعام، كما لم يبقَ معنا أي شيء من المعدات والمستلزمات، وبليت السفن.

فلم يكن هناك إمكانية للذهاب إلى مصر بمعظم تلك السفن بعد تلك الرحلة.

**فأنشد بعضهم هذا البيت:**

الشيخ سعدي[1]

بالرغم من أن في البحر عدة فوائد فإن السلامة في البر

**وأنشد بعضهم هذا البيت :**

أيها الفلك هل السفر بالبر

أمر متعقلاً اختر الرحلة البحرية

والحاصل أن كل واحد منهم قال شيئًا في نفس المعنى، ونهاية الأمر ولّى معظم البحارة في ولاية كجرات هاربين، وبينما كانت السفن على وشك الإرسال إلى خداوند خان الموجود في قلعة سرت بالرايات، وكافة الأشياء الأخرى، أخذوا سندات الدين من خداوند خان، وعادل خان.

---

(١) هو سعدي جلبي تاجي زاده. توفي في استانبول عام ١٥١٦م. ابن الخطاط والشاعر الأماسيوي تاجي بك. كان مدرسًا، ونُفي إلى مصر بسبب هجائه للسلطان سليم الأول؛ لأنه أعدم أخيه. ولكنه عاد إلى استانبول مرة أخرى بعد فترة. له باللغة التركية ديوان- المنشآت. وشعر ونثر باللغة العربية. وله كتاب شرح الوقائع، وكتاب شرح المفتاح. انظر: Türk Ansik, Ank ١٩٨٠, c. ٢٨, s. ١٤.

وخرجت إلى الطريق متوكلاً على الله برفقة كل من مصطفى أغا كتخدا إنكشارية مصر، وعلي أغا قائد جنود البنادق، وخمسين رجلاً يصلحون لهذا العمل من العبيد الذين يتعيشون، ويأكلون من طعام حضرة السلطان التابع له هذا العاجز.

الشيخ نظامي[١]

من المحقق أن لكل عسر يسراً، وابتهج أيها القلب، فهذا كلام الله.

خرجنا إلى أحمد آباد في أوائل شهر المحرم من عام ٩٦٢هـ[٢]، وبعد عدة أيام وصلنا بروج،

(١) هو نظامي الكنجوي، ولد في كنجه عام ١١٥٠ وتوفي بها عام ١٢١٤م. أحد أكبر شعراء إيران. كان يتقن اللغات الشرقية. أظهر الحكام أعجاباً كبيراً بأشعاره، ومنحوه أموالاً كثيرة بسبب ذلك؛ الأمر الذي جعله ثري. من أعماله: مخزن أسرار ٢٤٠٠ بيت. خسو وشيرين ٥٧٠٠ بيت، قدمها لأرطغرل الثاني. ليلى والمجنون ٥١٠٠ بيت قدمها لجلال الدولة شاه شيروان. هفت بيكر ٥٦٠٠ بيت قدمها للأمير سنقر. اسكندر نامه ١٠٨٠٠ بيت قدمها لنصرة الدين أبو بكر حاكم أذرييجان. الديوان ٢٠٠٠٠ بيت، وهو عبارة عن رباعيات وغزليات. وله المحنة ٢٩٦٠٠ بيت. انظر: Türk Ansik, a,g,e, Ank ١٩٧٧, c. ٢٥, s. ٢٩٧. وللمزيد من المعلومات عن نظامي الكنجوي وأهميته في دراسة الآداب الشرقية انظر: عبد النعيم حسنين، نظامي الكنجوي، القاهرة.

(٢) الموافق ١٥٥٤م.

وبعد عدة أيام أخرى وصلنا إلى بلودرا، وواصلنا مسيرنا صوب جامبانور. وقد رأينا الأشجار العجيبة في الطريق، على سبيل المثال تلك الأشجار التي تصل قمتها إلى عنان السماء، وبين كل غصن من أغصانها مسافة ١٤ إصبع، على كل شجرة منها عدد لا حصر له من الوطاويط (الخفافيش).

تنحدر جذور هذه الأشجار من أعلى إلى أسفل، وتنبت شجرة جديدة من المكان الذي تنزل فيه على الأرض، وعلى هذا يمكن أن تتكون شجرة واحدة من عشرة أو عشرين شجرة أو حتى أكثر من ذلك.

يطلق على هذه الشجرة هنا اسم طوب، ويمكن أن يستظل الآلاف الرجال تحت ظل الشجرة الواحدة منها، لم يكن في الطريق سوى الزقوم.

ولا حصر لأعداد طائر البغبغان في ولاية كجرات، وتعد هذه الأماكن أيضاً من الأماكن التي ينمو بها القردة. فكل يوم وفي أي مكان كنا نعسكر فيه كانت القرود تلتف حولنا، ومعظمها كان يحمل في يده صغارها، كانوا يقومون بحركات عجيبة. وكما هو موجود في حكاية جهانشاه أنها في وقت المساء تعود إلى أماكنها.

وخلاصة القول أننا بعد جفاء وعناء وصلنا إلى مدينة محمود آباد، وفي نهاية الخمسة عشر يوماً وصلنا إلى أحمد آباد مركز كجرات، وتقابلنا مع السلطان ووزيره عماد الملك، ومع الخانات الأخر، وقدمنا هديتنا المتواضعة للسلطان أحمد، وكنا مظهراً لإحسانه وإكرامه، وعرض كامل إخلاصه وانقياده لحضرة سلطان العالم، وأحسن على العاجز بجواد وبغل وناقة والنفقات.

وقمنا بزيارة الشيخ أحمد المغربي في المكان المسمى جركش بالقرب من أحمد آباد.

وذات يوم اجتمعت مع سفير الكفار في قصر عماد الملك الوزير الأعظم للسلطان أحمد، فقال عماد الملك للسفير نحن في احتياج للسلطان العثماني، وإن لم تذهب سفننا إلى موانيه ستكون بلادنا كسابق عهدها القديم، كما أنه سلطان الإسلام، فهل يكون من الصواب أن تتطلبوا منا قبطانه، وعندما قال ذلك أخذت الحمية والغيرة العاجز فقلت :

" أيها الملعون لقد وجدتموني بأسطول محطم فاسد، وفي أقرب وقت إن شاء الله لن تدوم لكم هرمز وديو؛ بل وكوه أيضاً، وذلك بفضل حضرة السلطان ملاذ العالمين"، وأنشدت الأبيات التالية:

نسير فوق البحر نبحث عن العدو فنجده

فأجاب الكافر قائلاً: "من الآن لن يستطيع أي طائر أن يطير من موانئ الهند".

فقال العاجز: "ليس من الضروري الذهاب بطريق البحر -إن شاء الله- لو أذن الله لنا سيكون المسير من الطريق البري أسهل"، وعندما قال ذلك لم يتحدث الكافر وانصرف.

وبعد عدة أيام اقترح السلطان أحمد على العاجز ولاية بروج، وعيّن لي العديد من الإقطاعات، ولكني لم أوافق، وقلت له: لو أعطيتني ولاية الكجرات كلها لن أبقى. وفي أحد الأيام رأيت الإمام علي كرم الله وجهه في المنام، وكان أمامي قطعة من الورق مكتوبة.

وقال: هذه رحمة الله معك، فلا تخف، وإنه لو لم تكن عناية الله معنا لفرت منا مياه كل الولايات.

وفي الصباح التالي قصصت على أصدقائي تلك الرؤيا، فشكروا الله جميعًا، وخرجوا جميعًا لحضرة السلطان، وطلبوا منه الإذن بالخروج، وأعطوا الإذن من رعاية السلطان صاحب السعادة.

وكان بتلك المدينة جماعة تعرف باسم (البات) من أعلم كفار البانيان[1] الموجودين بالمدينة، كانوا مسئولين عن نقل التجار وخلافه من مدينة إلى أخرى، وكانوا يتقاضون أجر زهيد مقابل هذا.

وهذا يعني أن كفار الراشبوت أي فرسان الهند إذا ما أرادوا التعرض بالهجوم على أي قافلة، فإن هذه الجماعة تقف لهم، وتهدد من يحاول التعرض للقافلة بالقتل، وبذلك تمر القوافل بسلام، وفي حالة تعرض القافلة للهجوم فإن هؤلاء البات يقتلون أنفسهم بأيديهم.

---

(١) البانيان هم عبدة الأوثان بمختلف أشكالها، وبخلاف معابدهم الكبرى يوجد لهم معابد صغيرة في الطرقات تفتح على الطريق وكأنها حانوت، ينيرون تلك المعابد بالليل، ويجلس الرجال في ناحية، والنساء في ناحية أخرى، ويقوم قسم منهم ويغنون بواسطة =البيانو اليدوى المسمى (آرمونيفلوت)، والأصنام كلها على أشكال قبيحة، ومعظمها على شكل الحيوانات، ويضع معظم البانيان على خصورهم وفي وسط جباههم علامات أحياناً تكون حمراء وفي حجم البندق، وأحياناً بيضاء وصفراء على شكل ألفان (حرف الأبجدية الألف) أو ثلاثة، وهى علامات لتوضح المذاهب التي ينتموا إليها، بشرتهم سمراء، ويرتدون قميص طويل فضفاض حتى القدم يشبه الملاءة، ويلفون الطرف الأمامي هذا القميص من عند أفخاذهم، ويربطونه بالناحية الأخرى، وهم بذلك لا يرتدون لباس، ويوجد لهم بنطال ضيق، وأحياناً يلفون على البنطال قماشاً باللون الأصفر أو الأحمر، ويضعون على رؤوسهم طربوش صغير للغاية، ويكون مثلث أو دائري أحمر اللون يشبه القبعة التي ترتديها النساء الأوربيات ويطلقون عليها (قابوت)، وبعضهم يلف العمامة، وعندما يخرج البانيان إلى أعمالهم صباحاً لا يفتحون حوانيتهم، ولا يشرعون في أعمالهم وحرفهم؛ طالما أنهم لم يغسلوا وجوههم ببول بقرة تسير في الطريق؛ لذا توجد العديد من الأبقار الحمراء ذات القرون تتجول في طرقات أحياء البانيان، ويتجمع حولها مجموعة من الرجال ينتظرون تبولها. ويعتقد البانيان بتناسخ الأرواح، حيث يعتقدون بأن الشخص الذي يموت يعود إلى الدنيا في قلب حيوان، أما الأشخاص المقدسة فتعود إلى الدنيا في شكل أبقار. انظر: عالي بك، سياحت جورنالي، استانبول ١٣١٤، ص ١٠٩.

وكانت هذه الأصول بمثابة القاعدة المرعية عندهم، وإذا ما تعرضت القافلة للنهب والضرر، وقام هؤلاء البات بقتل أنفسهم. فإن هذا يكون بمثابة الوبال العظيم على الراشبوت في طقوسهم الباطلة، ويكونون سببًا في موت من قام بهذا، وكان أمراء الراشبوت الموجودين في تلك الولاية يقتلون كل من يتبعهم من أبناء وبنات.

وكان المسلمون الموجودون في ولاية أحمد آباد يؤمنون بهذا، فقد أرسلوا لنا اثنين من البات المذكورين، وحددوا لنا أجرتهم وخرجنا إلى الدولة العثمانية في أواسط شهر صفر عبر الطريق البري، وصلنا بالعربات إلى مدينة بوتان في خمسة أيام، وزرنا الشيخ نظامي شيخ بوتان، وكان صير خان وموسى خان أخوه يستعدان للقتال مع بولوج خان حاكم رادينبور الذي بدأ في جمع جنوده، وأراد أن يمنعنا من الذهاب إلى هناك؛ حيث قال لنا: إذا ما ذهبتم إلى هناك ستساعدونهم توقفوا هنا عدة أيام، وعندما قال وإذا ما سويتم شؤونكم فاذهبوا في أمان الله، لم يتركونا نسير إلا بعد أن أقسمنا بالله بأننا لم نأتِ لمساعدة أحد، وأننا سنسير في طريقنا فقط، وأنه ثمة فرمان من سلطاننا في أيدينا، وبذلك سمحوا لنا بالمرور

إن من يعزم الخروج إلى رحلة بيتان مع الهنود

ليعلم أنه انضم لحملة مليئة بالمخاطر

لقد احمرت عيناي من البكاء وأصبحت مثل العقيق

وقال لأرى من سيذهب إلى رحلة اليمن

لقد أصبح قلبي مثل كيس المسك المليء بالدماء

سأقوم بحملة خوتين فماذا سأفعل

اللهم اجعل لكاتبي نصيباً في العودة إلى بلاده

وأخيرا نجونا من هذا المكان وخرجنا في طريقنا، وفي اليوم الخامس وصلنا إلى رادينبور، وتقابلنا مع محمود خان، وأظهر لنا هو الآخر أنواع الجفاء، وسمح لنا بالمرور بعد أن أخذ ثلاثة من رفقائنا، وفي الطريق كان يوجد كفار الراشبوت، فقد أتوا لمساعدة الأمراء، وتسلمنا منهم رسالة هناك.

وعندما وصلنا إلى السند استأجرنا الإبل، وأعطينا البات الذين أتوا معنا من أحمد آباد أجرتهم، وعدنا.

# الأحدث التي جرت في ولاية السند

خرجنا إلى الطريق في غرة شهر ربيع الأول المبارك، وفي اليوم العاشر وصلنا إلى مدينة باركين إحدى مدن الراشبوت، وعندما هجم الكفار علينا، أظهرنا لهم رسالة الأمراء، وأعطيناهم بعض الهدايا، فسمحوا لنا بالمرور، ونبهوا علينا قائلين لتنتبهوا يوجد ما يقرب من ألف شخص من الراشبوت في الطريق".

وفي صباح اليوم التالي خرجنا إلى الطريق، وفي صباح أحد الأيام هجم علينا الراشبوت فجأة وأحدثوا ضجة كبرى،

وكما رأينا من أتوا إلينا هم الراشبوت

وأجاب أصحاب الإبل على مطالبهم بالرفض فقمنا على الفور بتجميع الإبل حولنا أخرجنا البنادق من كل ناحية، وعندما رأى الكفار البنادق أرسلوا لنا رجلاً من عندهم، فقال لنا لم نأتِ إلى هنا لمقاتلتكم، ولكننا نريد الضريبة، فقلنا لهم إن أحمالنا عبارة عن أدوية وخرز، وقد دفعنا لها ضريبة، ولكن إذا أردتم أن تأخذوا ضريبة أخرى أعطيناكم إياها، فانسحبوا جانباً، واستكملنا طريقنا.

وفي اليوم الخامس عشر وصلنا إلى ريكستان وسرنا في الصحراء، وذات يوم وصلنا إلى مدينة باسم وانكه على حدود السند، وهناك اشترينا الإبل مرة أخرى، وفي اليوم الخامس وصلنا مدينتي جونه وباغ الفتح.

ولأن سلطان السند السلطان حسن ميرزا استمرت سلطنته على السند ٤٠ عاماً، وأنه في الخمس سنوات الأخيرة لم يستطع ركوب الجواد بقميصه، فإنه يبحر في نهر سيحون بالسفن، ويذهب إلى المكان الذي يريده من هناك.

وقد قام عيسى طورخان شاه السلطان في طوته عاصمة إيالة السند بقتل رجال السلطان حسن ميرزا، ووزع على جنوده خزينة قلعة نصرت آباد، وأمر بقراءة الخطبة باسم السلطان همايون[١]، وضرب على النقارة.

فقام السلطان حسن ميرزا بتعيين أخيه من الرضاعة السلطان محمود قائداً عاماً على الجند البرية، أما هو فقد سار بنفسه على رأس ٤٠٠ قطعة بحرية إلى الأمير عيسى، وعندما تلقى الأخبار بقدومنا إلى هناك، أرسل لنا رجلاً من عنده واستقبلنا بالاحترام والرعاية، والتقينا به في بدايات شهر ربيع الآخر.

وعندما قدمنا بعض هدايانا المتواضعة أكرموا هذا العاجز وأحسنوا إليه، وقدموا له الخلع المختلفة، وأطلقوا علينا اسم جيش الغيب.

---

(١) هو ناصر الدين همايون ابن ظهير الدين بابر شاه، ولد عام ١٥٠٨م في قلعة كابل. تولى الحكم مرتين؛ الأولى: من عام ١٥٣٠ إلى عام ١٥٤٠م، والثانية: من عام ١٥٥٥م إلى عام ١٥٥٦م. انظر: Hakkı Dursun Yıldız, a. g. e , c. ٩, s. ٤٧٧.

وقد اقترح على العاجز أن يأخذ مدينة لاهور التي تعد مركزًا تجاريًا لهذه المنطقة، ولكني رفضت، فقال لي: ستذهبون بسلامة الله وأمنه بعد فتح تلك القلعة إن شاء الله، وكتب رسالة إلى السلطان.

والنتيجة أنهم ساقونا إلى الحرب مع مير عيسى، وتوسل المسلمون، "لا تلقوا بقذائف بنادقكم علينا فنحن أقوياء، وإخواننا وأبنائنا كثيرين؛ حقيقة لقد كان كما قالوا.

وتقابلنا مع الشيخ عبد الوهاب من مشايخ السند، وحصلنا منه على الدعاء، كما زرنا الشيخ ميرين والشيخ جمالي، وتحاربنا مع مير عيسى قرابة الشهر، واستخدمت المدافع، وقتل الكثير من الطرفين.

وتته عبارة عن جزيرة، ولم يكن فتحها ممكنًا لعدم تمكننا من جلب المدافع إليها، وفي النهاية تدخلنا بينهم، وعقدنا الصلح. وامتنع المير عيسى عن قراءة الخطبة باسم السلطان همايون، وعن النقر على الدفوف.

وأصبح تابعاً للشاه حسن ميرزا، وأرسل ابنه مير صالح بالهدايا إلى الشاه، وفي المقابل أعطى السلطان حسن ميرزا ما تبقى في خزينة القلعة لمير عيسى ليوزعها على جنوده.

وأصبحت هذه الولاية عاصمة لمير عيسى، وأرسل وزيره الملا ياري بالطوغ والطبل والفرمان والعهد نامه، وألبس الخلعة للأمير أرجون، والأمير طورخان اللذان كانا تابعين للأمير عيسى، وكانا في الحبس، وألبس الخلعة أيضاً لعشرة من الأمراء التابعين له، وأطلق سراحهم، وعلى الفور قام المير عيسى بإرسال الحاجة بيجوم زوجة الميرزا إليه.

وفي بدايات شهر جمادى الأول خرج السلطان محمود عن طريق البر، والشاه حسن ميرزا بالسفن إلى منطقة تسمى بكر.

وعندما أتت زوجته توفي الميرزا في اليوم العاشر من شهر جمادى الأول. ويتردد على ألسنة الناس هناك أن زوجته هي التي قامت بقتله بالسم.

حمدي

لو أنت رجل لا تثق بالنساء

فقد طالت يد النساء حتى الأنبياء

وعلى الفور قسّم السلطان محمود أموال الميرزا إلى ثلاثة أقسام، فأعطى قسماً لزوجته، وقسماً لمعلمه وقسماً لمير عيسى، ونقل نعشه إلى طوته، وركبنا نحن أيضاً في سفينته، وأخذ جواده وناقته ومتعلقاته الأخرى، وخرجنا صوب بركة بطريق البر.

وعندما اتجهت جنازة الميرزا بخمسين سفينة إلى بركة، قام الجند بنهب السفن الأخرى وفروا هاربين، وهجم الجغتاي من كل حدب وصوب للنهب، واستخدمنا البنادق ضدهم، وتمكنا من الابتعاد عن هذا المكان بصعوبة بالغة، وسرنا مقدار عشرة أيام.

وصلنا المدينة المسماة ناصر بور، وكان أمراء الراشبوت قد نهبوا تلك المدينة، فقد علمنا ونحن هناك بأنهم قد نهبوها.

وقد ذهب المير عيسى خلف السلطان محمود بعشرة آلاف رجل، وعندما قال ابنه أنه سيتبعه بثمانين قطعة بحرية، فكرنا فوجدنا أنه من الصواب الرجوع، واجتمعنا هناك وقرأنا سورة الإخلاص إحدى عشر ألف مرة لدفع هذا البلاء عنا، وعدنا إلى ناحية تته، وتقابلنا في اليوم الثالث مع المير صالح في البحر، وذهبنا إلى سفينته ببعض الهدايا.

فسألنا إلى أين أنتم ذاهبون ؟ فقلنا: إن والدكم المير عيسى ذهب، ونحن أيضًا ذاهبون، فقال: إن عيسى قد ذهب عليكم بالعودة.

وعندما قلنا له: إننا لن نستطيع الذهاب لعدم وجود بحارة معنا أعطانا خمسة عشر بحارًا، وعدنا من فورنا، وبعد أن سرنا عشرة أيام في الطريق وصلنا ذات يوم إلى إحدى قصبات السند، وتقابلنا هناك مع المير عيسى، وكان الأمراء الموجودين بجوار الميرزا هناك أيضًا، وعندما أظهروا أنهم منحازون للصلح ولا يرغبون في القتال أكرمنا مير عيسى، وأظهر لنا خالص رعايته، وتركنا أحرارًا

وقال لنا: لتبقوا معنا عدة أيام، وسوف نرسل المير صالح معكم إلى السلطان الهمايوني، لتذهبوا سوياً، لأن السلطان محمود لن يترككم من بكر، وهو ابن فرح ميرزا، ولا يزال حب تطلعه إلى السلطنة في رأسه، ولكني لم أوافق على هذا الاقتراح، وقلت: " لتعطوا لنا الإذن بالذهاب، ولترسلوا معنا السفن، ولترسلوا معنا سفيراً، وإن شاء الله سوف يقرأ الخطبة باسم السلطان، ويكون الصلح بينكم.

ومع الإصرار المستمر سلمني السفن السبع التي في يده، ومنحنا بحاراً وأرسل معنا السفير، وكتب للسلطان الهمايوني بما حل على رؤوسنا من أهوال، وخرجنا إلى الطريق.

وشاهدنا التماسيح الضخمة ونحن في الطريق، ولم نستطيع التجول على الساحل ونحن متفرقين عن بعضنا.

وكنا نصطدم كل يوم بأهالي سيمجه وماجي، وفي النهاية تمكنا من الوصول إلى سيام بعد عدة أيام.

وسرنا من هناك إلى قلعة بركه عبر طريق باطرى ودوبله، وتقابلنا هناك مع السلطان محمود والوزير المولا ياري وزير المرحوم الميرزا.

قدمنا الهدايا إلى السلطان وتحدثنا معه، وأخبرنا السلطان بأنه سيقرأ الخطبة باسم السلطان همايون، وكان بينه وبين مير عيسى بعض الخلافات، فتم الصلح بينهم، وقيل في موت الميرزا:

لقد كان (الشاه حسن) شاه السند وليًا

حان أجله، وتجرعت روحه شراب الخلود

وأصبح وجوده صوتًا يأتي من الغائب

وهذا يعني أن شخصًا كهذا لم يكن موجودًا في الدنيا

لتكن جنة الفردوس مأواه ٩٦٢[١]

وقد أعُجب السلطان محمود بهذا الشعر الذي نُظم، واتفق مع تاريخ وفاة الميرزا كثيراً، فقلت غزليتين أخريين؛

**الأولى :**

لم أكن أعرف أن الفراق سيدوم طويلاً هكذا

حتى أن هذا لم يرد بخاطري

لقد جعلني عشقك في النهاية مجذوباً

فلو بقيت لي لن أترك أبداً

يا نور عيني لو بكى ألمي لك فلن أمسح هذا الدمع

لو أني أعرف أنك سترفضني في النهاية

---

(١) الموافق ١٥٥٤م.

لما أتيت إلى عتبتك

لو يعرف كاتبي من أين يأتي نار عشقه

فإنه لن يخشى من شيء مطلقاً على حبه

**الثانية:**

أي مكان دون الحبيب يكون لي كبيت الحزن

أيتها الدنيا افترقي عن الحبيب الجميل مثل يوسف

فأنت لي مثل الزنزانة

وطالما أن العدو افتقدني في سبيله فلن يكون لك

وقول كهذا افتراء علي لأنه لن يعتد بعشقي

ماذا يحدث لو أعطيتني من شراب شفاتك، ولو أخذت أنت روحي

يا طبيب قلبي لو كانت لديك القوة على أن تمنحني من شراب شفتاك

فسيكون من السهل علي منحك روحي

لقد أثبتم أنكم لا زلتم تفكرون في عبدكم كاتبي

بالخيول التي أعطيتموها إياه

يا أميري إن ما أنعمتم به علي من نعمة إحسان عظيم لي

عرضت هذه الغزلية على السلطان وطلبت منه أن يأذن لي بالرحيل، فوافق على مطلبنا، وكتب رسالة لحضرة سلطاننا العظيم.

ولكنه قال لنا: "إن بهادر سلطان ابن حيدر سلطان أحد سلاطين الأوزبك جمع آلاف الرجال حوله على طريق قندهار، ولا يسمحون لأحد قط بالمرور، كما أن هذا الوقت هو وقت هبوب رياح السموم، ولا يمكن المرور من تلك النواحي في الوقت الحالي، فلتبقوا هنا عدة أيام، وسنرفق بكم مجموعة من الرجال يذهبون معكم على طريق لاهور، ولتنتبهوا جيداً لأن طائفة الجد توجد هناك".

لهذا بقينا هناك أكثر من شهر، وفي أحد الأيام رأيت والدتي في الرؤيا وكانت تفكر في السيدة فاطمة رضي الله عنها، وأخبرتني بأنني سأصل بسلامة الله، وفي الصباح بشرت من معي وذهبت للسلطان محمود وقصصت عليه الرؤيا، وعندما قال بهذا ستذهبون بالتأكيد، سمح لنا بالذهاب، وأنعم علينا بجواد أصيل وناقة وخيمة، ومستلزمات الطريق، ومائتين وخمسين فارس من فرسان السند، وكتب خطاب للسلطان همايون يعرض فيه طاعته.

وفي أواسط شهر شعبان المبارك خرجنا للطريق، ووصلنا إلى قلعة مار عبر طريق سلطان بور في اليوم الخامس لرحيلنا، وقد فضلنا الذهاب عبر طريق الصحراء نظراً لأن طائفة الجند كانت موجودة في طريق الغابات.

وفي اليوم التالي بحثنا على الآبار فلم نجد ماء، ووصل بعض الرجال إلى درجة الموت بسبب قلة المياه ورياح السام، وأعطينا لكل واحد منهم الترياق الفاروقي، وأنقذناهم من هذه الحالة بصعوبة بالغة.

ولأننا رأينا الوضع هكذا، تركنا طريق الصحراء وقلنا (الغريب كالأعمى)، وبناء على ذلك رجعنا إلى قلعة مار، وقد شاهدنا في تلك الصحراء التي ذكرناها نمل كبير كالعصافير، ولكن السنديون الذين كانوا بصحبتنا كانوا يخافون من السير عبر طريق الغابات، ولكني كنت أسري عنهم، **وأنصحهم بتلك الأبيات:**

الشخص الذي لديه القدرة على ضرب العديد من

الأسود على الأرض إذا ما أعطى للعدو شيئًا

فإنه بذلك يكون ذو تدبير لو نكون نحن واحد والأعداء

كثيرون فلن يتغير شيء وتكفينا الآية الكريمة

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ونظمت الجنود التي معنا على أن يكون عشرة منهم في المقدمة، ومثلهم في المؤخرة، والباقي في الوسط، وعندما سرنا في الطريق متوكلين على عناية الله التي لا حد لها، تشجع السنديون، ودخلوا الغابة معنا، ووصلنا إلى أوجي بعد عشرة أيام غاية في التعب والمشقة، وتقابلنا هناك مع الشيخ إبراهيم، وحصلنا منه على الدعوات، وزرنا الشيخ جمالي، والشيخ جلالي، وبعدها خرجنا للطريق في بداية شهر رمضان المبارك.

وعندما وصلنا إلى نهر قاره ربطنا الصنادل وعبرناه وهناك تركنا السنديين الذين معنا أحراراً، ومن هناك ذهبنا إلى آب ماجورا، وعبرنا من هناك بالسفن أيضاً، وكان يوجد هناك ما يقرب من ٥٠٠ شخصاً من طائفة الجد، ولكنهم خافوا من البنادق التي معنا، ولم يستطيعوا أن يفعلوا لنا شيئا، وسرنا من هناك وفي الخامس عشر من شهر رمضان وصلنا مدينة ملتان.

## في بيان الأحداث التي جرت في بلاد الهند

في بادئ الأمر قمنا بزيارة أضرحة المشايخ الموجودة في مدينة ملتان، وهم: الشيخ بهاء الدين زكريا، والشيخ ركن الدين، والشيخ صدر الدين -رحمهم الله جميعاً-، وتقابلنا مع الشيخ محمد راجو ودعا لنا بالخير، كما تقابلنا مع مير ميران، وميرزا حسن سلطان، وبعد أن حصلنا منهم على الإذن بالرحيل خرجنا إلى لاهور، وعندما وصلنا صاد جيرا تقابلنا مع الشيخ حامد ودعا لنا، ووصلنا لاهور في غرة شهر شوال.

وعندما توفي سليم شاه ابن شير خان سلطان بلاد الهند، أصبح إسكندر خان سلطاناً، وعندما سمع السلطان همايون بذلك سار إلى الهند عن طريق كابل، وسيطر على لاهور في البداية، ووضع بها مجموعة من الجند، وتقابل مع إسكندر خان أمام مدينة سرهند، وهجم عليه، وحصل منه على أربعمائة فيل، وأربعمائة عربة، وفر إسكندر خان هارباً، واحتمى بقلعة مانقوت، وجمع مجموعة من الرجال حوله، وعين الشاه أبو المعالي أحد أمراء كشمير قائداً على الجيش، وسار هو خلفهم، وقد وصلنا إلى لاهور في نفس الوقت التي كانت فيه كل القوات على وشك القتال في كل ناحية، ولم يسمح لنا حاكم المدينة ميرزا شاه بالمرور،

وقال لنا: إن لم تذهبوا للسلطان فلن تذهبوا من هنا، وأخيراً عرضنا حالنا على السلطان، وأتى الأمر الهمايوني قائلاً: لترسلوهم إلى الجيش الهمايوني.

وقضينا هناك قرابة الشهر، وفي النهاية هرعنا جميعاً إلى السلطان، وطلبنا منه أن نرحل بشكل سريع، عبر السلطان البحر بالسفن، وسار مقدار عشرين يوماً عبر طريق حصار فيروز شاه، وفي نهاية شهر ذي القعدة وصل إلى عاصمة بلاد الهند مدينة دلهي، وعندما وصل السلطان إلى هناك اجتمع كل الخانات، والسلاطين، وآلاف الرجال، ومعهم ٤٠٠ فيلا لاستقبال السلطان همايون، وفي هذا اليوم أُرسل للعاجز أيضاً جواداً، وخلعتان، وبعض مستلزمات الطريق، وأقام الخان خانان مأدبة كبيرة في هذا اليوم، ولأن الديوان في بلاد الهند ينصب ليلاً، فقد حضر السلطان همايون إلى الديوان مساءً بكامل الاحترام والتبجيل.

وإذا قلنا إن الهدايا قدر من يهدى، فقد قدم العاجز بعض الهدايا المتواضعة، وعندما التقينا السلطان نظمنا له بمناسبة فتح بلاد الهند:

أيها الشخص الطيب الحظ إن رتبتك هي رتبة حكام إيران

وبلاد الهند التي حكمت على الأقاليم السبعة من أجل الذي أشعل النار

فهو الذي أحرق أفغانستان وهدمها واستولى على دلهي

وقد توافق تاريخاً على هذا الفتح هو طالع الدولة الهمايونية ٩٦٢هـ[١]

وعرضت عليه غزليتين أيضاً:

إن لم يتألم الحبيب على ألمي فأين سأجد العلاج لألمي

أيها القلب إن لم يكن لي نصيب، فإن الله كان لن يكتب وصولي إليه

أيها الحبيب لقد مرت من نفسي حمرة شفاتك

ولن تطبع على شخص غيري

فهل يليق بك أن تتركني وحدي في الغربة

---

(١) الموافق ١٥٥٤م.

وتنفصل عني في أي وقت وأنا مفعم بالآلام

وعندما يرى كاتبي وجهك الذي يعرف ألف لهجة

فلتجعلني عبداً يرفه عن هذا القلب اللطيف

أما الغزلية الثانية فهي:

اشتقت لوجه الحبيب؛ أو أنني ليس لدى أمل قط في رؤيته

لا أريد الجنة، أي لا أريد الحبيب؛ بل أنا عاشق لوجهه فقط

يا طبيب قلبي المريض حلاوة شفتيك شفاء لألم من يعرف

أنه شفاء للمرض، فعشق الحبيب سلبني عقلي وفكري وصبري

وشعوري، لقد أصبحت في وادي الهجران، ومهما تفعل فأنت حبيبي

لا تلق بسوء وجهك كرقيب على مجالس الدولة،

فلن أضجر من هذا السوء أيها الساقي

يا كاتبي إن الشعر جميل للسلطان، وأنا أشكره بشفة الحبيب

ابتهج السلطان كثيراً بتلك الغزليات، وعندما طلبنا منه الإذن بالرحيل لم يرض، واقترح على العاجز وظيفة جامع الخراج، كما اقترح على كل واحد من رفقائي إقطاعاً بمائة ألف أقجة، ولكن العاجز لم يوافق على هذا، وطلب الإذن بالرحيل. فأصر السلطان على أن نبقى عنده سنة أخرى، ولما رأيته يصر على طلبه قلت له: لقد أبحرت بموجب الأمر الشريف لسلطاننا صاحب السعادة، وتحاربت مع الكفار المنحوسين، وتعرضت في المحيط الهندي لعاصفة طوفان الفيل، ويلزم عليّ أن أذهب لباب الدولة؛ حتى أخبر السلطان بأحوال الكفار المنحوسين"، وعندما قلت له: "نأمل أن تنجو ولاية الكجرات من أيدي الكفار"، قال: "لنرسل سفيراً من عندنا إلى حضرة السلطان ليعتذر له نيابة عنك"، فقلت له: "ميرك"، قال فخر الأنام والأمم: "اتقوا عن مواضع التهم".

فقال: "ليس لي خيار في هذا، إن هذا الموسم موسم المطر، وسيستمر ثلاثة أشهر، ولن يكون الذهاب ميسراً؛ لذا كان قصدي أن نُرسل سفيراً من عندنا للسلطان لنعتذر له، ونطلب منه الإذن، وحتى تنقضي تلك المدة قم بدراسة الكسوف والخسوف والزيج، ولتظهر الطريق بواسطة الإسطرلاب، ولتقرأ رسالة (دائرة المعدل)، ولو كان الذهاب ممكناً قبل الثلاثة شهور فلتذهب، وعاهدنا على ذلك، ولكننا انتظرنا هناك ونحن مضطرون، وانطبق علينا المثل القائل: (اليأس إحدى الراحتين)، ولكننا لم نرَ الراحة قط خلال تلك الفترة، فلم يكن ليلنا ليل، ولا نهارنا نهار، وفي النهاية قرأت الرسالة الذي أشار عليّ السلطان بقراءته من قبل، وأظهرنا الكسوف والخسوف بالإسطرلاب، وفي تلك الأثناء كان قد تم فتح اكرا بأكملها، واقتُرح على العاجز نظم تاريخ يتفق مع فتحها، فقال:

إن الغازي همايون شاه الذي طالعه سعيد

ترتفع راياته خفاقة في الأفاق

وصل إلى الهند وفتح دلهي، ونزل حتى مركز الدين

أخذ قلوب جنوده وبفضلهم خر أمامه العديد من الخانات

الشكر لله على هذا الفتح، وقد يسر الله دوام دولته

وتوافق تاريخا مع هذا الفتح مباركا على سلطان أكرا ٩٦٢ هـ[١].

أُعجب السلطان بهذا التاريخ، وذات يوما عرضت على السلطان أحوال السلطان محمود البكري، ورجوته أن يرسل رسالة أمان له، فوافق، وأرسل له العهد بالأمان، وختم بيده بالزعفران مكان الطغراء، وعندما وصلت للسلطان محمود كتب رسالة هو وزيره المنلا ياري للحقير، هذا هو فحواها :

---

(١) الموافق ١٥٥٤ م.

صورة رسالة السلطان محمود:

بعد السلام والاشتياق، إنني محروم من ملاقاة السلطان، والحديث معه الذي يجلب البهجة على النفس. وكنت أفكر وأدعو ليل نهار بما يلي: يا ربي لتجعل الصداقة بيني وبين السلطان صاحب النصر، وظل السعادة وقد تحدثنا في المجلس عن كل شيء، ودرسنا حتى أدق التفاصيل، وقلنا لنتحرك بما وصلنا إليه. وفي تلك الأثناء أتى شخص إلينا وكان يحمل التاج والخلعة والراية، وأعطانا فرمانكم وعهدكم بالأمان، وعندما رأى الفقير علامة يديكم الشريفة على الفرمان أدرك أن تلك السفارة هي علامة صدارتكم:

ياري

يد الزعفران قلبت لون يدكم

والمثل يقول: " الحاكم له حاكم أعلى منه "

وبحاشية هذا الفرمان مكتوب موقع من حضرة السلطان شخصياً. وأنكم قد كلفتم سيدي علي الرجل الأوحد لهذا الزمان بمهمة عرض الفرمان علينا. ومكتوب أنكم قد وافقتم، وإن شاء الله سيكون ارتباطنا هذا في الآخرة كما هو في الدنيا. وهذه صورة رسالة المنلا ياري.

صورة رسالة المنلا ياري :

بعد الدعاء والثناء أعرض عليكم ما يلي: لقد حرمنا من التقابل مع شخص محظوظ ومرتبط بالدولة قوي، جسور، أفكاره لامعة كالشمس، وربما لن يغفل عن النظر للحظة.

منلا ياري

لن تستطيعوا أن تصلوا لي لأنكم في الغربة

ولو تسألوا عن حالي فلن تستطيعوا أن تفعلوا شيئاً غريب

كما أنه لم يجلب الرسالة والعهد نامه، وقد بقيت فترة طويلة نائبا للسلطان في وادي الهجران. ويقول السلطان كل وقت " لقد رأينا فائدة كبيرة منهم. ولم نستطع أن نؤدي خدمتنا كما ينبغي؛ حيث كانت أخطاؤنا كثيرة، وأنهي كلماتي بتلك الرباعية حتى أقطع الشائعات، وأدعو لكم بالخير:

ياري

أيها الحبيب لا تتركني وتصادق الآخرين

ولا تجعلني مغترباً لفترة طويلة، ولا تسقطني من الاعتبار

لتنس كل الغفلة التي بدت من وجهي

وأنا لن أنسى ياري ولن أتركه

عُرضت رسالة المنلا على السلطان، فابتهج كثيراً من قول: " الحاكم يوجد حاكم أعلى منه"، واقترح على الحقير نظم رباعية مماثلة. كنت أرى أن هذا الوقت هو الوقت المناسب فقلت: "المأمور معذور والعذر عند كرام الناس مقبول"، ونظمت غزلية :

لو وجد الحبيب ذو الشفاه الحمراء في المجلس لحظة؛

يبكي الساقي دماً، وتنكسر الفرجة

ليتحدث أصحاب التقوى بالسوء عن ثمل العاشقين

دعك عنهم

فهذا الثمل عند العاقلين له عذره

أيها الزاهد لا تنظر إلى المظهر الخارجي للشخص

انظر لروحه، انظر للمعنى

فليسو رجالاً من ينظرون إلى المظهر

وإذا لم يتجرع كاتبي شراب الوحدة يوم الخلق

فكيف سيجد الذوق من وجودك

رأى السلطان الغزلية التي نظمتها، وأنعم عليّ بكثير من الإحسان، وكان يخاطبني قائلاً: "مير على شير الثاني"، فقلت: " إن العاجز ليس أهلا لمخاطبته بمير على شير الثاني، ولو كان في مقدورنا جمع السنابل لوافقنا على ذلك". فأظهر السلطان مزيداً من اللطف والإحسان قائلاً: " الكل يعلم بحق الله أنك أنسيت الجغتائيين مير على شير ".

وذات يوم وأثناء حديثنا اقترح أحد الأمراء المقربين للسلطان ويدعى "خوش حال"، وكان شابًا يافعًا مسئولاً عن سهم وقوس السلطان، اقترح هذا الشاب على العاجز أن ينظم غزليتين لتلك المناسبة، وعيّن لذلك الرديف والقافية، وقرأت بعده الغزليتين في مجلس السلطان:

هل تعرف كم يكون ذلك الوجه جميلاً

عندما تحمر وجنتيه من تأثير الخمر

المنادون سعوا وقالوا من ينفق عمره

في الطريق في سبيل الوصول إليك

الشفاه التي تحيي القلوب الميتة مثل الولي الذي يجد الروح

من يفتتنوا بالطرر وعيونهم تأخذ الألباب وغمزتهم تقتل العاشقين

شفاه الحبيب مثل الزهرة، فلماذا يمسك بها القلب

فالقلب ميال لكل زهرة تتفتح حديثًا

يا كاتبي لا تجعلني مجنوذًا بالعشق، ولا تجعلني عبدًا بالعشق

ولا تبكني فصدري مليء بقطرات الدموع الفضية.

**الغزلية الثانية :**

اغضب للكلمات ولكن لن يتلألأ عاشق السحر

أيها الحبيب ليس افتراء أن تشتم ما فعلوه

يا طبيب قلبي إذا لم تعط المريض من شراب شفاك

فلن يستطيع أي شخص أن يكون دواء لألمي

أليس عيب التصريح بكلمة العشق للعاشقين

ومن لا يذهب عقله في سبيل العشق ؟

خاطب بها الحبيب ولا تعلنها على الملأ

فليس صحيحًا رؤية الملك والشيطان كوجود

وفي عيد الوصال لتمنح له قوس الحاجب

فكل شخص لا يكون ضحية في سبيل عشقه

ليحول وجهه عن القبلة وليحترق خجلاً

وقد لقيت هاتين الغزليتين شهرة كبيرة في ولاية الهند؛ حتى أنهما أصبحا مثار الحديث عند كل الناس هناك. كما كان للسلطان أمير يدعى عبد الرحمن بك، كان شابًا له مكانة عند السلطان، ويتواجد بكثرة في المصاحبات الخاصة، ويشارك في الحديث، كما كان يتحدث في الشعر.

وقد نظمت غزليتين بهذه المناسبة؛ الأولى:

يتأوه العاشقون عندما يتلطف الحبيب ذو الوجه الجميل

لسان الحبيب ذو الشفة البرعمية الذي يغرد مثل البلبل

أيها الساقي؛ العاشق هو الذي يصدر أنينه بالناي

في مجلس الغم، وهو المتأوه مثل الناي

لتجعلني مع العالم بدون قيمة كالكلب، ولتعلي من قيمته

هو كاتبي زد من إحسان الحبيب على العاشق وقلل من كرمه

الثانية :

لقد منحني الخمر فائدة لأنه لون شفتيك

وزهرة النرجس تشبه عينيك إنها ساحرة فاتنة،

هل تستطيع أن تمحو الحيرة التي منحتها لي الخمر

يا صاحب الوجه الملائكي لو كان يمكن استدعاء

أحدهم بالدعاء لكنت أدفع المجاورين لك بالدعاء

يا صاحب الوجه القمري أغلق وجهك جيداً

يا ريح الصبا القادمة أزيلي الستار من الخلف

عندما رأيت قامتك انكببت ساجداً فيا ترى من ؟

يقولون إن الصلاة لا تجوز بدون ركوع أو سجود

يا كاتبي ليحترق قلبي ولن أقول ماذا يكون

احترق كل جسدي بنار الفراق

والحاصل أنني لم أتخلف عن المسامرة والمناقشة معهم ولو للحظة واحدة ليل أو نهار، ولم أنفصل قط عن السلطان.

وذات يوم سأل السلطان هذا الحقير قائلاً: أيهما أكبر ولاية الروم أم ولاية الهند ؟

فأجبته قائلاً: يا سلطاني إن كنت تقصد بالروم ولاية الروم التي مركزها سيواس، فحينئذ الهند أكبر، أما البلدان التابعة لسلطان الروم فالهند لا تمثل عشرها. وعندما قال السلطان: "أقصد كلها"، قلت له: "يا سلطاني على حد ما يذكر الحقير أن الإسكندر كان سلطان الروم، وقد حكم الدنيا، وملك أقاليمها السبعة، هذا بالإضافة إلى أن طول الربع المسكون ١٨٠ وعرضه ٦٦درجة من خط الاستواء، واتساعه على ما ورد في كتب الفلك أربعة آلاف و٦٦٨٦٧٠ فرسخ.

وعلى هذا فإن الانتشار بها كلها وحكمها ليس أمراً سهلاً، ولأن لسلطان الروم نصيب في كل تلك الأقاليم، فإنه يطلق عليه: "حاكم الأقاليم السبعة"، وعندما قلت ذلك سألني السلطان: "وهل لسلطان الروم حكماً في الأقاليم السبعة؟"، قلت له: نعم، له من الإقليم الأول اليمن، ومن الإقليم الثاني مكة، والثالث مصر، والرابع حلب، والخامس القسطنطينية، والسادس كفه، ومن السابع بودين وبتش. وبكل تلك البلاد نواب للسلطان وقضاة يحكمونها، وبخلاف هذا وطبقا لما سُمع من العاشقين قره حسن وخوجه بخش الموجودان في ميناء سرت في ولاية الكجرات –والله أعلم بحقيقة هذا– أنه قد حل العيد في ولايات الصين، وطلب الاثنان أداء صلاة العيد، ولأن كل طائفة طلبت أن تقرأ الخطبة باسم سلطانها، طلب العاشقان المتصوفان المذكوران أن يقرءوا الخطبة باسم سلطان مكة والمدينة. وبالرغم من أن خاقان الصين كافر، إلا أنه سمح لهم بقراءة الخطبة باسم سلطان مكة والمدينة. وقد ألبس العاشقان الخطيب الخلعة وطاف به المدينة على الفيل.

ثم أدوا صلاة العيد وقرءوا الخطبة باسم السلطان في الصين. وضع كهذا الذي شرحت، حدث لمن غير سلطان الروم ؟ فأنصف سلطان الهند في القول، وقال مخاطباً أقرانه وأمرائه: " حقا إن اسم السلطنة حق للسلطان صاحب الدولة، وليس حق للآخرين ".

وذات يوم سأل خان القرم العاجز بعض الأسئلة، وعندما أجبته قائلاً: "يمنح السلطان صاحب السعادة سلطتنه له". قال: "لقد سُمع أن الخطبة تُقرأ باسمه"، فقلت له: "يا سلطاني إن لسلطاننا امتياز عام عن بقية السلاطين الآخرين ألا وهو أنه يحسن بالسلطنة على صاحب الخطبة والسكة". وعندما قلت ذلك صدقوا على كلامي ودعوا للسلطان.

وفي أحد الأيام امتطينا جوادنا بهدف زيارة مشايخ دلهى مع السلطان، فزرنا الشيخ قطب الدين، والشيخ نظام الولي شيخ دلهي، والشيخ فريد الشكرنجي، ومير خسرو الدهلوي، وقرأنا أشعاراً من أشعار المرحوم مير خسرو على رأس الضريح، فقد أصر السلطان أن أقرأ من أشعاره شيئاً، وعندما قلت:

الشخص الذي يقنع بقطعة خبز هو أكبر

شخص وعلمه أفضل من كل سلاطين الدنيا

أظهر إعجابه قائلاً: نقسم بالله أن هذا أجمل. وهدفنا من ذكر ذلك لم يكن من أجل ذكر المطلع الشعري؛ بل من أجل إظهار تردد السلطان بين المطلعين، وقوله هذا أجمل. وفي أحد الأيام ذهبت إلى شاب من أمراء السلطان يدعى شاهين بك صاحب خاتم السلطان وكاتم أسراره. وأرسلت معه غزليتين كنت قد نظمتهم من قبل. الأولى :

يا صاحب الوجه الوردي إن القلب يزرف دمعه

كحبة الثلج، وكل سحر يذهب إلى قرية الروضة

ويبكي على حاله

يا صاحب الشفاه البرعمية احمرت الورود والبراعم

عندما رأت وجهك في الروضة

يا طبيب الروضة ماذا يكون لو التقت شفتك السكرية

على صدري الأسود للحظة ووجدت الدواء

ولأنني عرفت أنني عندما أراه ينثقب صدري وينسكب دمعي،

وقلبي ملئ بالدماء بألم الفراق لأنني انفصلت عنه

يا كاتبي تسير وأنت في مقدمة طريق العشق،

تستطيع أن تذم فرهاد والمجنون لأنهما هربا من طريق العشق

الثانية :

حاجب الحبيب يشبه الكمان برمشه

والوجنات الوردية على القلب الفضي تظهر علامته

يا من حواجبه كمان لا تتغير بالجمال،

إن كمان الرستميين وافت أجلهم، فقد اغتروا بجمالهم وقدرتهم.

لا تكن جانيا بهذا القدر لأنك ستموت يوماً

أيها الجميل لو يصبح قلبي بدون دواء من نار الفراق

فإن آهاتي تأتي إلى المرحمة وتحميه

يقيم العاشق سلماً ليذهب عليه لتقديم قلبه للحبيب

ويجعل كاتبي من دمعه الذي ينشره على خيوط القلب

هدية يقدمها للحبيب

كانت تلك الغزلية وسيلة لتضرعنا. فقد تضرعنا بلا حصر، وقد وعدنا السلطان بوعود كثيرة، وفي النهاية أخبرني بخبر مفرح حيث قال: "لقد صدر الإذن" هيا أخبر السلطان بحالك نظماً، وعلى الفور كتبت عرض حال وأرسلته وشرحت له فيه أنه قد حان وقت الذهاب. ونظمت لتلك المناسبة غزليتين: **الأولى:**

أيها القلب لو أن معك سعادة الحبيب ليقف

الحبيب المدلل اللعوب عند كلمته، يا صاحب

الوجه الملائكي لو أسحق على تراب الطريق

لو كان له رائحة العنبر، إن لم يكن أبيضاً

لو أذهبت نار الحبيب بعقلي

من رأسي لكنت أقبّل شفتيك

مسحت وجهي على عتبتك باكيًا

إن رأى دموعي فسينثر الإحسان

أيها الشاه الذي عرضت ارتباطي به

ماذا سيكون لو شرح كاتبي ألمه لك دون خوف

**الثانية :**

انتبه فأنت في بلاد الهند والأشخاص الذين

ينوون البقاء فيها معاتيه،

كل شخص تجول وساح في الأرض

قال إن الدولة العثمانية هي الجنة الحقيقة

أيها الشخص مريض القلب،

الوصول إلى هناك ورؤية وجه الأصدقاء
دواء لكل داء، انكب على قدم السلطان واطلب
الإذن منه، لأنه يحسن دائما على المنكبين
لو يميل بعض من لهم سجايا الأطفال للبقاء في الهند
لا تنضم لهم يا كاتبي لأنك رجل

وعندما رأى السلطان عرض الحال والغزليتين رق قلبه، وسمح للحقير بالخروج وأعطاه جواد وملابس، وبينما كنت على وشك الرحيل أراد السلطان أن يخرج للشعب وقت صلاة العشاء يوم الجمعة. وبينما كان السلطان خارجا من القصر أذن لصلاة العشاء، وكان من عاداتهم أنهم حينما يسمعوا الآذان يخرون جالسين على ركبتيهم. وفعلنا ذلك، وبينما كان السلطان يقوم بذلك سقط من على السلم فشجت رأسه وكسرت ذراعه واضطرب الأهالي، فاضطررت للبقاء هناك يومان.

وقد أرسلت الرسائل إلى كل النواحي تفيد بأن السلطان شفي وتعافى بحمد الله، وزعت الصدقات على الفقراء، ومُنح الجند الإنعام، وفي اليوم الثالث لسقوط السلطان انتقل من دار الشقاء إلى دار الرحمة. ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[ البقرة: ١٥٦].

وكان ابناه جلال الدين أكبر وحسن خان قد ذهبا قبل ذلك لرؤية الشاه أبو المعالي، وأخبرهم بجدية الموقف. وتأثر الجميع لأقصى درجة عندما كانوا في مجلس السلطان. وقد قلت لهم: "عندما توفي السلطان سليم - رحمة الله عليه- اتخذ بيرى باشا بعض الإجراءات السرية دون أن يُعلم الأهالي بموت السلطان، وذلك حتى جلوس السلطان صاحب السعادة على العرش؛ حيث عقد الديوان كما هو معتاد قديماً. ووزع المنح على الأمراء بسبب طاعتهم للسلطان، وامتطى الجواد ليذهب للسلطان، ولكنه تخلى عن ذلك قائلاً: "إن الطقس غير مناسب".

وفي اليوم التالي أعلن الأهالي أن اليوم "يوم تجمع" إلا أن الجنود غضبوا عندما أخبر المنجمون بأن تلك الساعة ليست طيبة.

وفي النهاية ألبسوا شخصاً من المصاحبين للسلطان، وكان يدعى منلا بتقيس ملابس السلطان؛ لأنه كان يشبه إلى حد كبير بالرغم من كونه كان أقصر قامة. وأجلسوه على العرش ثلاث أيام في إيوان يطل على البحر، ولفوا وجهه وعينه. وأتى خوش حال بك، وكل السلاطين، والأمراء، والرعايا، والعوام، وشاهدوا السلطان من شاطئ البحر ودعوا له، وعزفت الموسيقى. ومنحت الخلع، وبذلك علم الأهالي أن السلطان بصحة جيدة.

وفي اليوم التالي ذهبت لتوديع الأمراء، وبناءً على الأخبار الواردة بأن السلطان بصحة جيدة خرجت إلى الطريق متوجهاً إلى لاهور يوم الخميس أواسط شهر ربيع الأول، وذهبنا إلى مدينة سوني بت، ومن هناك إلى باني بت، ومنها إلى قرنال، ثم تناصير، ومنها إلى السمانية، وأخبرت قره بهادر الحاكم هناك بأن السلطان بصحة جيدة، وقد رآه الأهالي، وأجبت على كل من سألوني عن صحة السلطان بأنه بصحة جيدة.

ثم ذهبت إلى ماتشورا عن طريق سرهند، ومنها إلى بشاور، وعبرنا نهر سلطان بور بالسفن، واتخذنا طريقاً وعراً؛ حتى وصلنا لاهور مرة أخرى في غرة ربيع الثاني، وقد أصبح جلال الدين أكبر ميرزا سلطانا هناك، ووزع منحة جلوسه على العرش على الجند، وقُرأت الخطبة في لاهور وبعض الأماكن الأخرى باسمه. وعندما أخبرنا حاكم لاهور بأنه صدر أمر سلطاني بعدم ذهاب أي شخص إلى نواحي كابل وقندهار، لم يُسمح لنا بالخروج، لذا اتجهنا إلى كلنيور، وهي الناحية الموجود بها السلطان. ومن هناك وصلنا إلى المكان المقابل لقلعة منقوط، وتقابلنا مع السلطان جلال الدين أكبر، وحسن خان.

وأرسل الميرزا مولا بير محمد معلم بيرام خان وأخبرنا بما يلي: إن الوقت الحالي وقت فتور، وأنهم لو يستطيعوا الإقامة معنا عدة أيام، ليقيموا في أي مكان يختاروه في نواحي الهند والسند، وعندما قال الميرزا ذلك أخذ الفقير فرمانات السلطان، ونظمت غزلية تشبه المرثية والتاريخ بمناسبة موته. وعرضتها عليه:

يوجد طائر العنقاء في بلاد الهند

إنه همايون شاه

أصبح ذكرى وارتحل

عندما سُمع هذا الخبر المؤلم

قولوا إن تاريخ وفاته ٩٦٢هـ[١]

وعرضت تلك الغزلية لتلك المناسبة:

إن المطلب هو إيجاد سلطان الدنيا

وليس المشقة والقدر يا من له وجه القمر

احترس من أخذ آهة العاشقين، فمطلبي هو

الوصول إلى عتبة السلطان العثماني

وأن أكون سائلاً على بابه دائماً، يحكي

القصاصون الكثير عن سلطان الهند والسند

رفيقي في الطريق يريد أن يكون رقيباً

---

(١) الموافق ١٥٥٤ م.

عليّ في قرية الحبيب، يا إلهي احفظني من

رفاقته فهو لو قتلني اترك سفك الدماء

واطلبني لأن بغية الشخص هي

الوصول إلى السعادة التي يرمو إليها

يا من تعطى الجفاء لو تيسر لكاتبي الوفاء

عهده الذي أعطاه لك دون إيجاد

صحوة على القدر الذي أعطاه الرقيب

وعندما رأى الميرزا فرمانات والده ابتهج، ومنحنا الإذن، وعدنا إلى لاهور بأربعة آلاف رجل.

وتم القبض على الشاه أبو المعالي، وقيد وأرسل إلى قلعة لاهور، وحبس بها. وقد أهدوني سند ملكية لأحد الأراضي كهدية عن المرثية التي نظمتها، ومُنح كل واحد مثلها. اجتمعنا مع الأفراد في لاهور، وبدأنا نجهز استعدادات الطريق. وشاهدنا غرائب وعجائب في الهند، وهذه إحدى الغرائب التي رأيناها.

يطلق الكجرات على كفار تلك المنطقة (بانيان) ويطلق الهنود عليهم اسم (هندوس) وهؤلاء ليس لهم كتاب ويقولون بقدم العالم. وعندما يتوفى أحدهم يُحمل على ظهر صاحبه، ويضعه على ضفاف الماء ويشعل فيه النار، ولو مات الرجل وترك خلفه أنثى وكانت عجوز لا يحرقون هذا الميت، ولكن إذا طلبت الزوجة ذلك يفعلون. ولو أُحرقت المرأة بطلبها تقام لذلك الاحتفالات بين قومها. وهذه أيضا إحدى العادات الغريبة الموجودة هناك.

يوجد هنا غزلان مدربة، يضعون عند قرونها حبال، ويسيرون بها إلى جانب الغزلان البرية، وعندما تقترب الغزلان البرية من الغزلان المدربة بمقتضى الجنس إلى الجنس يميل، تقوم الأخيرة بإمرار الحبل من قرون الغزلان البرية وتوقع بها على الأرض، وكلما يتحرك الغزال البري، يُشد الحبل عليه بإحكام، ولا يستطيع الهروب، وبالتالي يمسكون به، ويصطادون الغزلان بهذه الطريقة في كل ديار الهند.

ويوجد الجاموس في الهند بأعداد كبيرة، وينتشر أكثر ما ينتشر في الصحراء، ويتم اصطيادها بالأفيال؛ حيث يقوم الرجال بصنع أماكن مستترة على الأفيال، يدخلون فيها، وتلف الأفيال في الصحاري، وعندما تقترب من الجاموس تسقطها على الأرض بسنتيها، وحينئذ ينزل الصيادون من الأفيال على الجاموس ويذبحونها، وقوة هذا الجاموس لا تضاهي الحيوانات الأخرى، ولو نطحت أي شخص يمتطي جواد تسقطه على الفور؛ حتى أنني سمعت من المرحوم السلطان أن أحد الجاموس البري نطح أحد الرجال فامتد الرجل المسكين على الأرض، وأقسم على أن كل جزء بجسده جرح من جراء ذلك.

وأفضل أنواع الجاموس يوجد في ولاية البحريج، وأغلب الظن أن كلمة جاموس بحر اختصار لكلمة جاموس البحريج، وذلك لأن الجاموس حيوان بري وليس حيوان بحري.

ولو تحدثنا عن الغرائب الموجودة ببلاد الهند سنخرج عن موضوعنا؛ على أي حال خرجنا إلى الطريق متجهين من لاهور على كابل في أواسط شهر ربيع الآخر. عبرنا نهر لاهور بالقوارب، بعد ذلك ظهر أمامنا نهر كبير، ولم نتمكن من عبوره بالقوارب الصغيرة، فربطناها ببعضها وعبرناه، ومن هناك ذهبنا إلى بهره، وعبرنا نهرها أيضًا. وأظهرنا سند ملكية الميرزا لأمير بهره، وعندما أقسم لنا على أنه لم يأخذ أي أموال من الأهالي عندما توفي السلطان، تشاورنا في الأمر مع مير بابوس الذي كان مرافقًا لنا في الطريق. وعلمنا في نفس هذا الوقت أن الشاه أبو المعالي هرب من قلعة لاهور، وذهب إلى ناحية غير معلومة. وقال البعض: إنه ذهب إلى كابل؛ حيث يوجد له أخ هناك يدعى كهرمد بك؛ الأمر الذي جعل الأمراء يخافون، ولم يستطيعوا التوقف. وعندما قال: ابق أنت هنا، وخذ مصاريف الطريق، ولن يكون هناك خطر في الطريق، تشاورت مع رفقائي وقلت لهم: لننتهي من أخذ مصاريف الطريق مذكرًا إياهم بالحكمة:

"من يقنع يشبع ومن يطمع يذل"، وعندما قال ليس من المناسب الانفصال عن رفقائنا في الطريق، وافق الجميع وسرنا جميعاً، وعبرنا بالسفن مياه نهر خوشاب، ومن هناك وصلنا إلى نيلاب، وسرنا حتى وطئت أقدامنا أرض زابلستان.

## في بيان الأحداث التي وقعت بأرض زابلستان

اتجهنا صوب كابل من نيل آباد في غرة جماد الأول المبارك، وتقدمنا مسرعين مساءً خشية تعرض أحد الأفغان المعروفين بآدم خان لنا. وفي الصباح وصلنا إلى سفوح الجبال، ومع ظهور الشفق تحركنا من هناك دون أن يعلم الأفغان عن الأمر شيئًا، وتسلقنا الجبال، والتقينا هناك بمئات الآلاف من الأفغان الذين كانوا يتنازعون، وأطلقوا وابلاً من طلقات البنادق، ونجانا الله منهم. ووصلنا إلى بشاور وعبرنا ممر خيبر ووصلنا جوشاى.

وشاهدنا في تلك الجبال التي مررنا بها اثنين من حيوان الخرتيت، الواحد منهم في حجم الفيل الصغير. وله قرن طوله شبر، والموجود منها في ولاية الحبشة قرونه أطول. ووصلنا إلى لامجان، وعبرنا من الجزر بصعوبة كبيرة حتى وصلنا بوختر؛ أي ولاية زابلستان، وقدمنا إلى عاصمتها كابل.

وتقابلنا هناك مع محمد حاكم ميرزا وفرح فال ميرزا أبناء السلطان، كما تقابلنا مع منعم خان، وأطلعناهم على فرمانات المرحوم السلطان، وأظهروا كامل عنايتهم وتبجليهم لها.

وكابل مدينة جميلة، محاطة بالجبال المكسية بالثلوج، وبها الحدائق ذات المياه التي تنهمر من جوانبها الأربعة. وكل ناحية بها مليئة بمجالس المصاحبات والصفاء، ودائما ما يأتنس الأهالي بين هذا الجمال المزين اللطيف؛ حيث يجتمع الأهالي حول الساز والأشعار مبتهجين مسرورين.

هل يعطي الإنسان قلبه للحور بينما توجد الجميلات بكابل. وبالرغم من كل هذا لم يغب نداء الوطن عن قلوبنا، ولو للحظة واحدة؛ لذا عندما طلبنا الذهاب، قال لنا منعم خان: "إن الثلوج تملأ الطرقات، ولن يمكنكم العبور من جبال الهندكوش على هذا الوضع، عليكم بالبقاء هنا عدة أيام". فقال الفقير: " إن همة الرجال تنقل الجبال، نحتاج للقوة، أرسل معنا المير نزري الذي كان رئيس على طائفة المرشدين ونقل المتاع، وأرسل معنا أيضا ٣٠٠ رجلا من عنده لنقل الخيول والمتاع من الجبل.

خرجنا إلى الطريق في غرة جماد الآخر ووصلنا إلى قره باغ، ومن هناك إلى (جار يقران) ثم إلى بروان، أي مدينة مروان، وهناك نقل الثلاثمائة رجل الذين أرسلهم مير نزري معنا المتاع من الجبءل، والنتيجة أننا عبرنا الجبل بصعوبة بالغة، وأقمنا يومنا في مدينة تقع تحت سفح الجبل.

## في بيان الأحداث التي وقعت بولاية بدخشان[1] وخُتلاند

وصلنا مدينة أنديراب في غرة شهر رجب المبارك. ومن هناك وصلنا إلى تاليقان التابعة لولاية بدخشان. وتقابلنا هناك مع سليمان شاه وابنه إبراهيم ميرزا، وعندما أتى إبراهيم ميرزا لاستقبالنا في اليوم الذي وصلنا فيه قدمنا إليه بعض الهدايا، وغزلية شعر :

لو أنك وصلت إلى حاجب القمر فاجعل جسدك هلال له

لو تريد رؤية وجهه فاسكب الدمع دماً من عينك

سر ثم عد للخلف، واجعل تلك الضفائر خيال

يا شحاذ الحبيب عندما تصل إلى تاج جماله

لماذا لا يعطي الزكاة بسبب وصوله لنا ؟

عندما يصبح الألف غصن هلا تقطعهم

---

(١) ويقال بذخشان. مقاطعة من بخارى الكبرى في آسيا الوسطى، واقعة بين ٣٦-٣٨ شمالا، و٦٩-٧٣ شرقا. يفصل بينها وبين تركستان الصين جبال البلور. مساحتها ٤٠ ألف ميل مربع، أهلها طاجيق يتحدثون الفارسية، وهي على المذهب الشيعي، وكانت خاضعة للمغول، ثم خضعت لمملكة كابل. ثم أغار عليها الأمير قندهز الأوزبكي عام ١٨٢٢م. وقال عنها ياقوت الحموي: "بلخشان". انظر: بطرس البستاني، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٥٤.

من أجل اللطف يا من له قامة الألف

اذهب واجعل قامة الرقيب ألف

يا كاتبي لو قررت الوصول إلى عشق كبير

فاحرق قلبك، واسحقه بنار المحبة

قرأ الميرزا الغزلية وأعجب بها كثيراً، وقرأنا نحن أيضاً الشعر وقدمنا للسلطان هدية متواضعة، وعندما وصلنا إلى حضرته قرأت عليه غزلية أخرى:

رأيتك عندما كنت في عالم الروح

ويعلم الله أنني قد وصلت إليك

لو أن الناظرين من الناحية الأخرى كحلوا

عيونهم بالدماء ماذا أفعل ؟

فإني أحمد الله أني أصبحت تراب لقدم السلطان

أيها القلب لقد علمتك طريق العشق

فلا تحزن لأنني أصبحت مرشد لك

اجعل عقلك في رأسك فقد أصبحت رئيساً

عليك في هذا الطريق، رأى المعشوق حال كاتبي

في خزينة القدر

وقال حب أيها المريض لقد أصبحت شفاء لك

أظهر السلطان إحساناً علينا بلا حد. وشرح لنا العداوة الموجودة بين محمد خان حاكم بلخ وبراق خان. وقال: "إن هذه الطرق خطيرة، وإن الحكومة في نواحي قوندوز وقوادين وترميد ضعيفة بسبب نهب محمد خان لإخوته الصغار، إلا أن الطريق بين بدخشان وخوتلان آمن لتذهبوا من تلك الناحية. وقد أحسن السلطان والميرزا على الحقير بجواد وخلعة، وأعطى على خان الحاكم في خوتلان رسالة للأخت الصغرى لزوجة السلطان، وسرنا من هناك حتى وصلنا عاصمة بدخشان أي مدينة كشم.

وتجولنا في حديقة السلطان المسماة (دوابة)، ثم سرنا من هناك إلى مدينة روستاه عبر طريق النصر. ومن هناك إلى بندر سوميت، وعبرنا نهر جيحون بالزوارق، ووصلنا من كاشغر إلى دللى بولاية خوتلان. وزرنا حاكم همدان مير سيد على. ومن هناك وصلنا إلى مدين كلابه، وتقابلنا مع الحاكم على خان. وأعطيناه الرسالة.

وأخذنا خمسة عشر رجلاً ليكونوا أدلاء لنا في الطريق، ووصلنا مدينة جارصو، ومررنا من هناك بناحية بولسنكين، وعبرنا الجسر، وهناك تركنا الأدلاء.

## في بيان الأحداث التي وقعت في ولاية أرض تـوران أي ما وراء النهر

استرحنا في اليوم الذي عبرنا فيه الجسر، ودخلنا فيه إلى أرض توران أي بلاد ما وراء النهر. وفي اليوم التالي استكملنا مسيرنا فوصلنا إلى بازار نو، ومن هناك وصلنا قصبة جهار شمبه، وزرنا خوجه يعقوب الجرخى. ومن هناك ذهبنا إلى جغانيات، أي إلى حصار الشادومان.

بعد ذلك عبرنا جبل سينجرد، وكان المطر ينهمر باستمرار على الجبل، وكأنه نهر كبير، سرنا من هناك حتى وصلنا (شهر سبز)(١) أي المدينة المعروفة باسم "كش"، والتقينا بالسلطان هاشم. وأعطانا إذن بالمرور من أرضه، فعبرنا الجبل الموجود بين شهر سبز وسمرقند(٢) بصعوبة بالغة، ومررنا بقصبة مهر، واستكملنا مسيرنا في هذا الطريق حتى وصلنا سمرقند التي تشبه الجنة في بدايات شهر شعبان المعظم، وتقابلنا مع أحمد خان النوروز. وقد منح كل فرد منا هدية على قدره ، ومنح الخان جواداً وخلع متعددة للحقير.

---

(١) ولاية في جنوب سمرقند، على مسافة تسعة فراسخ. ويوجد جبل بينها وبين سمرقند يعرف باسم " إيتمك دامان ". ونظرا لأنها مسقط رأس تيمور لنك سعى كثيراً لأن يجعلها عاصمة عرشه، فشيد بها قنطرتين كبيرتين ليقيم فوقهما ديواناً، ويجلس على جانبيه الأمراء جهة الشمال واليمين. انظر: ماجدة مخلوف، مرجع سابق، ص ١٢٧.

(٢) سمرقند مدينة جميلة، وهي من الإقليم الخامس. طولها تسع وتسعون. وعاصمتها سمرقند. دخلها الإسلام في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان. وقد أسسها الإسكندر، ويسميها أقوام المغول والترك: "سميز كند". أقام تيمور عرش بلاده بها. وأهلها كلهم سنيون، ملتزمون بالشريعة. ظهر بها عدد كبيير من أئمة الإسلام. انظر: ماجدة مخلوف، مرجع سابق، ص ١١٥.

وقد تولى براق خان حكم سمرقند بدلاً من عبد اللطيف خان الذي كان حاكماً عليها عندما قابلناه هناك، إلا أن بير محمد خان أمر بقراءة الخطبة باسمه في بلخ، كما أمر برهان سيد خان بقراءة الخطبة باسمه في بخارى. ولهذا السبب استولى براق خان على سمرقند أولاً، ومن هناك سار إلى مدينة سبز، وجرت فيها حرباً عظيمة، وانهزم نواب الروم، وفي نهاية الأمر تم الاستيلاء على تلك المدينة أيضاً، ومن هناك اتجه إلى بخارى[1]. ولما تمت محاصرتها فترة طويلة قام حاكم بخارى سيد برهان بإعطاء قره قول لبير محمد خان الذي أرسل إخوته الصغار فاحتلوها. وفي النهاية أصبح تابعا لبراق خان جبراً، وتم تسوية الأمر، وعُقد بينهم الصلح. ثم فوضت تلك الولاية إلى سيد برهان. أما براق خان فقد سار إلى قره قول الأمر الذي جعل إخوة بير محمد خان يطلبون منه الأمان وسلموه المدينة. ومنح براق خان المدينة إلى سيد برهان.

---

(١) بخارى ولاية كبيرة تناظر سمرقند. وتقع في الغرب منها، على مسافة خمس وعشرين فرسخاً. وبها عدة مراكز تجارية، وهي مدينة رائعة الجمال، ولها قلعة مشهورة. انظر: ماجدة مخلوف، مرجع سابق ، ص ١٢٥.

وعندما دخل براق خان سمرقند خرج أغا الروم ومن معه من المدينة؛ حيث اتجهوا على بلاد الروم عبر طريق طشقند – تركستان. أما أحمد جاوش[١] الذي كان برفقته فقد اتجه إلى بلاد الروم عبر طريق بخارى – خوارزم. واتجه قسم من الانكشارية إلى سيد برهان، والقسم الآخر بقى بجانب أبنائه؛ حيث ظل بجانبه ما يقرب من ١٥٠ شخصاً. وقد تم شرح كل الأحداث المذكورة إلى الفقير، فقال: "لقد كذبنا عند السلطان صاحب السعادة، ولم نأخذ القلعة. ولو كنتم عونا لنا لاستطعنا أن نفعل شيئاً"، واقترح منح العاجز إحدى الولايات، وعندما قلت: "لا يمكن القيام بهذا العمل بهذا الكم من الرجال، ونحن لا نستطيع أن نفعل شيء كهذا دون أمر السلطان"، قال: "الآن انضم رجل لنا سأخبر باب الدولة بذلك".

---

(١) **الجاوش:** صنف من الموظفين الذين كانوا يخدمون في الدولة العثمانية. وهم موجودون في الدولة العثمانية منذ عهد يلدريم بايزيد، وكانوا بمثابة الرتبة التالية للمتفرقة أصحاب التيمار طبقا لقانون نامه الفاتح. وهم قسمان؛ أصحاب راتب؛ وأصحاب تيمار. وينقسمون إلى أربعة أنواع جاوشية الديوان الهمايوني. جاوشية العبيد، جاوشية الأعاجم، جاوشية الترسانة، جاوشية الأندرون. انظر: M. Sertoğlu ,A. g. e, s, ٧١.

وعين أحد أبناء الشيخ أحمد اليسوي[1] (الشيخ صدر العالم)، وكتب رسالة قال فيها: "مهما كان أمر السلطان فنحن عاملون به"، ثم أذن في الذهاب. فقمنا بزيارة مقام النبي دانيال عليه السلام، والخضر عليه السلام، ومتعلقات الرسول ﷺ، والقرآن الذي كتبه سيدنا على رضي الله عنه في مدينة سمرقند.

---

(١) **اليسوي:** هو أحد كبار المتصوفة في وسط آسيا في القرن الثاني عشر الميلادي، السادس الهجري، ولد أحمد اليسوي في قصبة صيرام التابعة لسنجق أقصو في منطقة تركستان الشرقية. والده هو الشيخ إبراهيم من مشاهير مشايخ صيرام، وفد أحمد اليسوي إلى مدينة بخارى التي كانت في ذلك الوقت تحت حكم القره خانيين، وكانت المدينة من المراكز الإسلامية الكبرى، تعج بالعلماء والمدارس، انتسب الشيخ أحمد اليسوي إلى الشيخ يوسف الهمداني، وقد أثرت تلك الشخصية في تكوين وتشكيل شخصية أحمد اليسوي كثيراً، اشتغل اليسوي بعد انتسابه بالشيخ يوسف الهمداني بالإرشاد والوعظ، وكان يجوب قرى وقصبات بخارى ليرشد الناس، وكان أول خليفة له خوجه عبد الله البركي، ثم خوجه حسن الأندكي، ثم خوجه عبد الخالق الجدواني، وعندما أصبح الجدواني خليفة له عاد أحمد اليسوي إلى تركستان إلى مدينة يسى. لليسوي ديوان مشهور يسمى الحكمة. توفي اليسوي عام ٥٦٢هـ/١١٦٦م. انظر:

Sahabeden Günümüze Allah Dostları, yazarlar, Istanbul, ١٩٩٦, c. ٧, s. ٥٩-٦٠ .

كما زرنا أضرحة المشايخ والعلماء، ومنهم ضريح صاحب الهداية أبو منصور الماتريدي[1]،وشاه زندا[2]، والشيخ عبيد الله الأحرار[3]،

---

(١) قال الإمام العلامة المحدث محمد مرتضى الزبيدي (١٢٠٥هـ) صاحب تاج العروس شرح القاموس في كتابه المشهور "إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين"؛ للإمام الغزالي (ج ٢ ص ٥) ما نصه: "وأما الإمام أبو منصور الماتريدي فهو محمد بن محمد بن محمود الحنفي المتكلم وماتريد، ويقال ماتريت بالمثناة الفوقية بدل الدال في آخره، محلة بسمرقند أو قرية بها، ويلقب بإمام الهدى. وحاصل ما ذكره الكتّاب أنه كان إماماً جليلاً مناضلاً عن الدّين موطداً لعقائد أهل السنة، قطع المعتزلة وذوي البدع في مناظراتهم، وخصمهم في محاورتهم حتى أسكتهم، تخرّج بالإمام أبي نصر العياضي، وكان يقال له إمام الهدى، وله مصنفات منها كتاب التوحيد، وكتاب المقالات وكتاب ردّ أوائل الأدلة للكعبي، وكتاب بيان وهم المعتزلة وكتاب تأويلات القرآن، وهو كتاب لا يوازيه فيه كتاب؛ بل لا يدانيه شيء من تصنيف من سبقه في ذلك الفن، وله غير ذلك، وكانت وفاته سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة بعد وفاة أبي الحسن الأشعري بقليل، وقبره بسمرقند كذا وجد بخط الحافظ قطب الدين عبد الكريم بن المنير الحلبي الحنفي، ووجدت في بعض المجاميع =بزيادة محمد بن محمود، وبالأنصاري في نسبه، فإن صح ذلك فلا ريب فيه، فإنه ناصر السنة، وقامع البدعة، ومحيي الشريعة، كما أن كنيته تدلّ على ذلك أيضاً، ووجدت في كلام بعض الأجلاء من شيوخ الطريقة له كان مهدي هذه الأمة في وقته، ومن شيوخه الإمام أبو بكر أحمد بن إسحق بن صالح الجوزجاني صالح الفرق والتمييز. انظر :

http://www. mohamadelwali. com/Maturidi. htm

(٢) شاه زندا: معناها الشاه الحي. وهي اسم أطلق على حي في سمرقند به مجموعة أثرية تحمل نفس الاسم، وبها قبر كثم بن العباس ابن عم النبي ﷺ، ومجموعة من القبور الأخرى لرجال المتصوفة والأمراء، ومساجد. وهي تشبه حي أيوب سلطان باستانبول. انظر:

Gozde Ramazanoglu, Orta Asyada Türk Mimarisi, Ankara ١٩٩٨, s. ١٣٤ .

(٣) عبيد الله أحرار: ولد في باغستان التابعة لطشقند في عام ٦٠٨هـ/١٤٠٤م. درس العلوم الأساسية في طشقند بمساعدة خاله الشيخ إبراهيم الشاشي. ثم ذهب إلى سمرقند، وهناك أصبح تلميذاً للشيخ نظام الدين الهاموش في مدرسة أولوغ بك. ثم انتقل من سمرقند إلى بخارى، وتلقى العلم على يد الشيخ حميد الدين الشاشي. ومن بخارى ارتحل إلى هراة، وهناك تتلمذ على يد الشيخ قاسم التبريزي، وتعرف في هراة على الشيخ بهاء الدين عمر الخرساني. وكان مرافقاً للشيخ يعقوب الجرخي في طريق التصوف. توفي في سمرقند في عام ٨٩٣هـ ١٤٨٧م. انظر:

Yazarlar, Allah Dostları, c. ٧, a,g,e, s. ٤٤٤ .

وخوجه عبدي بيرون، وخوجه عبدي دروان دوبان، وقاضي زاده الرومي، ومزارات علماء ما وراء النهر أصحاب الفتوى، وبذلك يكون جملة ما زرناه من أضرحة ٤٤٤٠ ضريح.

وذات يوم وأثناء المسامرة سأل براق خان الحقير قائلاً: "أي بلد من البلدان التي زرتموها أعجبتكم ؟"، فقال العاجز :

نجاتي

اترك قرية الحبيب ولا تتمنى الجنة

فبلدة كل شخص عنده أفضل من بغداد

ابتهج الخان من هذا الجواب، وقال: "حقيقة أنت صادق فيما قلت". وطلب الشيخ صدر العالم سفير الخان أن يذهب عبر طريق تركستان"، فقد سمع أن المانغيت أي النوغاي يقومون بالتعدي والمظالم على الأهالي في تلك الطرق. وأن القازاق كثيرون، ولا يعطون طريق لأهل الإسلام، ومشهور بين الناس بأنهم يسيئون لمن يقبضون عليه.

وقد رأى الخان أن طريق بخارى غير مناسب، وقال للعاجز :

"إن سيد برهان على خلاف معنا. لقد سُمع أن شاه خوارزم يعادي سلطان بك، فإن كان احتمال لوقوع حرب، فاذهب إلى آجدوان، وانتظر السفير هناك، وتناقش معه في الوضع الراهن، فإن لم تكن هناك معارضة فاذهب من هذا الطريق، وإن كانت هناك ثمة معارضة فأبقَ هناك".

وقد نفذنا ما قاله الخان، وخرجنا للطريق في اليوم الخامس من شهر رمضان المبارك. ووصلنا المدينة المعروفة باسم قلعة. ومنها إلى مدينة قرمان، ومنها إلى دواه، ثم عبرنا نهر سمرقند، ووصلنا آجدوان.

فزرنا الشيخ عبد الخالق الجدواني، ولم نستطع أن نجد الميرزا هناك. كما أننا لم نستطع أن نحصل على أخبار صحيحة، فأكملنا مسيرنا، وعندما ذهبنا إلى بول رباط وجدنا جند خوارزم شاه على أهبة الاستعداد للحرب. وفجأة رآنا خان على بك فسألنا: " إلى أين تذهبون ؟"، وعندما قلنا بخارى. قال:

"إن حاكم بخارى على وشك الوصول للتحارب مع سلطان خوارزم، فهلا ساعدتمونا بأن تترجوه في عدم الإقدام على ذلك".

وعندما قال الفقير: "إننا لم نأتِ لمساعدة أحد. هذه ليست أوامر الخان لنا"، لقد قال لنا: إن كان هناك احتمال للحرب، اذهبوا إلى آجدوان، وانتظروا السفير هناك؛ لذا اتجهنا إلى آجدوان، وعندما اقتربنا من مئذنة آجدوان إذا بمئة تتاري يرتدون ملابس مختلفة يهرولون بخيولهم خلفنا، وقالوا لنا عودوا معنا هذه هي أوامر الميرزا. فسرنا معهم تحت تهديد السيف، وبينما كنا على وشك التحارب معهم أتى سيد عظيم مسرعًا وفرّق الأوزبك قائلاً لهم: " اصبروا ولا تتعجلوا، وأتى الميرزا مع رجاله عن يمينه ويساره، وأمرنا بعدم الذهاب، فعدنا بلا حيلة.

دخلنا إلى حضرة الميرزا مع عشرة رجال، وبعد مقابلتنا له رجانا مرة أخرى قائلاً: "ساعدونا"، ولكني لم أوافق. فقال: "أعطونا البنادق الباري"، وأخذ منا عشرة بنادق، ووزعها على الأوزبك، ثم قال بغرور: "تنحوا جانبا وشاهدونا"، فقد كان الميرزا لا يحترم سيد برهان في الأساس.

شيخي

الذي لم يصفع على وجهه يظن نفسه قوي

في تلك اللحظة بدا سيد برهان أمامنا، عبر الميرزا الجسر، ووصل حتى الرباط[1]، واتجهت أنا أيضاً إلى الناحية الموجود بها الأصدقاء. وقد عبر ستة من رفقائي في طريق الجسر مع الميرزا. ووصل العاجز مع أربعة من رفقاء الطريق، وأقمنا في منزل أهلي. على الفور احمرت عيون سيد برهان، وكان أمامه ألف جندي من أيتام بخارى، وما يقرب من أربعين جندياً قوي من رماة السهام، وهجموا على الميرزا فجأة، وجرحوه بالبندقية.

---

(١) الرباط يطلق عليه أيضا الخان، وهو مكان إقامة التجار الذين يرتحلون ببضائعهم، وقوافلهم التجارية من مكان إلى مكان، وعادة ما يكون الرباط على الطرق التي تسير عليها القوافل التجارية، والمعتاد للرباط أن يكون ذو طابقين، وبه غرف لإقامة التجار وحوانيت، وحظائر للدواب، وأماكن لحفظ العربات. وعادة ما يكون فيه سبيل للشرب والوضوء. انظر:
Celal Esad Erseven, Türk Sanatı, Istanbul, Tarihsiz, s. ٩٣ .

ترك الميرزا طوغه ونقارته وكل شيء خاص به، وفر هاربا مع ثلاثة رجال. أحدهم ضربوه بالسنكي، والآخر استشهد في مكان ما، أما الثالث فقد دخل الرباط مع مجموعة من الأوزبک. وعندما كان سيد برهان يتحارب معهم، نزل اثنان من رفقائي في الطريق من على الجياد، وساروا نحو الجنود، وسألوهم: "أين الميرزا ؟ ".

فقالوا: يتحارب عند الرباط، قلت لهم: أوصلوني إلى الخان. فسار مجموعة منهم أمامي وعبرنا الجسر، وعندما وصلنا الرباط ضرب أحد الظالمين بسهم من الرباط فأصابني (ساعة القضا يعمى البصر) ووجدت السيوف تهجم عليّ من كل صوب وحدب. وقد أشرفت على الموت، إلا أن الروم الموجودين معهم قاموا بتعريفي إياهم، وسحبوا السيف على الأوزبک، وقالوا لهم: " إنه أتى للخان فلماذا تعاملونه بهذه المعاملة ؟"، فكف الأوزبک أيديهم عني، وأعطوا الخبر للخان. أتى الخان، وكان شجاع بدرجة لا توصف. احتضنني واعتذر لي قائلاً: "لقد أتيت وقت النزاع، فكنت كالحطب بجوار النار"، وقد جُرح اثنان من رفقائنا أثناء عبورهم الجسر، وقالوا لنا: لقد نهب متاعنا وأغراضنا، وعشرة من خيولنا. وقد اعتذر الخان عن تلك التصرفات أيضا.

وعندما قال لنا: "لتنبهوا على الروم الموجودين بالرباط بأن يسلموه لنا ولهم الأمان، فهم ليسوا مذنبين". ذهبنا للرباط، ونادى كل شخص على الموجودين بالرباط قائلاً: "أوقفوا الحرب لقد عفى عنكم الخان"، ووجدنا مجموعة من خيولنا التي افتقدناها، أما البنادق فلم نجدها، وتم الإفراج عن اثنين من رفقائنا كانا قد أسرا من قبل.

بعد ذلك توجهنا إلى طريق المدينة، ووصلنا بخارى مساءً، ورجا سيد برهان الحقير عدة مرات قائلاً له: "لتكن جدي في الدنيا والآخرة، إن هذه الولاية ملك للسلطان صاحب السعادة، لتقم أنت في بخارى، ولأكن أنا في قره قول"، فقلت له: "حتى لو منحتني كل منطقة ما وراء النهر لن أستطيع البقاء في تلك الولايات، ولكنني سأعرض هذا على باب الدولة عند عودتي إن شاء الله"، وقلت: "أرجو أن يتلطف عليكم حضرة السلطان بشتى صنوف الإحسان فتكون الخانية ميسرة لكم"، وبعد التحدث في الأمور المختلفة زاروا الفقير الذي كان مسروراً مبتهجاً بذلك جداً، وأظهروا له شتى صنوف الإحسان.

ظللنا في بخارى خمسة عشر يومًا، كان يأتينا في كل يوم منها الزوار، فنتحدث ونتسامر معهم وقد اقترحوا عليّ أن أنظم غزلية بلسانهم:

احمرت الورود التي رأت وجه الحبيب في الحديقة من الخجل

وغردت كل البلابل التي سمعت أنيني في حديقة الورد

إن وجهه كالوردة، وقده كالسرو، وعينه كزهرة النرجس

وشفته كزهرة البرعمة، فماذا سيحدث لو نثرنا القرنفل على

رأسه ذات الوجه الأحمر، لا يوجد مثيل لقده الذي يشبه الشجرة

في حديقة الورد، والسنابل النضرة في حديقة جماله

عندما رأيت وجهه سلبت ضفائره السوداء عقلي من رأسي

واهتز قلبي بالعشق، ماذا تفعل الورود له،

إن هذا هو الوقت لتفتح العين

تجرعت شراب العشق

يا كاتبي لن يرقد المستمرون على مجالس العشق

أعجبوا كثيرا من تلك الغزلية، وتحدثنا عن الشعر لعدة أيام. وفي النهاية عندما طلبنا بالإذن بالرحيل قال لنا: "لتعطونا بنادق الباري التي معكم، وسنعطيكم ما تشاءون من البنادق النحاسية"، فاضطررنا لتسليمهم البنادق المتبقية معنا، فأعطانا هو أيضا ٤٠ بندقية نحاسية، وأعطوا لنا جوادين قيمين، وكتابين عوضاً عما افتقدناه، وأعطى لنا الرخصة بالذهاب. وفي تلك الأثناء أتى سفير من عند بوراق خان، وطلب العفو عن ابنه، وفي النهاية خُصص لإبدال سلطان مكاناً وهو آجدوان. وتم الصلح بينهم، وبينما كانت الأمور على خير ما يرام بدأنا نعد العدة للطريق.

وفي بخارى قمت بزيارة خوجه بهاء الدين نقشبند، وقاضي خان، وجار بكير، وخوجه أبو حفص الكبير، وصدر الشريعة، وتاج الشريعة، وشيخ العالم، وسيد مير كلام، وبير خوجه بهاء الدين نقشبند، والسلطان إسماعيل السماني، وسيدنا أيوب عليه السلام،

وكعب الأحبار، وشمس الأئمة السرخسي. ثم قصدنا خوارزم، ووصلنا مدينة قره قول، وعبرنا نهر أمودريا؛ أي جيحون بالسفن من أما فاراب. وفي بداية شهر شوال المبارك وصلنا أرض ولاية إيران أي خراسان؛ حيث وصلنا في البداية إلى مدينة جارشوي، وزرنا الإمام على موسى. ثم ذهبنا إلى روان، وقصدنا خوارزم من برية خوراسان، كانت الأسود تتقاتل مع بعضها البعض ليل نهار؛ لذا لا يمكن لأي شخص أن يسير هنا بمفرده، وبعد عشرة أيام من المشقة وصلنا مدينة هزاروس، وبعد خمسة أيام وصلنا خيوه، وزرنا بها بير محمود بهلوان اليارولي.

## الأحداث التي وقعت في ولاية خوارزم وصحراء القبجاق

في نهاية شهر شوال المبارك مررنا من أمام مدينة خيوه، ووصلنا خوارزم في خمسة أيام. والتقينا بدوست محمد خان وأخيه إيش سلطان.

وزرنا الشيخ نجم الدين الكبرى، والشيخ على الرامتني، وشيخ الخلوتية، والإمام محمد البارعي، وصاحب القدوري، وجار الله العلامة أي صاحب تفسير الكشاف، ومنلا حسين الخوارزمي، وسيد آطه، وحكيم آطه. وعندما سمعنا خبر وفاة المرحوم والمغفور له الشيخ عبد اللطيف في شهر وزير، لم نستطع أن نصبر، واتجهت إلى شهر وزير على الفور مع مجموعة من رفقائي.

وزرنا مختوم الأعظم، والشيخ عبد اللطيف، ونظراً لأن الكبار المذكورين غير الشيخ عبد اللطيف كانوا مشايخ، ومرشدين لنا في طريق التصوف، فقد التجأنا بروحانياتهم، وختمنا القرآن الكريم، ووهبنا ثوابه لأرواحهم؛ ليجعل الله روحهم راضية مرضية في جنة النعيم. كما وزعنا الطعام صدقة على أرواحهم، ونظمت تاريخاً لمن يرحلون عن هذا العالم الفاني إلى حديقة الخلود :

الشيخ عبد اللطيف شيخ خوارزم

ارتحل عن دار الدنيا

أتم روح القدس تاريخه

اللهم اجعل مقامه الجنة

حصلنا على الرسائل من الحاج محمد سلطان، وتيمور سلطان، ومحمد سلطان أبناء أغاتاى خان؛ لأنهم ميرزاوات المانغيت، واتجهنا بعد ذلك إلى خوارزم.

وأتى أيضًا الشيخ صدر العالم سفير برق خان أحد أبناء خوجه أحمد اليسوي، واستعد هو الآخر، كما رافقنا في الطريق أبناء وبنات الشيخ حسين الخوارزمي، وعدد من المسلمين، أخذنا ملابسنا، كما ارتدى بقية الأهالي المرافقون لنا فراء من جلود الأغنام، فقد كان يلزم علينا ارتداء تلك الملابس؛ لأن طائفة المنغيت أسوأ من الأوزبك، وعندما يرون أي أشخاص يرتدون ملابس غير ملابسهم يظنون أنهم من الروس، ويصيحون منبهين بذلك، لم تكن لدينا حيلة، ارتدينا مثلهم؛

ليمحق الله من يغتصبون أموال الناس لمنفعتهم

من يكون خبزه الدقيق المخلوط بالزبد

لن يستطيع شخص آخر أن يجد قطعة خبز

إنهم يشربون ألبان الخيل ويأكلون لحومها

فلن نُظهر لهم طعامنا

جنودهم وناهبوهم كثيرون

ينهبون كل القوافل بما فيها من رجال ونساء وأموات

حقيقة إنهم يقومون بحرب كبيرة

ويقتلون من يقع تحت سيوفهم

لو يصادف كاتبي أناس لا يفرقون بين الصدق والكذب

فهل سيفهمون أن ما يقوله حقيقة أم كذب

والحاصل أنه تمت استمالة قلوب رفقاء الطريق، فيجب على كل متعقل أن يتخير الوضع الذي لا يرى به الضرر، ونصحتهم قائلاً:

وطالما أن العادة هنا هكذا

فسأرتدي أيضاً ملابسي مثلهم

فارتدى الجميع تلك الملابس، وخرجنا للطريق في الأيام الأولى من شهر ذي القعدة. سرنا في صحراء القبجاق ما يزيد عن شهر، ولأن الوقت كان خريفاً لم نرَ طيراً في السماء، ولا قافلة تمر؛ لأن تلك الصحراء جرداء، لا يوجد بها زرع ولا ماء.

لا يوجد هنا طعاما قط للحيوانات البرية أو الطيور

حتى الماء لا يوجد للضفدعة

وفي النهاية وبعد مشقة وتعب اجتزنا ذات يوم مكان مشهور باسم الشام، ووصلنا منه إلى قصبة سراي جيك. وتقابلنا هناك مع مجموعة من الحجاج وثلاثة من الروم العرايا الذين وصلوا إلى هذا المكان من قبل ، فقالوا لنا : "إلى أين تذهبون ؟ لقد أخذ الروس هشته دار خان، ودارت حرب ضروس بين أحمد جاوش وبينهم، وقد أصبح حاكمنا من أتباع ميرزاوات المنغيت، وقطع الطريق، لتعودوا من فوركم، وعندما قالوا لنا هذا قلت :

نحن أشخاص تجردنا من كل شيء

فماذا ستفعل الأفلاك لنا

إن التسعة جبال لن تستطيع أن

تجرد شخص في الطريق منذ عام

لم يوافق رفقائي في الطريق، وقالوا: لنبقى في خوارزم (العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن)، ولنرى ماذا ستكون العاقبة، وعندما عاد صدر العالم سفير براق خان، وعاد معه المسلمون الآخرون، اضطررنا نحن أيضا للعودة.

لا تذهب لتلحق بالحبيب فلن يرضى القلب

فقد مت بألمه، ولكنه لا يعرف

لقد شرح حُسن الواعظ الجديد

الرحمة عليه، فقد استفاد كل شخص منه

إن الشفاة البرعمية والوجنات الوردية كثيرة في هذا العالم

ولكنك أعلى قيمة بقدك الذي يشبه السرو

ترتفع آهاتي وأنيني في السحر كتغريد البلبل

فسمع الحبيب صوتي، فليرق

يا كاتبي لا تُذهب الألم، لأن الأغيار إذا ما

علموا سيجلبون لك ألماً آخر

ما الحيلة، وصلنا في النهاية إلى خوارزم، وذهب سفير براق خان إلى سمرقند. وظل الآخرون هنا. وعندما سأل دوست محمد خان حاكم خوارزم العاجز "إلى أي ناحية تقصدون ؟"، قلت له: نريد أن نذهب إلى بغداد من مشهد خراسان عبر طريق عراق العجم، فقال لتبقوا هنا الآن، ولتخرجوا في الربيع؛ لأن المانغيت يخرجون للرعي، وتكون الطرق خاوية، وعندما قال: إن بغداد بعيدة جداً من هنا، قلت:

نجاتي

لو تعتقد أنك بعيد عن الحبيب لأنك في المشرق

فاجتهد؛ لأن العشق يقرب البعيد، ويجعل بغداد قريبة

وفي النهاية سمح لنا الخان بالخروج، وأعطانا جوادًا جميلاً، وأعطى لرفقائي في الطريق العربات. كنا نريد الذهاب بطريق شروان عبر بحر القلزم؛ إلا أن من معي لم يوافقوا على ذلك، وقالوا لقد أتى عسكر الروم إلى شروان من الكوفة، وتحاربوا مع عبد الله خان. وإلى الآن لا يوجد طريق من هناك للروم. وتناقشنا في أن يكون ذهابنا من طريق دمير قابي القادم من ناحية جركس؛ إلا أنهم قالوا: إن الجركس على وشك التمرد والقيام بثورة. فسألنا عن طريق خراسان والعراق.

وتلقينا أخبارًا تفيد بأن الشاه في الوقت الحالي يكن بالولاء لحضرة السلطان، إلا أن أمراء القزيل باش الموجودين على الطريق لن يجعلوكم تصلوا بسلام. فقلت: "لن يُقتل شخصا إلا بإرادة الله"، ومن يخشى الموت لا يخرج إلى الطريق:

هجري

أيها القلب لا تغتم بسبب الفراق

لأنه لم يمت شخص قبل أجله

ولم يوجد شخص مسح ما كُتب على جبينه

وتناقشت مع رفقائي. ولم يكن هناك طريق للذهاب سوى هذا الطريق. والحاصل أننا توكلنا على من لا حد لمدده، وتوسلنا بمعجزات وبركة النبيﷺ:

ما الحيلة لم أجد طريقا آخر

واضطررت في النهاية أن أأمر به

سرنا من منطلق قاعدة "الضرورات تبيح المحذورات"، وعلى ذلك كان يلزم علينا أن نستأجر الإبل لنخرج بها. وطلبنا الإذن من دوست محمد خان بالخروج. فقال لنا: "لا يمكن أن تدخلوا وسط العدو بهذا الوضع، فأعطينا نصف البنادق التي معنا للخان، ونصفها الآخر للسلطان. وحصلنا على الإذن بالخروج. وقد تلقينا رسالة كانت على وشك أن تعطى لعلي سلطان أخو تين محمد. أخذنا مستلزمات الطريق من مياه وغيره، وتوكلنا على الله، وخرجنا في أوائل شهر ذي الحجة قاصدين خراسان.

## في بيان الأحداث التي جرت في ولاية خراسان

عبرنا نهر أمودريا (جيحون) بعناية الله، وانتظرنا بقية إخواننا على الضفة الأخرى.

وقد أرسلت كريمة مخدوم الأعظم؛ أي بنت الشيخ حسين الخوارزمي رجلاً من عندها، وقال لنا: "أن كريمة الشيخ تبشركم بأنها رأت جدها مخدوم الأعظم في المنام، وقد أتى من شهر وزير إلى خراسان في موكب عظيم، وعندما سأل الأهالي عن سبب مجيئه، فقال: "لقد أتى مير سيدي على، وزارني في شهر وزير، وأمر بقراءة القران على روحي، وطلب مني المساعدة، وها أنا جئت لمساعدته في عبور خراسان بسلام ". وبهذه البشرى تحركنا في الصباح التالي مبكراً.

وبعد عدة أيام وصلنا دورون، وسمح لنا محمود سلطان بالمرور. ومن هناك وصلنا مدينة باغ، ولم يمانع بولاد سلطان أيضاً مرورنا، فوصلنا من هناك إلى ذَسا. وهناك التقينا بعلي سلطان أخو تين محمد الذي كان خان في مرو قبل ذلك. أعطيناه رسائل الخان وإيش سلطان. وهو أيضاً لم يمانع في مرورنا، والحاصل أنهم جميعاً كانوا أشخاص مطيعين لحضرة السلطان.

ومن هناك ذهبنا إلى روان، ومنها إلى طوس عبر باورد، وزرنا هناك الإمام محمد الحنفي والفردوسي الطوسي، وفي اليوم الأول من شهر المحرم لعام ٩٦٤هـ[١] وصلنا مدينة خراسان.

وزرنا شاه خراسان-وهو الإمام على موسى رضا-. ولأنني نذرت تومن[٢] لضريح حضرة الإمام عندما تعرضنا للطوفان في البحر من قبل، فقد أديت تومن لمتولى الضريح، كما وزعت الصدقات على قبور الكبار هناك.

---

(١) الموافق ١٥٥٦م.

(٢) التومن: ويقال أيضاً التومان هو العملة الذهبية التي كانت تستخدم في إيران، وكانت تساوي ١٠ آلاف أقجه، أي ٥٠ قرشا. انظر: شمس الدين سامي، قاموس تركي، استانبول، ١٣١٧هـ ، ج١، ص ٤٥٤.

وكان إبراهيم ميرزا ابن بهرام ميرزا سلطان في هذا المكان، كما كان هنا أيضا سليمان ميرزا ابن الشاه. وقد التقيت بهم وبوزيرهم كوكجه خليفة، وقد طلبنا أحد الميرزاوات ليذهب إلى الشاه، فوافقوا على هذا، وأعدوا لنا مائدة. وعندما كنا نتحدث قالوا للعاجز: لنتحدث عن خلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى، وعن فضائلهم، وسألوا العاجز بعض الأسئلة، ولما طلبوا من العاجز الإجابة ؛ صمت مقتضيا بقول: " إجابة الأحمق السكوت "، وقلت :

أيها الساقي شرب الخمر بشفة الحبيب عيب

ولا يمكن المقارنة قط بين ماء الحياة والماء المر

ولو أن ألم العشق جعل لي حكمة

ولن يتحدث منطق الناس في هذا الشأن مع

لقمان الحكيم؛ لأن حيلتهم كثيرة

لو ينهض القلب لمحو ما كُتب على الجبين

فإني أذكرهم بحديث طائر العنقاء مع سيدنا سليمان

أنا راض بالقهر أو اللطف

لأتحدث مع هذا السلطان إلى أي حد

أيها القلب لا تتحدث مع الزهاد عن ألم العشق

فإن تحدث العارفون مع غير العارفين جهل

ماذا يحدث لو أحدثت ضوضاء من القلب بسببك

أيها الساقي ليس عيب التحدث مع الحبيب في الشراب

إن نظام كاتبي وانتظامه، فإن ألمه سيليق بالتحدث مع سليمان

وعندما أتممت الغزلية، قالوا: لتقرأ غزلية عن نصر الدين خوجه في المسجد، فقلت لهم لم أتى إلى هنا لأتناقش معكم في هذا الموضوع - كما أن هذا ليس وقته- إننا هنا بالمصادفة، ولسنا مؤهلين للأسئلة والإجابة عليها؛ لأن النبي ﷺ قال: (الحق مر)، أما إن كنتم تريدون بهذا معرفة محبتنا لأبناء سيدنا على رضي الله عنه، فلتعلموا :

إن لي ارتباط بعتبة قبر على

ويُفتح لي باب جديد كل وقت من تلك العتبة

فأنا خادمك

إن هدفي هو المسح على قبر أسد الله

وليس هدفي توجيه أسئلة أو إجابة.

ولما قلت ذلك تخلوا عن الأسئلة، ونجونا من أيديهم. ثم أتى رجل يدعى غازي بك. ولم يكن هذا الرجل مؤهلاً لإرساله إلى الشاه، وكان معه مجموعة من الرجال، فقال الميرزا: ربما أنهم من الروم القادمين إلى بوراق خان، وليس صوابًا أن نتركهم دون أن نراهم، ونتباحث معهم، وعمل الميرزا بمقتضى الحكمة (من يسمع يخل) وأرسل في الصباح ٢٠٠ جنديًا مدرعًا، وأمر بحصار الكروانسراى (نزل القوافل).

وبموجب الحكمة القائلة: (لن تجد الاعوجاج طالما أنك تسير سليماً) أمر الميرزا بأن يتحفظ علينا جميعاً، وخصص حارساً لكل واحد منا، كما خصص خادمين للعاجز، وأنزلني نائبه كوكجه خليفه. وسلموا لكل واحد جواده، وتركنا بقية أمتعتنا أمانة عنده. كان الوقت موسم شتاء، وفي اليوم التالي أخذ الميرزا الرسائل التي حصلنا عليها من السلاطين، ووضعها في كيس وختمها، وعندما رأى رفقاء الطريق الوضع هكذا فقدوا الأمل في حياتهم.

فقلت لهم نحن الذين وضعنا أنفسنا في هذا الوضع، والمثل يقول: (لا يبكي من يُسقط نفسه)، إننا لم نستطع أن ننجو من الميلاد، فلننجو إذن من الموت؛ لأن من قبلنا قالوا: " الصبر يبلغ الأماني "، و" الصبر مفتاح الفرج وبه يُرفع الحرج".

حمدي

بالصبر تبنى الدولة العالية

بالصبر تجنى ثمرة الأمل

فالصبر في الحديقة ينتهي بالطيبات

والطيبات لا تُرزق إلا بالصبر

توكلنا على الحق ونظرنا لعاقبة الأمر:

نجاتي

طريق الحبيب درجتان، الأولى الضغط على النفس

لأننا دخلنا في هذا الميدان، والشجاع هو الذي يدخله

وفي النهاية، قاموا بشد وثاق كل الرفقاء، ولكنهم لم يربطوا الحقير؛ بل وضعوا عليه خمسة من الحراس. وقد حزنت جداً لتصرفات الميرزا تلك. فكنت أسلي نفسي وقلبي الحزين المتألم بتلك الأبيات :

الذين لم يعرفون المساوئ أو المحاسن في هذا العالم

لا يعرفون قيمة الإنسان

(الذي لم يمر من إطار الفلك، لا يعرف قيمة الإنسان)

كان الحزن يذهب أحيانا، وأحيانا أخرى يصل لدرجة تكاد تمحقني.

عندما يغتم الإنسان فعلاجه الشراب

ولا يمكن أن يكون الترياق الفاروقي لإزالة سم الغم

الطرتان اللتان على رأس خزينة الجمال

تشبهان الثعابين، وتشبه السيف الذي يستعد

لقتل المتحيرين، ماذا سيكون لو يترك ذلك الوجه الجميل

ويفكر في الحور، هل يليق بهذا الجميل أن يفي بأحد غيري

لا تعتقد بأنك ستضربني بسيوف رمشك وستجرح

قلبي، فعندما رأى الحبيب حالي تألم

يا كاتبي لقد هلك من حزن الأغيار الذين سمعوا بذلك

استيقظت وكانت تلك الغزلية تجول بخاطري، ولاح بقلبي مصراع، وأنا بين اليقظة والنوم. وعندما استيقظت من النوم، قلت: هذا إلهام إلهي، وكتبت كل ما جال بخاطري، فكتبتها على شكل المربعة، وأهديتها للإمام على موسى الرضا.

لم يأتِ رجل مثلك إلى العالم

ولا يوجد حد لمن يتحارب معك ويضرب بمخالب الأسد

أصبحت في وادي المحنة

يا علي طلبت المدد منك فامدد لي يدك

أصبحت تراب على عتبتك

فقد مزقت صدري بخاتمك ذو الفقار

وأدركت سر لا فتى إلا علي

يا علي طلبت الممد منك فامدد لي يدك

لقد بشرتني في عالم الرؤيا

وأشرت لي على طريق الأمن

عندما كان قلبي خراب عمرته

يا علي طلبت منك المدد فامدد لي يدك

أيها الاسم الطيب تفاءلت باسمك وخرجت

وعبرت الهند والسند، وبلاد ما رواء النهر وأتممتها

التجأت بك بروحي ولساني

يا على طلبت المدد منك فامدد لي يدك

خرجت من الهند باسم شاه خراسان

مسحت وجهي بعتبتك لأكون عبداً لأجدادك

أنا غريب أصيح

يا على أطلب المدد منك فامدد لي يدك

أمنيتي أن يعتني بي الاثنا عشر إماما

يا ملجأي وملاذي يا من تفهم الظاهر والباطن

مسح الجميع وجوههم بعتبتك وأبحت غلام

يا على طلبت المدد منك فامدد لي يدك

المحنة والغربة جعلت أنيني دما

وأصبحت دموع عيني كنهر جيحون من ألم الفراق

إن نار الفراق جعلت حالي مضطربا جدا

يا علي ! طلبت المدد منك ، فامدد لي يدك

ليكن كاتبي محب الرسول المصطفى

وليكن دائمًا منيرًا بنور الشوق

عندما أنتسب بك هل يليق هذا الجفاء

يا علي ! طلبت المدد منك ، فامدد لي يدك

اشتهرت تلك الغزلية بين رجال الدولة هناك؛ حتى أنه ذات يوم أتى لي أحد خدام ضريح الإمام على المرتضى، وقال لي: "لقد رأيت في منامي ذات يوم الإمام على المرتضى"، وقال لي: "قم بزيارة مير سيدي على، لقد أرسلتك له". (والله أعلم بحقيقة هذا). انتشرت هذه الواقعة في المدينة، وكانت سببًا في ازدياد ميل الأهالي لي، وقام متولي ضريح الإمام علي وبعض السادة الآخرين بمراجعة الميرزا.

وجاء شخص إلى الإمام، وطلب منه الذهاب إلى الشاه، وأظهر أنه لو كان هناك احترام كبير من الشاه لسلطان الروم، لما وقعت منه تلك الأذية لأشخاص كهؤلاء في تلك الأيام المباركة كيوم عاشوراء.

وقال: "إن كانت هناك حيلة لظهرت عليهم؛ لأن الله تعالي ذكر في كتابه العظيم ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾[الرحمن:٤١]، ولا أثر للإجرام فيهم. وقد أثرت تلك الكلمات في الميرزا، فقال العاجز :

نجاتي

إن المسك يُعرّف نفسه

والولد اليتيم ينقطع نسله

وأخبرت الميرزا بعض الأخبار، فقال:"كلامكم يحتمل الصدق والكذب" ونظمت ثلاث غزليات لتلك المناسبة، وأرسلتها لها فأعجب بها؛ **الأولى:**

أيها القلب كنت أنت المريض، تجادل

مع ذلك الحبيب. الصلح خير، ولكن انسحب

عن الأغراب يا صاحب الوجه الملائكي

اجمع شتات عقلي بشفاتك التي تهب الحياة

لا تحير عقلي بطرتك ذات الرائحة العنبرية

لا تتجرع من شراب كأس العشق،

ولا تتركني على حالي أيها الزاهد

لن تتوافق طبيعتي مع الحسن

بعد أن ثملت بشراب العشق

يا كاتبي لو تريد تذوق حديقة الزمان

واقض عمرك في اللعب مع ذو القد السروي الجميل

**الثانية :**

حبيب الدين لم يرحمني،

ولم يكن يحب قط من يعشقه

كان يُشعر الناس بحبي بوجل كبير

ولم تصبح نار العشق خفية قط

وألقيت بسهام رموشه الموجهة إلى قلبي

ولكن ماذا أفعل لا أستطيع أن أظهر الألم

الذي منحه لي، يا كاتبي سمعنا دائماً أنهم

يقولون لو تقبل شخص منافسة فلن تكون هناك دعوى دم

**الثالثة :**

يعتقدون أن الحبيب لم ينصفني وآذاني

هل تعرفني أيها القلب ؟ لا تتألم لدمع عيني

ولا تبل وجه الحبيب يا دواء القلوب المتألمة،

ويا صاحب الوجه القمري،

تقولون إن العاشق أمام الحبيب.

لو تكون حديقة الوجنات جنة،

ولو يكون سبيل الشفاة خلود

أيها الطبيب لماذا عيونك مريضة ؟

لو يرى وجنة عديم الوفاء يفهم أنه أخذ الدماء.

أيها الصديق لا ترفض العبد كاتبي

إنه خادم جيد ومناسب تحت أعتابك

وفي النهاية خشى الميرزا على نفسه من الشاه، وندم على ما فعل وتركنا جميعًا أحرارًا يوم عاشوراء. وأقام مأدبة لهذا العاجز، وأعاد لنا أمتعتنا وجيادنا، ولكن كان بها نقص كبير، وأخذ أربعة كتب قيمة من كتبي، ووضع الرسائل والفرمانات في كيس وختمه، وأرسلها إلى الشاه في أواسط شهر المحرم من نفس السنة بواسطة شخص يدعى علي بك القوبجه جي.

وقد أتت زوجة الشاه وزوجة بهرام لزيارة الإمام، وخرجنا سويًا إلى الطريق، وعندما وصلنا إلى الشاه تقدم كل واحد منا بالثناء واللطف، وقد نصحت الأصدقاء قائلاً لهم: تصاحبوا في الطريق مع من معكم، وابتسموا في وجوههم. أظهرت الأمن والطمأنينة نفسها بكلمتين:

حافظ

المعاملة بظرف مع الأصدقاء

والتبسم في وجه الأعداء

وذات يوم وصلنا إلى نيسابور، وزرنا هناك الشيخ محمد المحروق ابن الإمام، والشيخ العطار، وتقابلنا مع نائب خراسان كمال أغا. وقد أذن لنا في الخروج، ومن هناك وصلنا سبزوار، وهجم علينا بعض الأشخاص غير المؤدبين، وعندما قابلناهم أفلتنا منهم بصعوبة، وسرنا في طريقنا امتثالاً للقول: (الكلاب تعوي والقافلة تسير).

## في بيان الأحداث التي وقعت في عراق العجم

وصلنا أراضي العراق وسرنا فيها حتى وصلنا بسطام من ناحية مازندران أي من ناحية سفح جبل دماواند.

وزرنا الشيخ الإمام محمد الأفتح، والشيخ بايزيد البسطامي، والشيخ أبو الحسن الخرقاني، وخرجنا إلى الطريق في اليوم التالي، وذهبنا إلى دامغان، وفي تلك الليلة رأى شخص صالح متدين في منامه بايزيد البسطامي، وقدم مع أربعين درويشًا وقال له: "لندعو الله أن يكتب سلامة الوصول لمير سيدي علي هو ورفاقه". قرأ هذا الرجل الخطاب ثم كتب لنا إذن مرور وختمه، وأخبر العاجز بأنه لن يتعرض لنا أحد في الطريق، فشكرنا الله على كمال كرمه معنا، وكان هذا الخبر بمثابة تجديد الروح للقلوب الميتة.

وزرنا الإمام جعفر المدفون في دامغان، ثم وصلنا سمنان، وزرنا علاء الدولة السمناني وهناك هجم علينا بعض الأشخاص كانوا يريدون التحدث معنا في الأمور المذهبية، ولكني قلت للأصدقاء: " استر ذهبک وذهابک ومذهبک".

إن المتعقلين لا يفصحون

في لحظة عن مذهبهم وذهابهم

وسمعوا نصيحتي، وفي اليوم التالي خرجنا إلى الطريق، وكنت أنصح كل شخص بنصيحة تتفق مع طباعه، وقلت: "ليس هناك شخص تجول أكثر منكم، وعلى هذا يجب أن تكون هناك بعض الخبرة، فالشخص المتعقل لا يهتم بكلام الوضعاء والبسطاء"،

تقبلوا كلماتي، واستمعوا إلى نصائحي، وذهبنا جميعاً إلى مدينة الري، وزرنا الإمام عبد العظيم، والسيدة بيبي شهربان زوجة الإمام الحسين رضي الله عنه، وتقابلنا هناك مع محمد خدابنده[1] ابن الشاه، وسوندان أغا رئيس الجند.

فقد قام محمد خان بقتل مجموعة كبيرة من رجال إسماعيل ميرزا في هراة، وعندما طلب محمد خدابنده أرسله الشاه إلى محمد خان مع رئيس الجند المذكور ودعا إسماعيل ميرزا.

---

(١) خدابنده: هو خدابنده بن طهماسب الأول، رابع شاهات الدولة الصفوية وحفيد الشاه إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية، لم يستطع إدارة شؤون الدولة لضعفه، وعدم قدرته في التحكم على قادته، توفى بعد تولى الحكم بفترة قصيرة. انظر: على اكبر ده خدا، لغت نامه، مجلد ٢٠، تهران ١٣٣٦هـ. ش، ص ٤١٠.

وعندما تقابلت مع محمد خدابنده أوضح خالص ارتباطه بالسلطان صاحب الدولة[1]. وفي اليوم التالي خرجنا إلى الطريق. ووصلنا قزوين حاضرة عراق العجم في أواخر شهر صفر؛ أي بعد شهر ونصف تقريباً، وعندما وصل خبر مجيئنا إلى الشاه لم يأمر بدخولنا المدينة؛ بل أرسلنا إلى مدينة تعرف باسم سبزه جيران، وعيّن لحراستنا محمود بك محافظ ديوان معصوم بك الوزير الأعظم -أي نائب الشاه-، وجاء أغا العتبة وحرر أسماءنا، وعدد الخيول التي معنا.

وقام الشاه بعزل كوجه خليفة نائبه في مشهد خراسان، كما عزل الوزير مير منتشي، وغضب منهم كثيراً، وقال: "لماذا أرسلتموهم لي قبل إخباري بذلك؟ ".

(١) كان محمد خدابنده على علاقة طيبة بالسلطان سليمان القانونى، كذلك والده الشاه طهماسب، وكانا يتبادلان الرسائل معه. انظر نص هذه الرسائل فى: فريدون بك، منشئات السلاطين، ج٢، ص ٦٩-٧١.

وأرسل لي (بير على ياساول) برسالة جاء فيها: "لا يأمل خير من تصرف هؤلاء بهذا التصرف معكم"، إن كان معكم أي أموال اتركوها عندي أمانة، ولو كتب الله لكم النجاة ستكون ملكًا لكم، وإذا حدث لكم مكروه تكون الأموال في يدي خير من أن تكون في يد الأعداء.

وقد أرسلت له ردا على رسالته قلت له فيها: "لا توجد أموالاً مع أشخاص يسيحون في الأرض منذ فترة طويلة، كما أنه لن يأتي إلى هنا من يخاف الموت، يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١]، ونحن نؤمن بهذا ونصدقه، كما أنه لن يُقتل شخص إلا بإذن الله". أرسلت له هذا الرد ورحت أتضرع إلى الله، أخرج الشاه الفرمانات والرسائل من الحافظة، ونظر إليها، وشهدت النسوة اللاتي كن معنا، وهن: زوجة الشاه، وزوجة بهرام ميرزا في حقنا خير، وأقسموا على أننا مظلومين،

ونظمت مربعة وأرسلتها إلى الشاه:

لو يهجم شاه تلك الولاية على الجزيرة كل وقت

فإن من يرون ضرب السيف يموتون

ويرفع فخر الكائنات شأنك

لا فتى إلا علي، لا سيف إلا ذو الفقار

أقسم على كسر الكفار في الغزو

ودقت الطبول وأُغرقت الأرض بالدماء

شهد الروح الأمين في حقه

لا فتى إلا علي، لا سيف إلا ذو الفقار

أعطاه الحق خلعة الشجاعة

لو تنقط الدماء من سيفه هل تكون واحدة في الغزو

ودعت له كل الملائكة

لا فتى إلا علي لا سيف إلا ذو الفقار

لو يزأر شاه النجف الأعظم في الحرب

لو يهز سيفه تنكسر كل الأحجار والجبال

لقد أصبح كاتبي خادمًا للمرتضى

لا فتى إلا علي، لا سيف إلا ذو الفقار

وعندما رأى الشاه تلك المربعة أمر نائبه معصوم بك قائلاً: "لتدعُهم غداً ولتقم لهم مأدبة. وسندعوهم نحن في اليوم التالي، وأبشرهم بأنهم سيخرجون من الطريق الذي يرغبونه". حقيقة دعانا معصوم بك، وأقام لنا مأدبة كبيرة وبشرنا ببشارة الشاه، وعندما قال: "إن سفيرنا على وشك الذهاب إلى أركان السعادة، فإن كان طريق أذربيجان مناسب لكم؛ أي طريق وان – تبريز، فقرروا ذلك الآن؛ لأنه سيذهب قريبًا. وعندما قال معصوم بك ذلك قال الفقير: "إن الموسم موسم شتاء، وليست عندنا القوة الكافية لذلك، فرجوناه بأن نذهب عن طريق بغداد"، فقال: "لنعرض ذلك على الشاه".

وفي اليوم التالي دعانا الشاه للحضور إليه، وأثناء لقائنا به عرضنا عليه هدايانا المتواضعة، وتحدثنا بعض المحادثات أثناء الضيافة، وألقيت الأشعار، وعندما أدرك الشاه وضعنا تماماً، قال لأمرائه: يقول تعالى:﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهؤلاء لا أثر للحيلة والخداع في وجوههم، وإنهم حجاج وغزاة ثم أعاد إبراهيم ميرزا وكيل جوكجه خليفه، ومير موسى إلى مناصبهم مرة أخرى.

وأعطى الشاه للعاجز جواداً وخلعتين، وحمل حرير، وبعض المستلزمات من أجل الطريق، وأعطى للسردارين خلعتين، ولكل واحد من رفقائنا الخمسة خلعته، وعرضوا جميعاً محبتهم المتناهية للسلطان، وأظهروا الارتباط به إلى أقصى درجة. وذات يوم دعا الشاه العاجز إلى المهترخانه، وأقام مأدبة، وأرسل الأمراء الذين يثق بهم إلى هناك.

وحتى يُظهر لنا عظمة وكبر دولته أظهر لنا سجاداً صغيراً وكبيراً منقوشاً وذو رسوم، تم صنع كل سجادة منها من الحرير والقطيفة بخمسمائة أو ألف تومن، وكراسي لا تقدر بثمن، وخيام وأوتاغات صنعت بمهارة شديدة، وكلها منقوشة.

وعندما قال لنا حسن بك اليوزباشي الذي يسير معنا إن هذه الأشياء خزينة كبيرة، قلت له: "هذه ليست خزينة كبيرة". إن خزائن السلطان صاحب السعادة مملوءة بالذهب والفضة والآلات الحربية، فبهت حسن بك، ولم يستطع الإجابة.

وكان ثابت أغا -وهو أحد السفراء- قد ذهب قبلنا، ولكن عن طريق تبريز، ولم يتركنا، ووجه لنا الدعوة، وأقمنا معه المسامرات، وفي إحدى المحادثات معه قال لنا: " لقد أُرسل ٣٠٠ انكشاري من ديار الروم لمساعدة براق خان. فقلت له: لم يأتوا لمساعدته؛ بل أرسلوا لإنقاذ المرحوم الشيخ عبد اللطيف، إلا أن الجركس

قطعوا طريقهم عند هشته دار خان، واستشهد هناك الشيخ بابا من أبناء الشيخ أحمد اليسوي قدس سره. ولو أننا أرسلناهم لمساعدة أحد كما تزعمون لكنا قد أرسلنا عدة الآلاف، وليس ٣٠٠ ، ووثق الرجل في كلامي.

وفي أحد الأيام سألني إبراهيم الصفوي أحد العلماء -وهو من أقارب الشاه في نفس الوقت- قائلاً: "ما هو سبب تكفير العلماء العثمانيين لنا ؟". وعندما قلت له: "سُمع أنكم تسبون الصحابة، وسب الصحابة في كتب الفقه كفر ".

فقال هذا على رأي الإمام الأعظم، أما الشافعي فذهب إلى أن سب الصحابة من الصغائر. فقلت له: إن هذا لا يعد من الصغائر بالنسبة للشافعي. كما سُمع أنكم افتريتم على السيدة عائشة رضي الله عنها، وأسندتم لها بعض الأفعال المخجلة للرسولﷺ، وهذا كفر. وقوم كهؤلاء مرتدون، وحينئذ قتالهم حلال وأموالهم غنيمة. وأطفالهم ونساؤهم أسرى، وإذا لم يعودوا عما قالوا يحبسوا، ولكن إذا رجعوا عن ردتهم فإنهم يتزوجون نسائهم مرة أخرى.

فأنكر الرجل ما أقول، وقال: نعم إن إسناد الفاحشة للسيدة عائشة كفر؛ بل إن من يدعي ذلك يكفر لأنه يكذب القرآن؛ لأن الله برّأها، ولكننا لا نحبها لأنها خالفت سيدنا علي، فقلت له: لننظر كيف ستجيب على هذا أيضاً، لقد تطاولتم على عظماء الإسلام الذين قال عنهم النبي ﷺ في حديثه الشريف: (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل)[1]، فسألني قائلاً: "ألسنا نحن من هؤلاء علماء؟"، فقلت على سبيل الملاطفة: "كل علماء الأمة داخلون في هذا الحديث". وقلت له أيضاً: "ألا تعلمون أنه قد ذُكر عن العلماء" أن لحومهم مسمومة؛ من يشمها يمرض، ومن يأكلها يموت، وبالتالي من يتطاول عليهم سيعاقب في الدنيا والآخرة.

وعندما قلت ذلك لم يستطع أن يجيب، وقال: "كل هذا تلفيق". فقلت له: "لنقلب تلك الصفحة"، وبدأنا نتحدث في أشياء أخرى.

---

(١) المستدرك، ج٣، ص ١٨٩، الباب ١١ ح ٣٠.

وذات يوما سأل الشاه العاجز: "أي البلاد أعجبتكم في تلك البلدان التي زرتموها ورأيتموها ؟ " ، فقلت :

كل مدينة تجولت وسحت بها في الدنيا

لم أشهد فيها نظير لغالاطه استانبول

صدق الشاه ما قلت ، ثم سألني قائلاً : " كم عدد قوات الأمراء العثمانيين ؟ " ، فقلت إن هذا خاص بسلطاننا في ديار الروم. كما يوجد لكل جندي من الجنود إقطاعات، أما إقطاعات أمراء السلاطين فهي على حسب كل أمير، وقد يكون مجموع القوات العسكرية في الإيالات أكثر من مجموع جنود السلطان، على سبيل المثال جنود أمير أمراء الأناضول الرومللى، ومصر، وديار بكر، وبودين، وبغداد، واليمن أكثر بكثير من جنود السلطان، وبقية الأمراء الآخرين على هذا الشكل، وهذا هو ما يليق بأمراء السلطنة، كما أن ولاية الروم هي جيش سلطاننا؛

لذا فإن كل أمراؤها يختلفون عن بقية الأمراء الآخرين، فلا يوجد احتمال ولو ذرة واحدة عن انفصالهم عن السلطان، أو مخالفتهم لأوامره الشريفة. وعندما قال بعض أمراء الشاه: لنحضر للشاه الكتب التي أخذها إبراهيم ميرزا في مدينة مشهد خراسان، ونعطيها له؛ لأنها معه ستكون في مكانها الطبيعي. قلت: "الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها"، وفي النهاية ولكي أحصل على الإذن بخروجنا نظمت تلك الغزلية :

أيها القلب لو كنت عاشقاً تلذذ من تجرع دم الاضطراب

لو كنت عارفاً تجرع شراب العشق، وخذ سجية منه

المال زائل وفاني، فلا ترتبط بالدنيا

تحدث كلمة، وخذها مني بدون أجر

فإني أتألم للمساكين، وأسقط في منخفض الوجنات

يا طبيب قلبي ! تعال فحسب، وخذ أجرة نقد الحياة

يا من تهيم في الجبال لا تهيم في الجبال هائماً مثل المجنون

كن طالباً لي في وادي العشق، واحصل على فعل

الفراق كان يكفي لروحي لو تستطيع أن ترى الحبيب

مرة قبل الموت المزيف

خذ مهلة من الموت

يا كاتبي إن حب الوطن من الإيمان

اعرض الأمر على السلطان صاحب الكرم، واطلب الإذن منه

أُعجب الشاه كثيراً بتلك الغزلية، ومنحنا الإذن بالذهاب، وكتب الشاه رسائل للسلطان صاحب السعادة، والشخصيات الكبرى في الدولة أظهر فيها خالص محبته.

وقد انضم إلينا في الطريق نظر بك أخو اليوز باشي حسن بك، ومعه مجموعة من الرجال، وقد منحونا خلعة أخرى. وزرنا الإمام شاه زاده حسين المدفون في قزوين. وفي غرة ربيع الآخر المبارك خرجنا في طريقنا صوب بغداد، ولما مررنا من أمام مدينة تسمى أبجور بالقرب من سلطانية زرنا ضريح الشيخ حسن ابن آخي المدفون هناك في ضريح متهدم، ثم عبرنا قرقان وزرنا هناك الشيخ محمد دم تيز ابن أحمد اليسوي، ومن هناك وصلنا مدينة درجزون. ومنها إلى همدان، وزرنا هناك ضريح الهمداني الملقب بعين القضاة. وضريح حامل راية رسول الله ﷺ الشيخ أبو الأعلى المكي أحد المهاجرين. ومن هناك وصلنا إلى قصبة سعد آباد، ثم ذهبنا إلى حسن بك بكى أوغلو أحد أمراء الحدود وقد اهتم بنا أيضاً. وأظهر لنا صنوف الحرمة والرعاية، ومن هناك ذهبنا إلى جبل بستان من ناحية جبل نهوند وألوند من أراضي لورستان. وزرنا هناك الإمام قاسم، والإمام ويسل القراني. ثم وصلنا قلعة زنجير عبر طريق قصر شيرين.

وفي ذلك اليوم بدا لنا طائر الهما في السماء، وقد تفاءلنا خيراً عندما رأيناه، وأخذ الجميع يتحدثون عن الفأل، فقد قال الشيخ سعدي عليه رحمة الله :

إن طائر الهما من أشرف الطيور

لأنه يأكل العظام، ولا يلحق الضرر بأي طائر

ويفهم من ذلك أن هذا الطائر من أشرف الطيور، وأنه لا يأكل إلا العظام فقط، ويروي بعضهم عن هذا الطائر ما يلي: عندما يجوع يأخذ قطعة من العظام ويطير بها إلى السماء، ثم يسقطها من أعلى، فينزل ويأخذ قطعة قطعة ويفعل بها مثلما فعل في البداية، وبذلك تتفتت العظمة تماماً فيأكل منها.

وفي ذلك اليوم طلبنا الإذن بالعودة إلى نزار بك وعدنا، وفي صباح اليوم التالي خرجنا إلى الطريق، ومن عند قلعة زنجير عبرنا نهراً كبيرً ت يُطلق عليه التسع موتات، ووصلنا مدينة بانه، ومنها إلى بغداد. وتقابلنا مع خضر باشا، وكنا مظهراً لحرمته ورعايته. ومن هناك اتجهنا إلى ديار الروم مباشرة.

# في بيان الوضع الأخير

## في بيان بقية الأحوال

في غرة شهر جماد الأول المبارك عبرنا نهر دجلة بالسفن، وزرنا الأماكن التي كنا قد زرناها من قبل، وخرجنا إلى الطريق فوصلنا تكريت عن طريق قصر سوماكي– خربي، ومنها إلى آمد عن طريق ماردين – ديار بكر. وتقابلنا هناك مع اسكندر باشا، ولقينا منه احترام وإحسان كبيرين، وتسامرنا معه عدة مرات. وقد اندهش عندما سمع منا ما لاقيناه في تلك الرحلة، وقال: "إن ما رأيتموه من أشياء عجيبة وغريبة لم يرها بلقيا وجهان شاه في رؤيته". وسألنا عن سلاطين وجنود الأماكن التي زرناها.

فقرأت عليه الآيات القرآنية التالية: ﴿الٓمٓ *غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾[الروم: ١-٣] وقلت له: "لا توجد دولة تشبه الدولة العثمانية، ولا يوجد سلطان يماثل سلطاننا".

إن انتساب الشاهات لسلطان الروم حق

ولا يوجد جنود يشبهون جنود الدولة العثمانية

فجنود الروم مشهورون في المشارق والمغارب

ولو يعزمون على الحرب ينتصرون دائما

وليكتب الله طول عمر دولة السلطان، وليبلغ جيشه المظفر النصر على الدوام، ويمحق الأعداء في كل مكان وزمان إلى أن يحشرنا الله يوم الحشر آمين.

فقال: أنا أعرف حكومات الدول المجاورة، وأعرف أكثر مما قلت ألف مرة. وفي أثناء حديثنا معه ذكر أنه قد منحت قيادة مصر البحرية إلى قورد أوغلو أمير سنجق رودس، وذلك عندما سُمع بخبر وفاتي. وقلت حينئذ: ليسلم سلطاننا من كل سوء، وتوكلت على لطف الحق الذي لا نهاية له.

ولم يغب عن خاطري قط أننا نريد أن نضم ميناء هرمز، وولاية كجرات للدولة العثمانية، وقلت :

لامعي

هذه المطالب لن تذهب من رأسك

حتى تمتلئ كل رأسي بالتراب

ولا نهاية لهذا التحير

حتى يصبح الجسد باليًا

في النهاية خرجت قاصداً آستانة السعادة، وزرنا في طريقنا النبي ذو الكفل في أركنى، وسرنا من هناك حتى ملاطيا عن طريق خربوط، وزرنا متعلقات السيد الغازي سلطان. ووصلنا سيواس؛ أي ولاية الروم. وتقابلنا مع على باشا، وأكرمنا كثيرًا. وزرنا هناك عبد الوهاب غازي. والتقينا بعلى بابا، وبعد أن حصلنا على دعواته اتجهنا إلى استانبول؛ حيث ذهبنا إلى قره حصار عبر وادي قان،

وذهبنا إلى حاجب بكتاش عبر بوزوق، وزرنا ضريح حاجي بكتاش، وباليم سلطان. ومن هناك مررنا بقير شهر. وزرنا آخى أورن وعاشق باشا، ومررنا من وارسيق عبر طريق أباشي، وعبر جسر جانشير على نهر قيزيل إيرمق، وزرنا حاجي بيرام سلطان وأبناءه، ومقام الخضر عليه السلام. والتقينا مع جنابي باشا، وأكرمنا كثيراً. ومن هناك ذهبنا إلى بولو عبر طريق بكى بازار، ومن بولو مررنا بمدورنو، ووصلنا إلى كوينك، وزرنا هناك الشيخ آق شمس الدين، ثم ذهبنا إلى كيوا من طراقلي، وعبرنا جسر صقاريا ومررنا بأغاج دنير.

وذهبنا إلى إزميت عبر طريق صبانجه، وزرنا نبي خوجه، وعبر طريق جبزه وصلنا إلى آسكدار، ومن آسكدار وصلنا بصحة وسلام إلى أجمل وأكبر مدينة استانبول المحروسة.

الحمد لله الذي أنقذنا من المهالك أوصلنا إلى خير الممالك، ونحمد الله كثيراً على إنقاذنا من الهلاك. وبهذا أصبحت الرحلة بتمامها أربع سنوات مليئة بالأخطار والمشقة والحزن، وفي الأيام الأولى من شهر رجب عام ٩٦٤هـ[(١)] التقينا بأهلنا وعشيرتنا وأصدقائنا.

نحمد الله الذي أبلغنا هذا الإحساس وهذه النعم، الحمد لله ، الحمد لله. ولأن السلطان صاحب السعادة كان في أدرنه فقد خرجنا في اليوم التالي لوصولنا، ويسر الله لنا ذهابنا إلى أدرنه، ومسحنا وجوهنا بعاصمة تخت السعادة.

---

(١) الموافق ١٥٥٦م.

أيها القلب ألم عشق هذا الحبيب كان محببًا لك

سكبت دمعي من أجلك، فلم أجد المتعة

لقد جعلت تراب قدم السلطان تاج على رأسك

والحمد لله أن الدولة كانت على رأسك

يا طبيب روحي لو تسأل عن حالي فقل

له كان مريضًا بألم الضيق في خزينة

الاضطراب أيها الحبيب طرفًا من الجميل

الذي شتت عقلي، وسلب قلبي شرح

ضفائر الحبيب، فأغرق العالم بالرائحة

وفي النهاية كنا مظهر لكرم وعناية السلطان صاحب السعادة، وقدم لنا الوزراء العظام صنوف الإكرام وخاصة الوزير الأعظم[١] رستم باشا -يسر الله له عمله- أظهر لنا إحسان لا نهاية له، وقد قبلنا إحسانهم من قبيل: (الإنسان عبيد الإحسان).

فقد تُصدق على العاجز بثمانين أقجه يومياً برتبة (متفرقة الدركاه العالى)[٢] وزيدت رواتب النواب الذين كانوا معي إلى ثمان أقجات لكل واحد، ومنحوا منصب المتفرقة في مصر. وزيد راتب رئيس البلوك إلى ثمان أقجات، وبقية رفقاء الطريق ٦ أقجات لكل فرد.

---

(١) الوزير الأعظم: أو الصدر الأعظم في الدولة العثمانية، وهو رئيس الحكومة يلي السلطان من حيث المرتبة والمنزلة، استخدم لهذا المنصب عدة ألقاب كالصدر العالي، وصاحب الدولة، وكانت له صلاحيات واسعة من السلطان، فهو الذي يدون كل ما يصدر عن السلطان من قرارات، يتولى الصدر الأعظم رئاسة الديوان الهمايوني، وفي حالة خروجه علي رأس الجيش العثماني يُطلق عليه السردار الأكرم. ويُطلق علي ديوانه (باب الباشا) أو (باب الآصفي)، وكان السلاطين يتركون الخاتم السلطاني عند الصدر الأعظم لوثوقهم فيهم ولسعة الصلاحية التي منحوها إياهم. انظر: Midhet Sertoğlu , a. g. e. s. ٢٨٨.

(٢) متفرقة الدركاه العالي: الدركاه العالي هو القصر العثماني. أما المتفرقة فهو لقب كان يمنح لبعض الأشخاص الذين يشغلون بعض المناصب في الدولة العثمانية. وينقسم المتفرقة إلى أربعة أقسام رئيسية: متفرقة الخنكار وهم أعلى رتبة في القصر. متفرقة أوجاق الإنكشارية. متفرقة الترسانة العامرة. كان يُقال متفرقة لبعض الأغوات الموجودين في معية الصدر الأعظم، والوزراء والأمراء. انظر: M. Sertoğlu , a. g. e , s ٢٣٥.

وأصبح أحدهم جاوش على مصر، أما الباقون فتركت لهم الحرية في اختيار المكان الذي يذهبون إليه. وفي نهايات شهر رجب المبارك توجهنا إلى استانبول بقوة إقبال وسعادة إجلال السلطان صاحب السعادة. وفي اليوم الذي وصلنا فيه قصر جتالجه أُحسن على العاجز بمنصب دفتر دار[١] تيمار ديار بكر.

وبذلك وصلنا إلى كل ما نرجو جميعاً بعون الله وسلامة السلطان، وليزيد الله من انتصارات وشرف دولتنا وسلطاننا صاحب السعادة، وليجعل الله دائماً أعداءه تحت قدميه، وليقلل الله في أعدادهم آمين.

---

(١) الدفتردار: لقب يُطلق علي رئيس المحاسبين في الدولة العثمانية، كان يتولي النظر في الشئون المالية، يقابله الآن منصب وزير المالية. انظر: M. Sertoğlu , a. g. e , s ٨٠

اللهم اجعلنا سعداء في هذه الدنيا، وأكرمنا برحمتك في الآخرة، ولتكن هناك عظة وعبرة من تلك القصة لأصحاب العبر وأرباب الخبرة؛ ألا وهي لا ينغمس أي شخص قط في الأهواء، وليعمل دائما بحكمة: (القناعة كنز لا يفنى). ومن المقرر أن من يترك وطنه ومسكنه، ويتغرب بالتقدير الرباني، ويسيح في بحر المشقة، ويئن في سراديب الحيرة، ويصيح في وادي الغربة، فإنه يرغب العودة لوطنه بمقتضى: (حب الوطن من الإيمان)[1].

وأن من يعزم العودة إلى دياره، ويعرف حق سلطانه، لو قصد آستانة السعادة؛ ليمسح وجهه بها، فلا جرم أن هذا الشخص لن يُخذل، وسيبلغه الله مراده. وسيصل إلى مقصده في أقصر وقت. وسيحصل بذلك على سعادة الدارين. وسيكون مقبول وممدوح بين الناس، وستنفتح له أبواب المقاصد.

---

(١) أختلف المحدثون فيه، وإن لم يكن ثابت من حيث السند، فهو من حيث المتن صحيح المعنى، وممن أيد ذلك الحافظ السخاوي؛ حيث قال: ومعناه صحيح. انظر: السخاوي، المقاصد الحسنة، تحقيق محمد عثمان الخشت، ط٣، ١٩٩٤م، ص ٢١٨.

قد تم الكلام بتوفيق الملك العلام في بلدة (غالاطه) في أوائل شهر شعبان المعظم سنة أربع وستين وتسعمائة من الهجرة النبوية عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات.

تحريراً في أواسط صفر المظفر سنة خمس وستين وتسعمائة.

# مسار رحلة سيدي علي رئيس كما ورد بكتاب مرآة الممالك

يكى شهر– سيدي غازي- قونية–قيصري– حلب- الرها- نصيبين– الموصل- تكريت – سامراء –عاشق ومعشوق – بغداد- قلعة بيره – كربلاء –النجف– الكوفة– القلعة الحسينية– الحلة – بغداد – زكية – قلعة صدر السويب – شط البصرة– عبدان– خاركه- الرى–القطيف– البحرين– جزيرة قيس (هرمز القديمة)–جزيرة برخته– كيمزار– ليمة– خورفكان– عمان- مسقط– كرمان– برجاش–مكران– كيجي مكران– كوادر- ظفار وشحر– جكيد– سومنات– ديو– دامان –صرات -بروج – بلودرا- جامبانور – محمود آباد –أحمد آباد – لوتان– رادينوبر– باركين– ريكسان– وانكه– جونه – باغ الفتح –طوته عاصمة السند – سيام- قلعة بركه- قلعة مار– أوجي– آب ماجورا – مولتان –صاد جيرا– لاهور –دلهي– صونيتيا- بانبت – قرنال – تناصير – السمانية – مانشورا –بشاور –منقوط –لاهور –نيل آباد – بشاور – جوشاى – كابل–قره باغ– جارقيران –

بروان–أنديراب– طهقان –روستاه– سومنت–قاشغر–كلابه- جار صو- بولسنكين – حزارنو –جارشمبه – جيغان باط –شهر سبز –سمرقند–بخارى – نيشابور – سبزوار- بسطام– دامغان –ثمنان- الرى – سبزه جيران– تبريز –قزوين – أبجور –قورقان –درجزون – همدان –سعد آباد – جبل بستان – قلعة زنجير – بانه– بغداد –تكريت – آمد – أرجنى– ملاطيا –سيواس –قير شهر – بولو –مدرنو –جيوا –إزميد – أسكدار – استانبول – أدرنه.

# قائمة المصادر والمراجع

# قائمة المراجع والمصادر

## أولا : المصادر العربية :


١- القرآن الكريم.

٢- ابن إياس، بدائع الزهور، مطبعة الشعب، ج٤، القاهرة ,١٩٦٠

٣- إســماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، ج١ ، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣١٢ هـ.

٤- السخاوي، المقاصد الحسنة، تحقيق محمد عثمان الخشت، ط٣، ١٩٩٤م.

٥- محمد بن إبراهيم بن ســاعد الأنصاري السنجاري، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، تحقيق : محمود فاخوري – محمد كمال، مكتبة لبنان، ط ١، ١٩٩٨.

٦- النيسابورى، المستدرك، تحقيق محمود مطرجي ، ج٣، دار الفكر ٢٠٠١.

٧- ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج ٣، بيروت ١٩٥٧م.

## ثانيا : المصادر التركية العثمانية :


١- بروسه لى محمد طاهر، عثمانلي مؤلفلري، أوجنجى جلد، استانبول ١٣٤٢.

٢- سيدي علي رئيس، مرآة الممالك، مطبعة إقدام، استانبول ١٣١٣.

٣- شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ج ٦ ، استانبول ١٣١٦.

٤- شمس الدين سامي، قاموس تركي، استانبول ١٣١٧هـ.

٥- صولاق زاده تاريخي، استانبول ١٢٩٧.

٦- عالي بك ، سياحت جورنالي، استانبول ١٣١٤.

٧- محمد خورشيد، سياحتنامه حدود، استانبول ١٢٧٧هـ.

٨- محمد شكري، أسفار بحرية عثمانية، برنجي جلد، استانبول ١٣٠٦.

٩- هامر، دولت عثمانية تاريخي، مترجمى محمد عطا، التنجي جلد، ١٣٣٢.

## ثالثا: المراجع العربية:


١- إبراهيم محمد حسن، الصراع الدولي في الخليج العربي، ط١، القاهرة ١٩٩٣.

٢- أرنولد ويلســون، تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان ١٩٨١م.

٣- أشــرف نبيه، ألبانيا في ظل الحكم العثماني، رســالة ماجســتير غير منشورة، جامعة عين شمس، ٢٠٠٥,

٤- أكمل الدين إحســـان أوغلو(إشـــراف وتقديم)، الدولة العثمانية، نقله إلى العربية صالح سعداوي، ج١، استانبول ١٩٩٩.

٥- أندريه كلو، سليمان القانوني، تعريب البشير بن سلامه، دار الجيل، بيروت ١٩٩١.

٦- بسام العسلي، فن الحرب الإسلامي، ج٥، دار الفكر، بيروت.

٨- جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، دار الفكر، القاهرة ١٩٩٦.

٩- روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشــير الســباعي، دار الفكر، القاهرة ١٩٩٣م.

١٠- زينب عصمت راشد، تاريخ أوربا الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة.

١١- سالم الرشيدي، محمد الفاتح، مكتبة الإرشاد، جدة، ١٩٨٩.

١٣- سـيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، معهد البحوث والدراسات العربي، القاهرة ١٩٧٧.

١٤- صـادق نشأت ، تاريخ الخليج السياسي، ترجمة وتحقيق، أحمد كمال حلمي، الكويت ١٩٧٢م.

١٥- صالح أوزبران، البرتغاليون والأتراك في الخليج العربي، البصرة ,١٩٧٩

١٦- صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، البصرة ١٩٧٩.

١٧- عبـد العزيز الشـــنـاوي، الـدولة العثمانية دولة مفترى عليها، ج٢، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٨٤.

١٨- عبد العزيز الشـناوي، أوربا في مطلع العصـور الحديثة، ج١، دار المعارف بمصـر ١٩٦٩.

١٩- عبد العزيز عبد الحي، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، الرياض ١٩٨٢.

٢٠- عراقي يوسـف، الوجود العثماني في مصـر في القرنين الـــ ١٦-١٧ ، مكتبة بيت الحكمة، القاهرة ١٩٩٦.

٢١- عزيز ســامح ألتر، ترجمـة محمود على عـامر، الأتراك العثمـانيون في أفريقيـا الشمالية، بيروت ١٩٨٩م.

٢٢- على حسون، تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٤، ٢٠٠١.

٢٣- على محمد الصلابي، الدولة العثمانية، دار التوزيع والنشر، القاهرة ٢٠٠١.

٢٤- عيســى على إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشــوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ,٢٠٠٠

٢٥- فاروق عثمان أباظة، الحكم العثماني في اليمن، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠.

٢٦- لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١ ، الدوحة ٢٠٠٢.

٢٧- ماجدة مخلوف، الجوانب الإنســانية والأدبية لدى بابر شــاه، دار الصــحيفة، القاهرة ٢٠٠٠.

٢٨- مجموعة من الباحثين، دائرة سفير للمعارف الإسلامية، ج٣٥ القاهرة ,١٩٩٥

٢٩- محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٥م.

٣٠- محمــد حرب، العثمــانيون في التاريخ والحضـــارة، مركز بحوث العالم التركي، القاهرة ,١٩٩٤

٣١- محمد حســـن العيدروس، تاريخ الخليج العربي، مكتبة عين للدراســـات والبحوث، القاهرة ١٩٩٨

٣٢- محمد حسن العيدروس، تاريخ العرب الحديث، دار الكتاب الجامعي، الكويت ١٩٩٨.

٣٣- محمد سهيل طقوش، العثمانيون، دار بيروت المحروسة، بيروت ١٩٩٥.

٣٥- نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٧٣.

٣٦- نوال صيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج، مطبوعات دار الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٨٣م

٣٧- وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٣.

٣٩- يوسف الثقفي، دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب، دار الثقة، ط٢ ١٤١١هـ

٤٠- يوسف الثقفي، موقف أوربا من الدولة العثمانية، دار الثقة، ط١ ١٤١٧.

## رابعا : المراجع التركية :


١- Abdülhalik Adnan Adıvar, Osmanlı Türklerinde Ilim, ٢. baskı, Istanbul ١٩٤٣.

٢- Celal Esad Erseven, Türk Sanatı, istanbul tarihsiz.

٣- Cengiz Orhunlu, ١٥٥٩ Bahreyn Seferine Aid Bir Rapor, ist.Üniv.Edebiyat Fakü, Tarih Dergisi, Mart ١٩٦٧, c. ١٧, sayı ٢٢.

٤-Cengiz Orhunlu, Hint kaptanlığı ve Piri Reis, Bellten, Ocak ١٩٧٠, No : ١٣٤ .

٥- Cengiz Orhunlu, Seydi Ali Reis, Ist Üniver, Edebiyat fak, Tarih Enistitüsü Dergisi, Istanbul ١٩٧٠ .

٦- Edip Bostan, Gemi Maddesi, T.D.Vakfı. Islam Ansik, c. ١٤, ist ١٩٩٦.

٧- Gozde Ramazanoglu, Orta Asyada Türk Mimarisi, Ankara ١٩٩٨.

٨- Hakkı Dursun Yıldız, Büyük Islam Tarihi, c. ٩. ist ١٩٨٨

٩- Ismail Hakki Uzunçarşılı, Osmanlı Devletinin Merkez ve Bahriye Teşkilatı, Ankara ١٩٨٨.

١٠- Katib Celebi,Tuhfet-ul Kibar fi Asfar el Bihar, Haz. Orhan Şaik Gokyay, ist ١٩٧٣.

١١- M. Sertoğlu,Osmanlı Tarih Luağtı, ٢. Baskı, Istanbul ١٩٨٦.

١٢- Mehmed Maksudoğlu, Osmanlı Devleti, Eskişehir ١٩٩٩.

١٣- Mehmed Süreyya, Sicil Osmani, yayina hazırlayanlar, Ali Aktan-Abdulkadir yuval, Istanbul ١٩٩٦.

١٤- Osman Zeki Soyyiğit, Katarda Osmanlı Hakimiyeti, Neşr edilmemiş Doktora Tezi, , Istanbul ١٩٩٠

١٥- Sahabeden Günümüze Allah Dostları, yazarlar, Istanbul ١٩٩٦.

١٦- Şehabeddin Tekindag, Süveyşde Türkler ve Selman Reisin Arızası, Belgelerle Türk Tarihi Dergisi, sayı ,ist ١٩٦٨.

١٧- Şerefeddin Turan, Seydi Ali Reis maddesi, Islam Ansiklopedisi, c. ١٠, Eskişehir ١٩٩٧.

١٨- Türk Ansiklopedisi, Şeyhi Maddesi, c. ٣٠, Ankara ١٩٨١.

١٩- Türk Denizciliği, Abidin Daver, Istanbul, Tarihsiz .

٢٠- Yavuz Bahadiroğlu, Osmanlı padişahları ansiklopdisi , c.١, yeni asya yayı, Istanbul ١٩٨٦.

**خامسا : المراجع الفارسية :**

**١ـ على اكبر ده خدا، لغت نامه، مجلد ٢٠، تهران ١٣٣٦هـ ش.**

# الملحـــــق

## عريضة سليمان باشا الخادم

## التي قدمها إلى السلطان القانوني بخصوص فتح عدن

عرض الخادم المفعم بالتوسل على السدة التي جلالها السماء، والعتبة التي هي كوكب زحل ما يلي:

الآن، عندما وصل هذا الخادم بالأسطول السلطاني إلى الميناء المعروف باسم كمران الواقع بالقرب من زبيد، أرسل فرهاد الذي هو من رجاله، والذي أرسله سابقا إلى أميري عدن وشحر بالخلع السلطانية، وأمره بسك العملة وقراءة الخطبة في عدن وشحر باسم صاحب العظمة حضرة السلطان حامي العالم، والمرسل إلى الآستانة التي مقرها السعادة بالعملة المسكوكة بثلاثة قوارب من الأسطول السلطاني قبل خمسة أو ستة أيام إلى أمير عدن حاملا إليه الحكم الهمايوني المعنون بالعلامة السلطانية الشريفة، وبأنواع الاستمالات الواردة في مضمون الحكم الشريف، فأبحر الخادم فرهاد المذكور من كمران مع هبوب الريح، ودخل ميناء عدن، وما أن رآه أميرها حتى أمر بإغلاق بابا القلعة بإحكام، ولم يسمح بفتحه أربعة أيام. لكن لما كان فرهاد المذكور قد جاء مسبقًا حاملاً الخلعة السلطانية إلى الأمير المذكور،

وكان على معرفة به من قبل، أظهر أمير عدن المودة والصداقة إليه، وفي اليوم الخامس أمر بفتح باب القلعة بمشقة، فحضر فرهاد، وقابل الأمير المذكور، وسلمه الحكم الشريف، وأظهر له أنواع الاستمالات وأصناف الأمان، وبعدها أبحر خادمكم من كمران، وتوجه إلى عدن في يوم السبت الموافق السابع عشر من شهر ربيع الأول، وعندما وصلها لم ينزل الشراع؛ حيث جاء بسفن الأسطول كاملة مفردة الأشرعة، ودخل الميناء مباشرة، وألقى الهلب، وعندما طلب مقابلة أمير عدن لم يحضر إليه وتجاهل طلبه، وأرسل إليه أربعة أشخاص من الأعيان، فأمر سليمان باشا بإلباسهم خلع وقفطانات حضرة سلطان العالم بناء على الأصول القديمة، وأظهر لهم أنواع الاستمالات بسبب خوفهم، وعدم مبالاة أميرهم في مقابلته، وأعادهم ثانية إلى القلعة، وعندما وصلوا إلى أميرهم تعذر الأمير المذكور بالحجج والأعذار الواهية كي لا يقابل سليمان باشا الخادم، كما أنه لم يظهر الموافقة على الخروج من القلعة.

**نهاية الأمر جدت الأحداث على هذا النحو التالي :**

توجه المدعو سليمان باشا الخادم مع بعض الأشخاص إلى أمير عدن، وأظهروا له اللين قائلين: "تعال وقابل الباش هنا، وارتدي الخلعة الهمايونية لحضرة السلطان حامي العالم خلد الله سلطانه". فتوجه المذكور وعندما خرج من باب القلعة استقبله الأمراء وعوام العسكر بالتعظيم، وأخذوا معهم علمه خفية وأرسلوه، وفي بادئ الأمر ركب قارب مجهز، وذهب به لسفينة سليمان باشا الخادم، وما إن وصلها حتى أطلقت مدفعيتها على الفور، وأخرجوا علمه، ونصبوه على برج القلعة.

في الواقع عندما توجه سليمان كتخدا -سليمان باشا الخادم- إلى أمير عدن من قبل مع بعض الأشخاص قابلوه، وأظهروا له أنواع المودة، وأخرجوه هو ووزيره وأمير القلعة واثنين من رجاله الأقوياء أيضاً، وأرسلوهم لسفينة سليمان باشا، وما إن دخلوها حتى أمسكوا بهم وقيدوهم بشكل محكم، وعلى الفور أطلقت المدفعية من السفينة، ونصبوا العلم على سور القلعة هاتفيين: "الله أكبر"، ودقت طبول بشارة النصر، وملأت العسكر المنصورة أنحاء القلعة، وبعناية الله تيسر الفتح في أيام دولة السلطان القانوني.

وبناء على ذلك الحال جاء الشكاة إلى سليمان باشا الخادم بسبب قيام عوام العسكر المنصورة بسرقة متعلقات أهالي القلعة المذكورة أثناء الفتح، واستنجدوا به، وعلى الفور توجه سليمان باشا ودخل القلعة، وقام بمجازاة معظم الذين ارتكبوا السرقات وضرب رقاب واحد أو اثنين منهم، فلم يعاودوا السرقة ثانية.

نهاية الأمر وضع على أبواب القلعة رجال لمهمة الحراسة، ووقف سليمان باشا على باب الميناء، ونشر الرجال في أنحاء المدينة لإحضار المتعلقات المسروقة، من أيدي الأشخاص الموجودة معهم، فجاءوا بها، وجمعوها في مكان ما، وبالرغم من هذا لم يتيسر فتح القلعة على هذا الشكل.

حيث نادى المنادون في المدينة بأن لا يلمس أحد المتعلقات وليحضرها الأشخاص الذين أخذوها، وسوف يُحسن على كل جندي باقجه واحدة". وبهذا ابتعد كل فرد عن السرقة، وقام بإحضار المتعلقات التي استولى عليها، وعلى الفور تم جمع كافة المتعلقات في مكان ما في حضور سليمان باشا الذي نصب عليها قاضياً وأميناً، وبعد أن أثبت كل شخص متعلقاته، أما القاضي سلم كل فرد حقه كاملاً.

وفي عصر ذلك اليوم خرج سليمان باشا من القلعة، وجاء للسفينة حيث دبر وسيلة للقضاء على أمير عدن المذكور لاحتمال كونه باعثًا على الفتنة التي حدثت، فأرسل سليمان باشا الأمير المذكور مع أحد وزرائه، وثلاثة من رجاله الأقوياء وصلبهم على باب القلعة، بعد ذلك صاح أهالي القلعة قائلين: الأمان آل عثمان، وجاء الذين تفرقوا، واختفوا من الخوف مرة أخرى إلى أماكنهم بانتظام، وعم السرور مثلما كان داخل القلعة، وتحققت الرفاهية.

ولما كان خادمكم بهرام بك، وهو من الأمراء المكلفين بمهام الحراسة في مصر، وكان من المرافقين لسليمان باشا في تلك الحملة رجلاً شجاعًا كُلف بمهمة الحراسة هنا مع مائة نفر من فرقة الجراكسة، ومائة نفر من فرقة العزب، ومائة من فرقة الفرسان حالي البنادق، ومائة نفر من بلوك المتطوعين، ومائة نفر من العزب، وبذلك يكون مجموعهم خمسمائة نفرا، كما عين لحراسة القلعة عشرين نفرا من المدفعجية وكتخدا عليهم، وبالرغم من هذا لم يتيسر فتح القلعة أيضًا بهذا الإجراء،

فلم يكن ممكنًا اقتلاع حجر واحد من القلعة، أو الإمرار من حائطها؛ لأنها مشهورة من القدم بالمناعة، فكانت حصن حصين وقلعة متينة، ولم يتيسر لأي شخص قصد فتحها حتى الآن؛ لذا فقد فقدنا الأمل في فتحها؛ لأن البحر يحيط بها من ثلاث جهات، ونواصي الجبال الداخلية تحيط بها الجبال الشامخة، والفلك الراسخة، وأساس كل بناء منها في الماء وقمته في السحاب، وعلى كل قمة جبل منها بني برجًا عاليًا، في متانته كأنه سبع شداد، وكأنما نزل في شأنها قوله تعالى: ﴿ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ [الفجر: ٨]، فلم يكن هناك نظير في حسنها وبهائها، وكانت منازلها المبنية داخلها عالية وشاهقة؛ إذ يرتفع سقف كل منزل حتى يصل في علوه لبروج الفلك، فهي تشابه تقريبًا منازل مصر.

وبحمد الله تيسر فتح القلعة دون أن تدمى رقبة فرد في دولة صاحب العظمة حضرة السلطان حامي العالم، وبمشيئة الله تعالى سيتم فتح وتسخير بقية تلك النواحي في الأيام السلطانية المباركة؛ لأن عدن تعد أهم جزء في مملكة اليمن الواسعة التي تمتد من عدن حتى تصل لحدود مكة المشرفة، وبها القلاع المشهورة زبيد، وتعز، وصفان (صنعاء)، وقد شاهد الخادم هذه البلاد بنفسه، ويقال: إنها أرض متسعة تضم نحو ثلاثين سنجقًا؛ لذا يلزم لفتحها أمير أمراء كفء، وأرى أن يكون هذا الأمير هو بهرام بك المكلف بالحراسة هنا، أو أي شخص غيره، فليأت وليجلس في زبيد، ولتكن النواحي والجوانب الممتدة من مكة المشرفة، وحتى عدن تحت إدارته، وليقوم بحمايتها وحراستها كما ينبغي، أما عدن فليكن بها الآن بناءً على الأصول المتبعة حارسًا للقلعة، وكتخدا وجنودًا للقلعة والعزب؛ لأن عدن قلعة واقعة داخل الجبل، أما زبيد فتقع وسط المملكة، وبالوقوف عليها يكون من الممكن حراسة وحماية بقية النواحي.

والآن لما اقترب موعد التوجه بالأسطول الهمايوني إلى جزيرة ديو، ولم يعد هناك وقتًا كافيًا، وضع الخادم الجند المسجلين بالدفتر على وجه السرعة، وتم التوجه إلى ديو.

أما القلعة المذكورة فكانت كبيرة بصورة زائدة، وبخلافها كانت توجد قلعة صغيرة تقع على مخرج الميناء، وأصبح لازمًا وضع خمسمائة من عسكر القلاع وأربعمائة من العزب للقلعة الكبيرة، وكذلك مائة من عسكر القلاع، وحارس للقلعة الصغيرة، وقد تم تسجيل خمسة عشر شخصًا من الموجودين هنا، ولما كان هناك احتياج للبقية البالغ عددها خمسمائة وثمانين نفرًا، طُلب إرسالهم من تلك الجوانب، وبالتالي كانت هناك ضرورة لتسجيل أغا للمتطوعين وأغا للتوفنكجية (حاملي البنادق)، وأغا للعزب، وخمسمائة نفر من المتطوعين، وخمسمائة نفر من الفرسان حاملي البنادق من خدم الباب العالي لحفظ وحراسة المملكة الواقعة في تلك النواحي، وكما يلزم تسجيل ستمائة نفر من المدفعجية، وعشرة أفراد من سائقي عربة المدافع من أجل القلعة، ويخصص لهم رواتب، ولتتفضل العناية السلطانية بمنحها وصرفها لإرسالها إلى عدن،

وليكن راتب المتطوعين أول ما يكون ١٦ أقجه، وراتب حاملي البنادق ١٥ أقجه، وراتب جنود القلاع ١٠ أقجات، والعزب ٩ أقجات وراتب المدفعجية وسائقي العربات ١٠ أقجات، وعندما تُرسل رواتبهم فلتخصص رواتب عام من خزينة مصر ولتعطى لهم، وليكتفوا بها حتى تستقر أحوال المملكة – اليمن-، وتتحقق رفاهيتها، ويأتي العائد إليها من النواحي التابعة لها ثم بعد ذلك يتقاضوا رواتبهم منها.

وهناك احتياج لثلاثين مدفعًا، وثلاثين مدفعًا من نوع "شايقه" كبير وصغير من الباب العالي، وإلى جانب هذا يتم تجهيز ثلاثة أشخاص معماريين، وخمسة أشخاص مساعدين، ومقدار كاف من الآلات والوسائل اللازمة من المحافر والكريكات والفؤوس والأزاميل الضرورية في البناء، ولترسل تلك الأشياء إلى أمير أمراء مصر ليقوم بإرسالها إلى جدة، ويُكلف أمير جدة بإرسالها إلى بهرام بك الموجود في عدن.

وليرسل حكم شريف إلى أمير أمراء مصر بتجهيز ٥٠٠٠ إردبا من القمح وألفين قنطارًا من البارود من أجل الذخيرة؛ حتى تستقر أحوال مملكة اليمن، ولترسل جميعها إلى قلعة عدن، وذلك لأن نية أمير عدن المذكور كانت الاتفاق مع الكفار البرتغاليين؛ حتى أنه في الآونة الخيرة شُوهد بعض زوارق الكفار قد أتت إليه.

وسابقًا أمرت بأن تسك العملة بالاسم الشريف لحضرة السلطان حامي العالم وبموجب صورة هذا العرض أصبحت تلك العملة التي أرسلها مع الخادم فرهاد بك متداولة الآن، وأمرت بسك جميع الآقجات باسم السلطان، وكذا قراءة الخطبة باسمه.

والآن أديت صلاة الجمعة الموافق ١٣ ربيع الأول لعام ٩٤٥هـ في جامع قلعة عدن، وقُرئت خطبة الفتح باسم حضرة السلطان حامي العالم ، وباقي فرمان بلاطكم المعلا[١].

(١) عريضة سليمان باشا الخادم التي قدمها إلى السلطان القانوني بخصوص فتح عدن.

# الفهـــرس


الإهـــــداء............................................................................................. ٥

المقدمـــة ............................................................................................. ٦

القسـم الأول الدراســـــة.............................................................................. ١١

المدخـل البحرية العثمانية في النصف الثاني من القرن السادس عشر ......................... ١٢

البــاب الأول سيدي علي رئيس، عصره، أعماله، ومكانتـه فـي البحريـة العثمانيـة ............... ٥١

الفصل الأول أحوال العالم الإسلامي في القرن السادس عشر الميلادي........................... ٥٢

الفصـل الثانـــي سيدي علي رئيس حياته ومكانته........................................................ ٨٤

البـاب الثاني كتــاب مــرآة الممالــك دراسة في المحتوى والأسلوب ................................ ١١٦

الفصـل الأول كتاب مرآة الممالك.......................................................................... ١١٧

الفصـــل الثانـــي الخصائص الأسلوبية واللغوية لكتاب مرآة الممالك لسيدي علي رئيس...... ١٣٩

الفصـل الثالـث منهج سيدي علي في كتابه مرآة الممالك ............................................ ١٤٥

القسـم الثانـــي الترجمة العربية لكتاب مرآة الممالك.................................................. ١٦٤

في مدح السلطان مؤسس الدين: ........................................................................ ١٦٦

**سبب تأليف الكتاب:........................................................... ١٦٧**

**مدخل ملحمة مرآة الممالك ............................................................ ١٧١**

**في بيان الأحوال الواقعة في ولاية البصرة..................................... ١٨٦**

**في بيان الأحداث التي جرت في بحر هرمز .................................... ١٨٩**

**في بيان الأحداث التي وقعت في المحيط الهندي ............................ ٢٠١**

**في بيان الأحول التي جرت في كجرات........................................... ٢١٢**

**الأحدث التي جرت في ولاية السند.................................................. ٢٣١**

**في بيان الأحداث التي جرت في بلاد الهند....................................... ٢٤٦**

**في بيان الأحداث التي وقعت بأرض زابلستان................................... ٢٧٨**

**في بيان الأحداث التي وقعت بولاية بدخشان وخُتلاند........................ ٢٨١**

**في بيان الأحداث التي وقعت في ولاية أرض توران أي ما وراء النهر........... ٢٨٥**

**الأحداث التي وقعت في ولاية خوارزم وصحراء القبجاق ...................... ٣٠٠**

**في بيان الأحداث التي جرت في ولاية خراسان.................................. ٣٠٩**

**في بيان الأحداث التي وقعت في عراق العجم.................................... ٣٢٦**

في بيان الوضع الأخير.................................................................... ٣٤٢

مسار رحلة سيدي علي رئيس كما ورد بكتاب مرآة الممالك ...................................... ٣٥٢

قائمـة المصـادر والمراجـع.............................................................. ٣٥٤

الملحـــــق.......................................................................... ٣٦٤

الفهــرس ............................................................................ ٣٧٥

المركز الثقافي الآسيوي .................................................................. ٣٧٨

# المركز الثقافي الآسيوي

- مؤسسة بحثية مستقلة، تتبع جمعية خريجي معهد الدراسات والبحوث الآسيوية، تخضع لقانون الجمعيات الأهلية المصري، مشهرة في وزارة التضامن الاجتماعي برقم ١٣٢٨ لسنة ٢٠٠٢م.
- يتكون **المركز الثقافي الآسيوي** من الوحدات التالية :

١)وحدة دراسات الخليج وشبه الجزيرة العربية.

٢)وحدة الدراسات الإيرانية.

٣)وحدة الدراسات التركية والعثمانية.

٤)وحدة الدراسات الأرمنية والقوقازية.

٥)وحدة الدراسات اليهودية والإسرائيلية.

٦)وحدة دراسات الشرق الأقصى.

٧)وحدة دراسات الفنون والتراث.

## ٨) وحدة دراسات تركستان الشرقية - شينجيانج

- يهدف **المركز الثقافي الآسيوي** إلى عمل البحوث والدراسات المتعلقة بقارة آسيا في النواحي التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكافة النواحي الحضارية.
- يعمل **المركز الثقافي الآسيوي** على طباعة ونشر الدراسات التي تنتجها وحداته المختلفة، كذلك الدراسات التي يتقدم بها الباحثون المتخصصون في مجال اهتمامات وحدات المركز.
- كما يقوم **المركز الثقافي الآسيوي** بترجمة الإصدارات العالمية الخاصة بقارة آسيا وإصدارها في نشرات خاصة.
- يسعى **المركز الثقافي الآسيوي** إلى إصدار عدة سلاسل من الكتب والدوريات المتخصصة والتي تخدم الدراسات الآسيوية خاصة، والثقافة الإنسانية بشكل عام.

- يمد **المركز الثقافي الآسيوي** يد التعاون للباحثين والمراكز البحثية والهيئات العلمية الأخرى، للقيام بالأنشطة العلمية والندوات والمؤتمرات وعمل الأبحاث ونشرها.